شرح العقيدة الأصفهانية

لابن تيمية

أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم

قدم له وعرف به

حسنين محمد مخلوف

المفتي السابق

يطلب من

دار الكتب الإسلامية لصاحبها توفيق عفيفي عامر

١٤ شارع الجمهورية بعابدين - ت ٩١٦١٠٧

شرح العقيدة الأصفهانية

لابن تيمية

أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم

قدم له وعرف به

حسنين محمد مخلوف

للمفتي السابق

يطلب من

دار الكتب الإسلامية لصاحبها توفيق عفيفي عامر

١٤ شارع الجمهورية بعابدين - ت ٩١٦١٠٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية

ليس من قصدنا فى هذه الكلمة الموجزة تَقَصِّى تاريخ شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية ونشأته ودراسته وعلومه وآرائه وبحوثه ومناظراته ومساجلاته وآثاره العلمية ، ومواقفه السياسية فى الدفاع عن الإسلام وأوطان الإسلام ، وإحاطة علمه بعصره وأحوال أهله ، وما يتصل بذلك من وقائع المحن التى أصابته ، والشدائد التى نزلت به ، فذلك مجال فسيح وبحث مترامى الأطراف ، لا يفى به ولا ينهض بعبئه إلا كتاب مستقل جامع .

وإنما قصدنا بها اقتطاف نبذ يسيرة من كل ذلك يلمح الناظر خلالها صورة لشيخ الإسلام فى إطار بديع يبعثه جلالها وعظمها إلى الدنو من رحباته والولوج إلى ساحاته ، يسمع منه ويقرأ له فيستفيد أعظم فائدة من كل علمٍ مارسه ، وبحث أثاره ، ورأى أعلنه ، ودليل أقامه ، وحق جلّاه ، ومنار أعلاه ، ونقاش أبداه ، وهَدْى أسداه ؛ فيعود و بين يديه ذخيرة العمر وعدّة الجهاد وكنز الحياة وزاد الآخرة ، وفى قلبه إشراق ونور يهديه إلى الحق وإلى طريق مستقيم (ومن يُرِدِ الله به خيراً يُفَقّهه فى الدين) .. فنقول :

هو الإمام المجدد ، شيخ الإسلام تقى الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ شهاب الدين أبى المحاسن عبد الحليم ابن شيخ الإسلام مجد الدين أبى البركات عبد السلام ابن أبى محمد عبد الله بن أبى القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن على بن عبد الله ابن تيمية الحرّانى نسبة إلى « حرّان » بلدة بالشام .

***

ولأسرة ابن تيمية فى ربوع الشام قديماً شهرة ذائعة ومكانة عالية فى العلم والفضل والزعامة والإمامة فى مختلف العلوم الإسلامية ، فقد كان شيخ الإسلام الشيخ مجد الدين عبد السلام (جد المترجم) — كما أجمع عليه المؤرخون — فَرْداً فى زمانه ، رأساً فى الفقه وأصوله ، إماماً من أئمة الحنابلة ، بارعا فى الحديث وعلومه ، له اليد الطولى فى معرفة القراءات والتفسير . صنف التصانيف العظيمة ومنها : التفسير ، ومنتقى الأخبار فى أحاديث الأحكام ، والمحرر فى الفقه الحنبلى. واشتهر اسمه وشاع ذكره وعمَّ فضله .

ولد بحَرَّان سنة ٥٩٠ هـ ، وحفظ بها القرآن الكريم وسمع الحديث من عمه فخر الدين وغيره من حفاظ الحديث ، ورحل فى طلب العلم إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية فى سنة ٦٠٣ هـ وأقام بها بضع سنين ثم يَمَّمَ بلده حرَّان ، وبعد مدة عاد إلى بغداد فازداد بها شهرة ومكانة وإمامة ، وتوفى بها سنة ٦٧٢ هـ ، رحمه الله .

* * *

وكان الشيخ شهاب الدين عبد الحليم (والد المترجم) على غرار أبيه شيخ الإسلام عبد السلام علماً وفضلا ، وصلاحاً وتُقًى ، وشهرة ومكانة . قرأ الفقه الحنبلى على أبيه وتفوق فيه وأحكم فروعه وأصوله ودَرَّس وأفتى وصنَّف . وكان إماماً محققاً كثير الفنون ، دَيِّناً حسن الأخلاق ، متواضعاً جواداً من حسنات العصر ونجوم الهدى .

وكان شيخ دار الحديث السكرية بدمشق بعد أن هاجر إليها بأسرته وأولاده إبان فتنة التتار .

وكان له كرسى بالجامع يتكلم فيه أيام الجمع من حفظه .

وفخر الدين بن البخارى وابن شيبان وزينب بنت مكى ، وغيرهم من شيوخ الحديث . وقد بلغ عدد من سمع منهم أكثر من مائتين .

وسمع الكتب الستة والمسانيد ومعجم الطبرانى الكبير ، وقرأ بنفسه الكثير ولازم السماع عدة سنين .

وكانت له خبرة تامة بالرجال ، وبالجرح والتعديل ، وطبقات الرواة والمحدِّثين ومعرفة واسعة بفنون الحديث مع حفظه لمتونه .

وقد بلغ من قوة حفظه أنه ما كان ينسى شيئًا حفظه مع سرعة الحفظ ، وكانت له قدرة عجيبة على استحضار ما تستدعى الحاجة استحضاره من الأحاديث وكان إليه المنتهى فى عزوه إلى الكتب الستة والمسانيد ، بحيث يصدق أن يقال فيه : إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث .

* * *

أما التفسير فهو ابن بَجْدَته والمجلِّى فى حلبته ، وقد قدر ما جمعه فيه بأكثر من ثلاثين مجلداً ، ولكن ضاع أكثرها إبَّان الفتن والمحن . وكانت له قدرة عظيمة على استحضار الآيات للاستدلال بها على ما يريد .

* * *

وكان دَؤُباً على الدرس والمطالعة والبحث والتأليف فى مختلف العلوم ، وقلما يزاول علماً إلا ويُفْتح عليه فيه .

وكان يكتب فى اليوم والليلة من التفسير أو الفقه أو أصوله أو أصول الدين أو الرد على الفلاسفة أو أهل الملل والنحل والفرق أو غيرهم ، نحواً من أربعة كراريس . اهـ بتصرف .

* * *

وقد ولد بحرّان سنة ٦٢٧ هـ ، وتوفى بدمشق سنة ٦٨٢ هـ رحمه الله .

***

أما ابن تيمية (المترجم) فقد ولد بحرّان فى عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ ، ثم ارتحل والده به وبأخويه إلى دمشق فيمن هاجر إليها من المسلمين فراراً من التتار الذين أغاروا على بلاد الإسـلام فى ذلك العهد ، وأظهروا فى الأرض الفساد . . .

وشب ونما فى كَنَف والده الإمام بدمشق ، واستظهر بها القرآن الكريم وتعلم الخط والحساب فى حداثة سنِّه ، ثم أقبل بعد ذلك ـ كما قال ابن الوردى[1] فى تاريخه ـ على الفقه وعلم العربية ، ثم أقبل على التفسير إقبالا كليًّا حتى سَبَق فيه ، وأحكم أصول الفقه . كل ذلك وهو ابن بضع عشرة سنة ؛ فانبهر العلماء من فرط ذكائه ، وسيلان ذهنه ، وقوة حافظته ومداركه .

وكان فى صغره يحضر المحافل العلمية فيناظر ويجادل ويُفحِم الكبار ويأتى بالمعجب ، وأفتى وله أقل من تسع عشرة سنة . وشرع فى التأليف ، وأخذ وهو فى الحادية والعشرين من عمره فى تفسير القرآن أيام الجمع فى المسجد الجامع من حفظه ، كما كان والده من قبل .

واتجه إلى الحديث رواية وحفظاً فرواه عن أعلامه وكبار شيوخه كزين الدين أحمد بن عبد الدائم المقدسى وابن أبى اليسر والكمال بن عيد وشمس الدين الحنبلى وشمس الدين بن عطاء الحنفى وجمال الدين الصيرفى ومجد الدين بن عساكر وابن أبى الخير وابن علان وأبى بكر الهروى والكمال عبد الرحيم

---

(١) هو الإمام المؤرخ الثقة عمر بن مظفر الشهير بابن الوردى المولود بمعرة النعمان بالشام سنة ٦٩١ هـ والمتوفى بحلب [illegible]

وقد قال فيه معاصره الحافظ الذهبي[1] في معجم شيوخه :

« شيخنا وشيخ الإسلام وفريد العصر علماً ومعرفة وشجاعة وذكاء وتَنَوُّراً ربانياً وكرماً ونصحاً للأمة وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر .

سمع الحديث وأكثر بنفسه من طلبه ، وكتب وخَرَّج ونظر فى الرجال والطبقات ، وحَصَّل ما لم يُحَصِّله غيره ؛ وبرع فى تفسير القرآن وغاص فى دقائق معانيه ، واستنبط منه أشياء لم يُسْبَق إليها ، وبرع فى الحديث وحفظه ، وفاق الناس فى معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب بل يقول بما قام دليله عنده ، وأتقن العربية أصولا وفروعا وتدليلاً واختلافاً .

ونظر فى العلوم الفلسفية وآراء المتكلمين ورَدّ ما أخطئوا فيه وحَذّر منه ، ونصر السنة بأوضح الحجج وأبهر البراهين ، وأُوذِىَ فى ذات الله من المخالفين وأُخِيفَ فى نشر السنة المحضة حتى أعلى الله مناره وجمع قلوب أهل التقوى على محبته ، وكَبَتَ أعداءه وخذلهم ، وهَدَى به رجالا من أهل الملل والنحل ، وأحيا به الله الشام ، بل الإسلام ، بعد أن كاد ينثلم لمّا أقبل التتار المغيرين على البلاد .

ومحاسنه كثيرة وهو أكبر من أن يُنَبِّه على سيرته مثلى ، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أنى ما رأيت بعينى مثله ، وأنه ما رأى مثل نفسه » اه .

وقال الحافظ الذهبى أيضاً :

« أحفظ من رأيت أربعة : (أى فى الحديث) ابن دقيق العيد ، والدمياطى ،

---

(١) هو الإمام الحافظ المؤرخ الثبت الثقة شمس الدين محمود بن أحمد الذهبي المولود بدمشق سنة ٦٧٢ هـ والمتوفى بها سنة ٧٤٨ هـ .

وابن تيمية والمِزِّى ؛ فابن دقيق العيد أفقههم فى الحديث ، والدمياطى أعرفهم بالأنساب ، وابن تيمية أحفظهم للمتون ، والمِزِّى أعرفهم بالرجال » اهـ .

° ° °

وقال عنه معاصره الحافظ اليَعْمُرى[1] :

« إنه كان يستوعب السنن والآثار حفظاً . إذا تكلم فى التفسير فهو حامل رايته ، أو أفتى فى الفقه فهو مدرك غايته ، أو ذاكر فى الحديث فهو صاحب علمه وروايته ، أو حاضر بالملل والنحل لم نر أوسع من نحلته فى ذلك ولا أرفع من رايته ، برّز فى كل علم على أبناء جنسه ، ولم تر عينُ من رآه مثله ، ولارأت عينُه مثلَ نفسه » اهـ .

* * *

وقال الشيخ عماد الدين الواسطى — بعد ثناء طويل عليه ، وكان ممن يجلّه ويعظمه :

« فوالله لم يُرَ تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية علماً وعملاً ، وحالاً وخُلُقاً ، واتباعاً وكرماً ، وحلماً وقياماً فى حق الله عند انتهاك حُرُماته ، أصدق الناس عقداً وأصحهم علماً وحزماً ، وأنفذهم وأعلاهم فى انتصار الحق وقيامه همةً وأسخاهم كفًّا وأكملهم اتباعاً للنبى صلى الله عليه وسلم » اهـ .

* * *

(١) هو الإمام الحافظ الحجة فتح الدين بن سيد الناس اليعمرى المؤرخ الثقة المولود بمصر سنة ٦٧١ هـ والمتوفى بها سنة ٧٣٤ هـ .

وقال ابن دقيق العيد[1] وقد سئل عن رأيه فيه بعد اجتماعه به :

« ... رأيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه ، يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء ! » اهـ .

* * *

وقال فيه ابن الزملكانى[2] (مع مخالفته له فى بعض آرائه ورده عليه) :

« كان ابن تيمية إذا سئل عن فن من الفنون ظن الرائى والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحداً لا يعرف مثله ، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا فى سائر مذاهبهم منه ما لم يكونوا يعرفونه قبل ذلك ؛ ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ، ولا تكلم فى علم شرعى أو غيره إلا فاق فيه أهله » .

* * *

وكتب الإمام تقى الدين السبكى[3] كتاباً إلى الحافظ الذهبى يعتذر فيه عما قاله فى حق ابن تيمية جواباً على كتاب الحافظ الذهبى إليه الذى يعتب عليه فيه ما صدر منه ، قال :

---

(١) هو الإمام المجتهد الحجة تقى الدين محمد بن على المعروف بابن دقيق العيد المتوفى بالقاهرة سنة ٧٠٢ هـ .

(٢) هو الإمام الثقة كمال الدين محمد بن على الأنصارى المعروف بابن الزملكانى رئيس الشافعية فى عصره بدمشق وغيرها المتوفى سنة ٧٢٧ هـ .

(٣) هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو الحسن على بن عبد الكافى والد التاج السبكى صاحب الطبقات ولد بمصر سنة ٦٨٣ وتوفى بها سنة ٧٥٦ بعد أن ولى قضاء الشام سنة ٧٣٩هـ وله مؤلفات عظيمة كثيرة .

« وأما قول سـيدى فى الشيخ (أى ابن تيمية) فالمملوك يتحقق كبر قدره وزخارة بحره وتوسعه فى العلوم الشرعية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهـاده ، وبلوغه فى كل ذلك المبلغ الذى لا يتجاوزه الوصف .

والمملوك يقول ذلك دائماً ، وقدره فى نفسى أكبر من ذلك وأجل مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيـام فيه لا لغرض سواه ، وجريه على سَنَنِ السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى ، وغرابة مثله فى هذا الزمان ، بل فى أزمان » اه .

هذه شهادة الإمام تقى الدين السبكى فى ابن تيمية ، وناهيك به مع ما كتب عنه ما كتب وألف ما ألف فى الرد عليه وتفنيد آرائه .

وإنها لدليل على عظم الإمام السبكى وإنصافه للشيخ ونموذجٌ يجب أن يحتذى به العلماء فى خصوماتهم العلمية واختلافاتهم النظرية . وقدمنا — قبل هذا — عن الإمام ابن الزملـكانى مثل هذا الموقف مع ابن تيمية مع اختلافه معه فى الرأى والمذهب .

وإنا نسأل الله تعالى أن يوفق علماء عصرنا للتأسى بهذين الإمامين وأمثالهما من الأئمة السابقين فيما يختلفون فيه بينهم فى الرأى والنظر .

***

وقال الحافظ أبو الحجاج المِزِّى(1) : «ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا أتبعُ لهما منه » اه .

---

(1) هو جمال الدين الإمام يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف محدث الديار الشامية ولد بظاهر حلب سنة ٦٥٤هـ ونشأ بالمزة من ضواحى دمشق وتوفى بدمشق سنة ٧٤٢هـ .

وكان ابن تيمية مع ذلك سخيًّا كريماً ورعا شجاعاً فريداً فى عصره .

ففى كرمه يقول ابن فضل الله العمرى[1] :

« كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فيهب ذلك بأجمعه ويضعه عند أهل الحاجة فى موضعه ، ولا يأخذ منه شيئاً إلا ليهبَهُ ، ولا يحفظهُ إلا ليُذْهِبه » اه .

وفى ورعه يقول صفى الدين البخارى :

« . . أما ورعه فكان من الغاية التى ينتهى إليها فى الورع ، فما خالط الناس فى بيع ولا شراء ولا معاملة ولا تجارة ، ولا كان ناظراً أو مباشراً لوقف ، ولم يقبل صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجرٍ ، ولا ادَّخَر ديناراً ولا درهماً ولا غيرهما ، ولا زاحم فى طلب الرياسات ، ولا رُئى ساعياً فى تحصيل المباحات ؛ مع أن الملوك والأمراء والكبراء كانوا طوع أمره خاضعين لقوله » اه .

وفى شجاعته ونجدته يقول العلامة سراج الدين أبو حفص :

« كان الشيخ إذا حضر فى عسكر المسلمين فى جهاد ورأى هَلَعاً من بعضهم أو جُبْناً شجعه وثَبَّتَه ، وبشَّرَه وَوَعَّده بالنصر والغنيمة ، وبيَّنَ له فضل الجهاد والمجاهدين .

وكان إذا ركب الخيل يجول فى العدوّ كأعظم الشجعان ، ويتقدم كتائب الفرسان ، ويخوض المعركة خوض رجل لا يخاف الموت ، وقد رأوا منه فى فتح (عكا) أموراً من الشجاعة يعجز الواصف عن وصفها » اه .

---

(١) هو الإمام شهاب الدين أحمد بن يحيي بن فضل الله القرشى العدوى العمرى المؤرخ الحجة ولد بدمشق سنة ٧٠٠هـ وتوفى بها سنة ٧٤٩ هـ إمام فى الترسل والإنشاء وتاريخ رجال عصره وله مؤلفات جليلة وشعر غاية فى الرقة .

كانت له مواقف بطولة وبسالة ضد جيش التتار فى سنة ٧٠٢ هـ يستنهض العزائم لجهادهم ويلهب الشعور الإسلامى ضدهم مع عتوهم وقسوتهم وإسرافهم فى القتل والسلب والظلم .

وقد ذهب بنفسه وَوَرَاءه جمع من الأعيان إلى ملكهم (قازان) وَوَاجَهه فى جراءة وخاطبه بشدة ، فأخذته هيبة الشيخ واستجاب لبعض ما طلب .

ثم قصد إلى مصر يستحث سلطانها على حرب العدوّ المغير ، وشهد بنفسه القتال فى شهر رمضان سنة ٧٠٢ هـ فى موقعة (شقحب) المشهورة التى أسفرت عن انتصار جيش الإسلام وهزيمة جيش التتار .

* * *

كما كانت له مواقف إسلامية ضد المبتدعين والظلمة والمفسدين ، ومن كان يوالى التتار المغيرين من الشيعة وغيرهم ، وقوض الخمارات ومحال الخمور المحرمات فى سنة ٦٩٩ هـ ، وغير ذلك مما دَوَّنه المؤرخون عنه قديماً وحديثاً [١] .

وفى وصفه عامة يقول ابن فضل الله العمرى :

« كان أمة وحده ، وفرداً حتى نزل لحده ، جاء فى عصر مأهول بالعلماء ، مشحون بنجوم السماء ، تموج فى جانبيه بحور خضارم ، وتطير بين خافقيه نسور قشاعم ، وتشرق فى أنديته بدور وضيئة ، إلا أن صباحه طمس تلك النجوم ، وبحره طمّ على تلك الغيوم ، ففاءت سمرته على تلك التلاع ، وأطلت قسورته على

(١) وممن أرخه حديثا الأساتذة الأفاضل الشيخ بهجت البيطار من أعيان العلماء بدمشق والشيخ عبد العزيز مصطفى المراغى والشيخ محمد يوسف موسى رحمهما الله والشيخ محمد أبو زهرة فى مؤلفات قيمة .

تلك السباع ، ثم عُبِّئت له الكتائب لحطم صفوفها ، وخطم أنوفها ، وابتلع غديره المطمئن جداولها ، واقتلع طوده المُرْجَحِنُّ جنادلها ، وأخمدت أنفاسهم ريحه ، وأكمدت شررهم مصابيحه ، لجمع أشتات المذاهب وشتات الذاهب » اهـ.

* * *

هذا هو ابن تيمية شيخ الإسلام وإمام أهل الهدى والعرفان ، نادرة الزمان وأعجوبة الدهر فى القرنين السابع والثامن الهجرى .

وهذه هى مواهبه الفطرية ومقدرته الفكرية وقوة عارضته وسعة مداركه وشدة ذكائه وفهمه وحصافة رأيه .

وهذا هو علو نفسه وعظم همته وبُعْدُ غايته وسمو مقصده ومبلغ إحاطته بزمنه وأحوال أهله وبمختلف العلوم درساً وتحصيلاً وتدريساً وتأليفاً حتى بلغ رتبة الاجتهاد فى الفقه ، وتسنم ذروة الإمامة فى كل فن مارسه وبزّ فيه فطاحل العلماء وفاق فيه الأعيان والنظراء .

وهذه شهادة جمهرة من أئمة العلم والحديث والتاريخ عاصروه ، أو كانوا على مقربة من عصره .

وناهيك بالحافظ الذهبى والإمام ابن الوردى والحافظ اليعمرى والإمام ابن دقيق العيد والحافظ المزى والتقى السبكى والإمام ابن الزملكانى والعماد الواسطى وابن رجب الحنبلى وابن فضل الله العمرى وسراج الدين أبى حفص وابن الآلوسى فى جلاء العينين وصاحب شذرات الذهب وصاحب فوات الوفيات ، وغيرهم من أقطاب العلم والتاريخ فى ذلك العصر .

وما نظن أحداً تحدث عنه معاصروه ومن قربوا من عصره من الثقات الأعلام كما تحدث هؤلاء الأ[illegible] ابن تيمية وبلوغه مرتبة الإمامة فى كل فن : فى

التفسير والحديث والفقه ، وفى العربية والأصول والكلام، وفى المنطق، والفلسفة وفى التصوف، وفى الملل والنحل والفرق، مع التصون والعفاف والزهادة والعزوف عن الدنيا وعلو الهمة والتعبد والإنابة إلى الله والاعتصام بالله فى كل أمر والشجاعة والإقدام على اقتحام الخطوب لنصرة الإسلام ضد الطغاة المغيرين على البلاد ، لا حبًّا فى رياسة ولا طمعاً فى مغنم ، كل ذلك مع اتباع هدى الكتاب والسنة فى كل شأن والوقوف عند حدودهما فى كل حال ، والذود عن حياضهما بقوة خارقة وعزيمة صادقة مخلصة وشجاعة وإقدام وثقة بالله تعالى وإيمان .

* * *

وقد أجمع مؤرخو ابن تيمية على أنه كان فى عصره أمة وحده توافرت له شروط الاجتهاد فكان فى الدين مجتهداً ، وبلغ رتبة الإمامة فى كل فن مارسه فكان فى العلوم إماما مُتَّبَعاً ، وكان أتبع الناس للكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين المقتفين آثار النبوة ، فكان سلفى العقيدة والمنهج ، مقتديا .

وكان شجاعاً جريئاً لا يرهب قوة ولا يخشى بطشاً من ذى سلطان ، فكان قائداً موفقاً .

وكان صريحاً إلى أبعد حدود الصراحة فى رأيه ومناظراته وفتاواه ومؤلفاته ، مع حدة فى الطبع وعنف فى الرد على معارضيه إلى حد أَرَّثَ بينه وبينهم العداوة وَأَوْرَثَ الكراهية — كما قاله الذهبى — وإن كان بعضهم قد أنصفه ، كما سنشير إليه .

وكان عالى الهمة عزيز النفس أبِيًّا عيوفاً لا يذل ولا يستخذى ، ولا يجارى ولا يمارى ، ولا يرى لأحد عليه يداً يغضى لها حين يغضب ؛ وقد وهبه الله العلم وأعزه به فلم يعتز بسواه ، ولم يقف بباب حاكم ولا أمير ، طامعاً فى رفد ، آملا فى جاه .

وتلك سنة السلف الصالح من أئمة الإسلام .

وكان يُمتَحَن بالمحن والشدائد فلا يفل له عزم ولا تهن منه قوة ، واثقاً بالله متدرعا الصبر والرضا ، محتسباً أجر جهاده عند الله الذى يجزى الصابرين ، ولا يضيع أجر المحسنين .

ولقد كان له أسوة حسنة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى أصحابه المجاهدين وأئمة المسلمين وفى إمامه إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل الذى قام لله مقام صدق ، صابراً على البلاء والمحنة ، رضى الله عنهم أجمعين .

***

آراء ابن تيمية وآثاره :

وكانت لابن تيمية آراء خالف فيها ما عليه جمهور العلماء فى بعض العقائد والأحكام ، وفى آيات الصفات والأحاديث الواردة فيها ، وفى التوسل والوسيلة وشد الرحال لزيارة القبور وفى الحلف بالطلاق وغير ذلك .

وكانت له مع الفلاسفة والمتصوفة والروافض وغلاة الشيعة كالقرامطة والباطنية الملاحدة وسائر أهل البدع ـ الأهواء ومع أهل الكتاب مواقف خالدة ومناظرات هائلة فى الشام ومصر شغلت الناس وأثارت الأفكار وحركت الأنظار ، واتسمت من جانبه ببعض الحدة والعنف .

وانقسم فيه العلماء والباحثون إلى فرق : فريق يؤيده ويناصره ، وفريق آخر ينابذه ويعانده ، بل يضلله فى بعضها أو يكفره ، وفريق ثالث يوافقه فى بعض وفى بعض يخالفه .

وله فى كل ما درسه وأثاره من خلاف مؤلفات ورسائل من أشهرها هذه الفتاوى المجموعة ، والأجوبة الحموية التى أملاها سنة ٦٩٨ هـ ، والعقيدة

الواسطية المشهورة ، ومنهاج السنة النبوية فى الرد على الروافض ، وهو من أجل الكتب وأعظمها فائدة ، واقتضاء الصراط المستقيم ، والسياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ، ورسالة الفرقان بين الحق والباطل ، ومعالم الأصول ، ورسالة فى الاستغاثة ، وأخرى فى زيارة بيت المقدس ، والواسطة بين الخلق والحق والتوسل والوسيلة ، والفرق المبين بين الطلاق واليمين ، ورسالة فى زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور ، ورسالة الحسبة فى الإسلام ، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، وهو كتاب جليل الشأن ، إلى غير ذلك من مؤلفاته التى لا يبعد أن تصل إلى خمسمائة مجلد كما قاله ابن الوردى ، والتى فتحت فى العلم والبحث آفاقا جديدة ، وأحدثت ضجة عنيفة فى ذلك العصر وأثارت جدلا قويا فيه وفيما بعده بين مؤيديه ومعارضيه .

وكما أسهب تقى الدين فيها أسهب معارضوه فى الرد عليه فيما ألفوه من كتب ورسائل وبحوث .

* * *

وللإمام ابن تيمية موافقًا ومخالفًا فضل عظيم ويد طولى على العلم والعلماء ، والقضاة والمفتين وسائر الباحثين فى سائر العصور ، حيث أثار هذه المسائل والبحوث التى اختلفت فيها الأنظار وتجاذبها البحث بين النظار ، وقصد كلٌّ إصابة الحق والصواب ، ولكل مجتهد نصيب ، فمن أصاب فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر الاجتهاد ، وعلى الله قصد السبيل والتوفيق للحق والصواب .

* * *

أثر انفراده بهذه الآراء :

انفرد ابن تيمية بآرائه فى بعض المسائل وكتب فى ذلك ما كتب من كتب كبار ورسائل صغار ، وكان بعض من يحبونه ويجلونه من العلماء يكرهون له التفرد ببعض هذه الآراء ، ومنهم عماد الدين الواسطى .

قال ابن رجب الحنبلى(1) فى طبقاته ، وهو يتحدث عن الواسطى وإجلاله لابن تيمية :

« ولكن كان الواسطى وجماعة من خواص أصحاب الشيخ ربما أنكروا من الشيخ كلامه فى بعض الأئمة الكبار الأعيان وفى الصوفية ونحوهم وإن كان الشيخ لا يقصد بذلك إلا الانتصار للحق .

وطوائف من أئمة أهل الحديث وحفاظهم وفقهائهم كانوا يحبون الشيخ ويعظمونه ، ولم يكونوا يحبون له التوغل مع أهل الكلام ولا الفلاسفة كما هو طريق أئمة أهل الحديث المتقدمين كالشافعى وأحمد رضى الله عنهما .

وكذلك كثير من العلماء من الفقهاء والمحدثين والصالحين كرهوا له التفرد ببعض شذوذ المسائل التى أنكرها السلف على من شذ بها حتى أن بعض قضاة العدل من أصحابنا -- يعنى الحنابلة -- منعه من الافتاء ببعض ذلك » اهـ .

* * *

(1) هو الحافظ أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامى البغدادى ثم الدمشقى الحنبلى المولود فى بغداد سنة ٧٣٦ هـ والمتوفى بدمشق سنة ٧٩٥ صاحب لطائف المعارف وذيل طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى وشرح الترمذى وجمع العلوم والحكم وغيرها رحمه الله .

وقال الحافظ الذهبي :

« ومن خالطه (يعني ابن تيمية) وعرفه قد ينسبني إلى التقصير فيه ، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلى التغالي فيه ؛ وقد أُوذِيت من الفريقين من أصحابه وأضداده ، وأنا لا أعتقد عصمته بل أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية ، فإنه كان مع سعة علمه وفرط شجاعته وسيلان ذهنه وتعظيمه لحرمات الدين بشراً من البشر ، تعتريه حدة في البحث وغضب وصدمة للخصوم تزرع له عداوة في النفوس ، ولولا ذلك لكان محل إجماع ، فإن كبارهم خاضعون لعلومه معترفون بأنه بحر لا ساحل له وكنز ليس له نظير ، ولكنهم ينقمون عليه أخلاقاً وأفعالا وكلٌّ يؤخذ من قوله ويترك » اهـ .

* * *

ثم أوضح ذلك في موضع آخر بقوله :

« له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين ، قلَّ أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها مذاهب الأربعة ، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة وصنف فيها واحتج لها بالكتاب والسنة ، وله الآن عدة سنين لا يفتي بمذهب معين ، بل بما قام عليه الدليل عنده .

ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية ، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يُسْبَق إليها ، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا ، وجسر هو عليها ، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه وبدَّعُوه ، وناظروه وكابروه ، وهو ثابت لا يداهن ولا يماري ، بل يقول الحق المرّ الذي أداه إليه اجتهاده ، وحدة ذهنه ، وسعة دائرته في السنن والأقوال ،

مع ما اشتهر به — رضى الله تعالى عنه ، وغفر له — من الورع ، وكمال الفكر ، وسرعة الإدراك .

فجرى بينه وبينهم حملات حزبية ، ووقعات شامية مصرية ، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجيه الله فإنه دائم الابتهال كثير الاستغاثة به ، قوى التوكل ، ثابت الجأش » اهـ .

* * *

وقد وقع ما كان خواصه يحذرونه ، واشتدت الخصومات بينه وبين معارضيه ونازلهم بشدة وعنف فى مناظراته ورسائله وكتبه أكثر مما نازلوه وحبس فى الشام وفى مصر وفى الاسكندرية مراراً ، ومات أخيراً وهو سجين بقلعة دمشق فى العشرين من شهر ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ ، عن سبعة وستين عاماً وثمانية أشهر وعشرة أيام ، رحمه الله .

وذكر ابن كثير أنه لم يتخلف عن تشييع جنازته إلا من لم يستطع إلى ذلك سبيلا ، وحضرها نساء كثيرات حزرن بخمسة عشر ألفاً غير اللاتى كن على الأسطحة وغيرها ، وأما الرجال فحذروا بستين إلفاً إلى مائة ألف ، وقد دفن بمقبرة الصوفية إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله رحمهما الله تعالى .

* * *

إلى هنا انتهى ما قصدناه بهذه الكلمة ، وحسبنا أن نقول : إن كتاب شرح العقيدة الأصفهانية يعد مكملا لفتاوى شيخ الإسلام رحمه الله التى هى موسوعة إسلامية ، وذخيرة علمية ، وثروة فقهية لا يسع باحثاً إسلامياً ، ولا فقيهاً متشرعا ، إلا أن يدرسها بدقة وعمق وسعة صدر ، وتحرر من ربقة التقليد المحض ،

لا لصاحبها ولا لغيره ، ويستمد منها ومن غيرها ما يسنده الدليل ويدعمه البرهان ، وكلٌ يؤخذ من قوله ويترك كما قال الحافظ الذهبي ، رحمه الله .

جزى الله ابن تيمية شيخ الإسلام خيراً عن الإسلام وأمته ، وأسكنه فراديس الجنات بفضله ومنته ؟

كتبه

حسنين محمد مخلوف

مفتى الديار المصرية السابق
وعضو جماعة كبار العلماء

تحريراً فى ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٣٨٦ هـ
١٦ أغسطس سنة ١٩٦٦ م

شرح العقيدة الاصفهانية

لابن تيمية

بسم الله الرحمن الرحيم

(سئل شيخ الإسلام) أبو العباس تقي الدين بن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه وهو مقيم بالديار المصرية في شهور سنة اثنى عشر وسبعمائة أن يشرح العقيدة التي ألفها الشيخ شمس الدين محمد بن الأصفهاني الإمام المتكلم المشهور الذي قيل إنه لم يدخل إلى الديار المصرية أحد من رؤوس علماء الكلام مثله وأن يبين ما فيها .

(فأجاب) إلى ذلك واعتذر بأنه لابد عند شرح ذلك الكلام من مخالفة بعض مقاصده لما توجبه قواعد الإسلام فإن الحق أحق أن يتبع والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين ،والله تعالى يقول: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) .

وليعلم أن الشرح المطلوب الآتي ذكره اشتمل ولله الحمد مع اختصاره على غرر قواعد أصول الدين التي لم ينهض بتحقيق الحق فيها إلا الجهابذة النقاد من سادات الأولين والآخرين كما ستشهد ذلك ويشهد به وقت التأمل أهل العدل والانصاف من المحققين المحققين والله سبحانه ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(وأول العقيدة المذكورة قوله): الحمد لله حق حمده ، وصلواته على محمد رسوله وعبده العالم خالق واجب الوجود لذاته واحد عالم قادر حي مريد متكلم سميع بصير (والدليل على وجوده الممكنات) لاستحالة وجودها بنفسها واستحالة وجودها بممكن آخر ضرورة استغناء المعلول بعلته عن كل ما سواه وافتقار الممكن إلى علته (والدليل على وحدته) انه لا تركيب فيه بوجه وإلا لما كان واجب الوجود لذاته ضرورة افتقاره إلى ما تركب منه،

ويلزم من ذلك أن لا يكون من نوعه اثنان إذ لو كان لزم وجود الاثنين بلا امتياز وهو محال (والدليل على علمه) ايجاده الأشياء لاستحالة ايجاده الأشياء مع الجهل بها (والدليل على قدرته) ايجاده الأشياء ، وهي إما بالذات وهو محال إلا لكان العالم وكل واحد من مخلوقاته قديما وهو باطل فتعين أن يكون فاعلا بالاختيار وهو المطلوب * (والدليل على انه حي) علمه وقدرته لاستحالة قيام العلم والقدرة بغير الحي (والدليل على ارادته) تخصيصه الأشياء بخصوصيات واستحالة التخصيص من غير مخصص (والدليل على كونه متكلما) انه آمر وناه لأنه بعث الرسل لتبليغ أوامره ونواهيه ولا معنى لكونه متكلما إلا ذلك . (والدليل على كونه سميعا بصيرا) السمعيات (والدليل على نبوة الأنبياء) المعجزات (والدليل على نبوة نبينا محمد) ﷺ القرآن المعجز نظمه ومعناه .

(ثم نقول) كل ما أخبر به محمد عليه الصلاة والسلام من عذاب القبر ومنكر ونكير وغير ذلك من أحوال القيامة والصراط والميزان والشفاعة والجنة والنار فهو حق لأنه ممكن ، وقد أخبر به الصادق فلزم صدقه والله الموفق (متن) .

فأجاب رضي الله تعالى عنه * الحمد لله رب العالمين ، ما في هذا الكلام من الأخبار بأن للعالم خالقا وانه واجب الوجود بنفسه وانه واحد عالم قادر حي مريد متكلم سميع بصير فهو حق لاريب فيه * وكذلك ما فيه من الاقرار بنبوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ونبوة محمد ﷺ وانه يجب التصديق بكل ما أخبر به من عذاب القبر ومنكر ونكير ، وغير ذلك من أحوال القيامة والصراط والميزان ، والشفاعة والجنة والنار فانه حق ، فان هذه الأسماء المقدسة المذكورة لله تعالى منها ما هو في كتاب الله تعالى كاسمه الواحد والعالم والقادر والحي والسميع والبصير .

قال تعالى : « وإلهكم إله واحد » ، وقال تعالى « رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) ، وقال تعالى : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم * وعنت الوجوه للحي القيوم) ، وقال تعالى : (والله شكور حليم * عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) ، وقال تعالى « ان الله على كل شيء قدير » وقال تعالى « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ، ومثل هذا في القرآن كثير .

(وأما تسميته) سبحانه بأنه مريد وأنه متكلم فان هذين الاسمين لم يردا فى القرآن ولا فى الأسماء الحسنى المعروفة ومعناها حق ولـكن الأسماء الحسنى المعروفة هى التى يدعى الله بها ، وهى التى جاءت فى الكتاب والسنة وهى التى تقتضى المدح والثناء بنفسها ، والعلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك هى فى نفسها صفات مدح والأسماء الدالة عليهـا أسماء مدح .

(وأما الـكلام والارادة) فلما كان جنسه ينقسم إلى محمود كالصدق والعدل ، وإلى مذموم كالظلم والـكذب ، والله تعالى لا يوصف إلا بالمحمود دون المذموم جاء ما يوصف به من الـكلام والارادة فى أسماء تخص المحمود كاسمه الحكيم والرحيم والصادق والمؤمن والشهيد والرؤوف والحليم والفتاح ، ونحو ذلك مما يتضمن معنى الـكلام ومعنى الارادة. فان الـكلام نوعان انشاء وإخبار ، والإخبار ينقسم إلى صدق وكذب ، والله تعالى يوصف بالصدق دون الـكذب ، والانشاء نوعان إنشاء تـكوين ، وإنشاء تشريع ، فانه سبحانه له الخلق والأمر ، وإنمـا أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيـكون ، والتـكوين يستلزم الارادة عند جماهير الخلائق وكذلك يستلزم الـكلام عند أكثر أهل الاثبات ، وأما التشريع فيستلزم الـكلام ، وفى استلزامه الارادة نزاع ، والصواب انه يستلزم أحد نوعى الارادة كما سنبين ان شاء الله ، والانشاء يتضمن الأمر والنهى والاباحة والله تعالى يوصف بأنه يأمر بالخير وينهى عن الشر فهو سبحانه لا يأمر بالفحشاء ، وكذلك الارادة قد نزه نفسه عن بعض أنواعها بقوله تعالى (وما الله يريد ظلما للعباد) وقوله « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » فلهذا لم يجىء فى أسمائه الحسنى المأثورة المتكلم والمريد .

وأما ما يوصف به الرب من الـكلام والارادة فقد دلت عليه أسماؤه الحسنى ، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الله تعالى متكلم بكلام قائم به ، وان كلامه غير مخلوق وانه مريد بارادة قائمة به ، وان ارادته ليست مخلوقة ، وأنـكروا على الجهمية من المعتزلة وغيرهم الذين قالوا ان كلام الله مخلوق خلقه فى غيره وانه كلم موسى بكلام خلقه فى الهواء ، واتفق سلف الأمة وأئمتها على ان كلام الله منزل غير مخلوق ـ منه بدأ وإليه يعود ـ ومعنى قولهم منه بدأ أى هو المتـكلم به لم يخلقه فى غـيره كما قالت الجهمية من المعتزلة

وغيرهم أنه بدأ من بعض المخلوقات وأنه سبحانه لم يقم به كلام ولم يرد السلف أنه كلام فارق ذاته فان الكلام وغيره من الصفات لا تفارق الموصوف بل صفة المخلوق لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فكيف تكون صفة الخالق تفارقه وتنتقل إلى غيره ؟ ولهذا قال الامام أحمد : كلام الله من الله ليس ببائن منه ورد بذلك على الجهمية المعتزلة وغيرهم الذين يقولون كلام الله بائن منه خلقه فى بعض الأجسام ، ومعنى قول السلف : إليه يعود ما جاء فى الآثار ان القرآن يسرى به حتى لا يبقى فى المصاحف منه حرف ولا فى القلوب منه آية ، وقد قال الله تعالى عن المخلوق (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذبا) ومع هذا فكلمة المخلوق لا تفارق ذاته وتنتقل إلى غيره .

وما جاءت به الآثار عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين لهم باحسان وغيرهم من أئمة المسلمين كالحديث الذى رواه أحمد فى مسنده وكتبه إلى المتوكل فى رسالته التى أرسل بها إليه عن النبي ﷺ أنه قال : (ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه) يعني القرآن وفى لفظ « بأحب إليه مما خرج منه » . وقول أبي بكر الصديق رضى الله عنه لما سمع كلام مسيلمة :ان هذا كلام لم يخرج من إل . أى من رب ، وقول ابن عباس لما سمع قائلا يقول لميت لما وضع فى لحده : اللهم رب القرآن اغفر له فالتفت إليه ابن عباس فقال : مه القرآن كلام الله ليس بمربوب .منه خرج وإليه يعود ، وهذا الكلام معروف عن ابن عباس .

وقول السلف القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود كما استفاضت الآثار عنهم بذلك كما هو مذكور عنهم فى الكتب المنقولة عنهم بالأسانيد المشهورة لا يدل على ان الكلام يفارق المتكلم وينتقل إلى غيره ، ولكن هذا دليل على ان الله هو المتكلم بالقرآن ومنه سمع لا أنه خلقه فى غيره كما فسره بذلك أحمد وغيره من الأئمة . قال أبو بكر الاشتر :سئل أحمد عن قوله القرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود .فقال أحمد:منه خرج هو المتكلم به وإليه يعود .ذكره الخلال فى كتاب السنة عن عبد الله بن أحمد . وما جاءت به الآثار مثل قول خباب بن الأرت « تقرب إلى الله بما استطعت فانك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه مما خرج منه » وروى ذلك مرفوعا ونحو ذلك أولى أن

لا يدل على أن الكلام يفارق المتكلم وينتقل إلى غيره ، ولكن هذا دليل على أن الله هو المتكلم بالقرآن ومنه سمع لا أنه خلقه فى غيره .. وقد بين السلف والأئمة وأتباعهم فساد قول الجهمية وأتباعهم الذين يقولون كلامه مخلوق بوجوه كثيرة مثل قولهم: لو كان مخلوقا فى غيره لكان صفة لذلك المحل ولاشتق لذلك المحل منه اسم كما فى سائر الصفات مثل العلم والقدرة والسمع والبصر والحياة ، وكما فى الحركة والسكون ، والسواد ، والبياض ؛ وسائر الصفات التى تشترط لها الحياة فإنها إذا قامت بمحل كانت صفة لذلك المحل دون غيره ، واشتق لذلك المحل منها اسم دون غيره . فان الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل دون غيره ، وسمى بالاسم المشتق منها ذلك المحل دون غيره . وطرد هذا عند السلف وجمهور أهل الاثبات فى أسماء الأفعال كالخالق والعادل وغير ذلك . .

وأما من لم يطرد ذلك بل زعم انه يوصف بصفات الأفعال وهى عنده المفعولات المباينة له ويشتق له منها اسم فقوله متناقض ، ولهذا نقضت المعتزلة قول هؤلاء بما سلموه لهم وبسط هذا له موضع آخر ..

والمقصود هنا التنبيه على الفرق بين المتكلم والمريد وغيرهما حيث جاءت النصوص باسم العليم والقدير ، والسميع والبصير ، ولم تأت باسم المريد والمتكلم بما يدل على مطلق الارادة والكلام وإنما جاءت بما يدل على الكلام المحمود والارادة المحمودة لا باسم يشترك فيه المحمود والمذموم وأن الكلام والارادة مما يقوم بالرب تعالى ويوصف به ليس ذلك أمراً منفصلا عنه كما تزعم الجهمية والمعتزلة ، والتنبيه على أنه لو كان كلام الله مخلوقا فى محل لكان ذلك المحل هو المتكلم به وكانت الشجرة مثلا هى القائلة لموسى « اننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى » ولوجب أن يكون ما أنطق الله به بعض مخلوقاته كلاما له وقد قال تعالى « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء » .. وقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يسلم عليه الحجر ، وقال انى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث انى لأعرفه الآن ، وقد سبح الحصى بيديه حتى سمع تسبيحه ..وأمثال ذلك كثير والله هو الذى أنطق هذه الأجسام .. فلو كان ما يخلقه من النطق والكلام كلاما له لكان ذلك كلام الله كما ان القرآن كلام ، وكان لافرق بين أن ينطق هو وبين أن ينطق غيره من المخلوقات ، وهذا ظاهر الفساد ..

(وكان قدماء الجهمية) تنكر أن يكون الله يتكلم ، فان حقيقة مذهبهم ان الله لا يتكلم ، ولهذا قتل المسلمون أول من أظهر هذه البدعة فى الإسلام الجعد بن درهم ضحى به خالد بن عبد الله القسرى فى يوم النحر ،وقال ضحوا أيها الناس تقبل الله ضحايا كم فانى مضح بالجعد بن درهم انه زعم ان الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما. تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا . ثم نزل فذبحه .. ثم انهم صاروا يقولون انه متكلم مجازا .. ثم أظهروا القول بأنه متكلم حقيقة وفسروا ذلك بأنه خالق للكلام فى غيره ، وكان هذا من التلبيس على الناس فان المتكلم عند الناس من قام به الكلام لا من أحدثه فى غيره . كما أن المريد والرحيم ، والسميع والبصير ، والعالم والقادر من قامت بهالارادة والرحمة والسمع والبصر والعلم والقدرة لا من أحدث ذلك فى غيره وكذلك الارادة ..

(ومن الجهمية والمعتزلة وغيرهم) من يقول انه لا ارادة له كما يقوله من يقوله من المعتزلة البغداديين ، ومنهم من يقول: له إرادةأحدثها لافى محل كما يقوله البصريون منهم. والشيعة المتأخرون وافقوهم على ذلك ولهم قولان كالمعتزلة وهو من أفسد الأقوال من وجهين .. من جهة اثباتهم صفة لا فى محل ، ومن جهة اثباتهم حادثا أحدثه لا بارادة ..

(فهذا المصنف) احترز عن مذهب هؤلاء وأحسن فى ذلك ، ولكن هذا المصنف اختصر هذه العقيدة من كتب المتكلمين الصفاتية الذين يثبتون ما ذكره من الصفات بما نبه عليه من الطرق العقلية ويسمون ذلك العقليات ..

(وأما أمر المعاد) فيجعلونه كله من باب السمعيات لأنه ممكن فى العقل والصادق قد أخبر به ، وأما المعتزلة والفلاسفة والكرامية وغيرهم، وكثير من أهل الحديث والفقه من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم ، وكثير من الصوفية وسلف الأمة وأئمتها فيجعلون المعاد أيضا من العقليات ويثبتونه بالعقل ، ويخوض أهل التأويل فيه كما خاضت الصفاتية فى ذلك ، ولكن المصنف سلك فى ذلك طريقة أبى عبد الله الرازى فأثبت العلم والقدرة والارادة والحياة بالعقل ، وأثبت السمع والبصر والكلام بالسمع ، ولم يثبت شيئا من الصفات الخبرية ، وأما من قبل هؤلاء كأبى المعالى الجوينى وأمثاله والقاضى أبى يعلى وأمثاله فيثبتون جميع هذه الصفات بالعقل كما كان يسلكه القاضى أبو بكر ومن قبله

كأبي الحسن الأشعري، وأبي العباس القلانسي ومن قبلهم كأبي محمد بن كلاب والحارث المحاسبي وغيرهما ، وهكذا السلف والأئمة كالامام أحمد بن حنبل وأمثاله يثبتون هذه الصفات بالعقل كما ثبتت بالسمع وهذه الطريقة أعلى وأشرف من طريقة هؤلاء المتأخرين كما سنبين ان شاء الله تعالى * وأيضا فأئمة الصفاتية المتقدمون كابن كلاب والحارث المحاسبي ، والأشعري ، وأبي العباس القلانسي ، وأبي عبد الله بن مجاهد ، وأبي الحسن الطبري ، والقاضي أبي بكر بن الباقلاني ، وأبي أسحق الاسفرائيني ،وأبي بكر بن فورك وغيرهم يثبتون الصفات الخبرية التي ثبت ان رسول الله ﷺ أخبر بها وكذلك سائر طوائف الاثبات كالسالمية والكرامية وغيرهم وهذا مذهب السلف والأئمة ..

ولا ريب ان ما أثبته هؤلاء الصفاتية من صفات الله تعالى ثابت بالشرع مع العقل وهو متفق عليه بين سلف الأمة وأئمتها ، وإنما خصوا هذه الصفات بالذكر دون غيرها لأنها هي التي دل العقل عليها عندهم كما نبه عليه المصنف ، ولكن لا يلزم من عدم الدليل المعين عدم المدلول فلا يلزم نفي ما سوى هذه من الصفات ، والسمع قد أثبت صفات أخرى ، وأيضا فان الرازي ونحوه ممن لم يثبت السمع طريقا إلى اثبات الصفات ، ولا نزاع بينهم انه طريق صحيح لكن يفرقون بين ما أثبتوه وبين ما توقفوا في ثبوته بأن العقل دل على ما أثبتناه ولم يدل على ما توقفنا فيه ، ولهم فيما لم يثبتوه طريقان : منهم من نفاه ، ومنهم من توقف فيه فلم يحكم فيه باثباتٍ ولا نفي * وهذه طريقة محققيهم كالرازي والآمدي وغيرهما بل ومن الناس من يثبت صفات أخرى بالعقل ..

فالذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل فانه قد علم بالشرع مع العقل ان الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله كما قال تعالى «ليس كمثله شيء» وقال تعالى (هل تعلم له سميا) وقال تعالى (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) وقال تعالى (ولم يكن له كفوا أحد) وقد علم بالعقل ان المثلين يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ، ويجب له ما يجب له ، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه . فلو كان المخلوق مماثلا للخالق للزم اشتراكهما فيما يجب ويجوز ويمتنع ، والخالق يجب

وجوده وقدمه ، والمخلوق يستحيل وجوب وجوده وقدمه * بل يجب حدوثه وأمكانه فلو كانا متماثلين للزم اشتراكهما فى ذلك فكان كل منهما يجب وجوده وقدمه ، ويمتنع وجوب وجوده وقدمه ويجب حدوثه وامكانه فيكون كل منهما واجب القدم . واجب الحدوث واجب الوجود ليس واجب الوجود يمتنع قدمه لا يمتنع قدمه ، وهذا جمع بين النقيضين..

(فاذا عرفت هذا) فنقول ان الله سمى نفسه فى القرآن بالرحمن الرحيم ، ووصف نفسه فى القرآن بالرحمة والمحبة كما قال تعالى : « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما » وقال : « ورحمتى وسعت كل شىء » وقال : «فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه» وقال :«ان الله يحب المتقين » ويحب المحسنين ، ويحب الصابرين ، ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ، ونحو ذلك .

(ومن الناس) من جعل حبه ورحمته عبارة عما يخلقه من النعمة كما جعل بعضهم ارادته عبارة عن ما يخلقه من المخلوقات ، وهذا ظاهر البطلان لا سيما على أصل الصفاتية ، ومنهم من جعل حبه ورحمته هى إرادته ونفى أن تكون له صفات هى الحب والرضا والرحمة والغضب غير الارادة ..

(فيقال لهذا القائل): لم أثبت له ارادة وانه مريد حقيقة ونفيت حقيقة الحب والرحمة ونحو ذلك ؟فان قال : لأن اثبات هذا تشبيه لأن الرحمة رقة تلحق المخلوق والرب ينزه عن مثل صفات المخلوقين ، قيل له : وكذلك يقول من ينازع فى الارادة أن الارادة المعروفة ميل الانسان إلى ما ينفعه وما يضره والله تعالى منزه عن أن يحتاج إلى عباده وهم لا يبلغون ضره ولا نفعه بل هو الغنى عن خلقه كلهم ..

(فان قلت) : الارادة التى نثبتها لله ليست مثل ارادة المخلوق كما أنا قد اتفقنا وسائر المسلمين على انه حى عليم قدير ، وليس هو مثل سائر الأحياء العلماء القادرين (قال لك) أهل الاثبات وكذلك الرحمة والمحبة التى نثبتها لله ، وليست مثل رحمة المخلوق ومحبة المخلوق (فان قلت) : لا أعقل من الرحمة والمحبة إلا هذا (قال لك النفاة) : ونحن لا نعقل من الإرادة إلا هذا ومعلوم عند كل عاقل ان ارادتنا ومحبتنا ورحمتنا بالنسبة ألينا كارادته ورحمته ومحبته بالنسبة إليه فلا يجوز التفريق بين المتماثلين فيثبت له احدى

الصفتين وتنفى الأخرى ، وليس فى العقل ولا فى السمع ما يوجب التفريق إذا كثر ما يقال انى أثبت الارادة بالعقل لأن وجود التخصيص فى المخلوقات دل على الارادت ، فيقال لك انتفاء الدليل المعين لا يقتضى انتفاء المدلول فهب ان مثل هذا الدليل لا يثبت فى الرحمة والمحبة فمن أين نفيت ذلك . ثم يقال بل السمع أثبت ذلك أيضا وقد يسلك فى اثبات ذلك نظير الطريق العقلى الذى أثبت به الارادة فيقال ما فى المخلوقات من وجود المنافع للمحتاجين ،وكشف الضر عن المضرورين والاحسان إلى المخلوقات وأنواع الرزق والهدى والمسرات هو دليل على رحمة الخالق سبحانه والقرآن يثبت دلائل الربوبية بهذا الطريق تارة يدلهم بالآيات المخلوقة على وجود الخالق ويثبت علمه وقدرته ومشيئته ،وتارة يدلهم بالنعم والآلاء على جود بره واحسانه المستلزم رحمته وهذا كثير فى القرآن وان لم يكن مثل الأول أو أكثر منه ولم يكن أقل منه بكثير كقوله تعالى (ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) وقوله (أولم يروا انا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) وقوله فى سورة الرحمن بعد أن ذكر كل نوع من هذه الأنواع : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وبالجملة ما ذكره فى القرآن من الأمثال والآيات تارة يقرر بها نفس مشيئته وقدرته وخلقه وتارة يقرر بها احسانه وإنعامه ورحمته .

وهذه الطريقة مستلزمة للأولى من غير عكس، فانه يلزم من وجود الاحسان والرحمة وجود القدرة والمشيئة من غير عكس ، وقس على هذا غيره من الصفات ، وأمره هو أيضا مما يعلم بالسمع وبالعقل أيضا كما تعلم ارادته وكما تعلم محبته ، وهذه المسائل مبسوطة فى مواضع ، وإنما ذكرنا فى هذا الشرح ما يناسب حال هذه العقيدة المختصرة المشروحة، وقد بسطنا فى غير هذا الموضع الكلام فى محبة الله وذكرنا ان للناس فى هذا الأصل العظيم ثلاثة أقوال * أحدها ان الله تعالى يحب ويحب كما قال تعالى « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » فهو المستحق أن يكون له كمال المحبة دون ما سواه وهو سبحانه يحب ما أمر به ويحب عباده المؤمنين ، وهذا قول سلف الأمة وائمتها ، وهذا قول أئمة شيوخ المعرفة * والقول الثانى أنه يستحق أن يحب لكنه لا يحب

إلا بمعنى انه يريد وهذا قول كثير من المتكلمين ومن وافقهم من الصوفية ، والثالث انه لا يحب ولا يحب وإنما محبة العباد له ارادتهم طاعته وهذا قول الجهمية ومن وافقهم من متأخرى أهل الكلام والرازى .

ومما يوضح ذلك ان وجوب تصديق كل مسلم بما أخبر الله به ورسوله من صفاته ليس موقوفا على أن يقوم عليه دليل عقلى على تلك الصفة بعينها فانه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ان الرسول ﷺ إذا أخبرنا بشىء من صفات الله تعالى وجب علينا التصديق به وان لم نعلم ثبوته بعقولنا ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله عنهم « قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته » ومن سلك هذا السبيل فهو فى الحقيقة ليس مؤمنا بالرسول ولا متلقيا عنه الأخبار بشأن الربوبية ، ولا فرق عنده بين أن يخبر الرسول بشىء من ذلك أولم يخبر به فان ما أخبر به إذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به بل يتأوله أو يفوضه وما لم يخبر به ان علمه بعقله آمن به وإلا فلا فرق عند من سلك هذا السبيل بين وجود الرسول واخباره وبين عدم الرسول وعدم اخباره ، وكان ما يذكره من القرآن والحديث والاجماع فى هذا الباب عديم الأثر عنده وهذا قد صرح به أئمة هذا الطريق ..

(ثم الطريق النبوية) فمنهم من يحيل على القياس ومنهم من يحيل على الكشف وكل من الطريقتين فيها من الاضطراب والاختلاف ما لا ينضبط وليست واحدة منهما تحصل المقصود بدون الطريق النبوية والطريق النبوية تحصل الايمان النافع فى الآخرة بدون ذلك * ثم ان حصل قياس أو كشف يوافق ما أخبر به الرسول كان حسنا مع ان القرآن قد نبه على الطرق الاعتبارية التى بها يستدل على مثل ما فى القرآن كما قال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) فأخبر انه يرى عباده من الآيات المشهودة التى هى أدلة عقلية ما يتبين ان القرآن حق .

وليس لقائل أن يقول إنما خصصت هذه الصفات بالذكر لأن السمع موقوف عليها دون غيرها فان الأمر ليس كذلك لأن التصديق بالسمعيات ليس موقوفا على اثبات السمع والبصر ونحو ذلك ..

(فصـــل)

فان قيل إنما نفينا الرحمة والمحبة والرضا والغضب ونحو ذلك من الصفات لأنه لا يعقل لها حقيقة تليق بالخالق إلا الارادة فالمحبة والرضا ارادة الاحسان، والغضب ارادة العقاب منه فالفرق بينها بحسب تماثلها لأن هذه في نفسها ليست هذه .. قيل هذا باطل فان نصوص الـكتاب والسنة والاجماع مع الأدلة العقلية تبين الفرق فان الله سبحانه يقول : « إن تـكفروا فان الله غني عنـكم ولا يرضى لعباده الـكفر وان تشكروا يرضه لـكم » وقال تعالى : « إذ يبيتون ما لا يرضى من القول » فبين أنه لا يرضى هذه المحرمات مع أن كل شيء كائن بسببه وقال تعالى : « والله لا يحب الفساد » ..

وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام وباجماع سلف الأمة قبل حدوث أقوال النفاة من الجهمية ونحوهم ان الله يحب الايمان والعمل الصالح ، ولا يحب الـكفر والفســوق والعصيان ، وانه يرضى هذا ولا يرضى هذا والجميع بمشيئته وقدرته . والذين لم يفرقوا لهم تأويلات .. تارة يقولون لا يرضاه لعباده المؤمنين فهم يقولون لا يحب الايمــان والعمل الصالح ممن لم يفعله كما لم يرده ممن لم يفعله ويقولون انه يحب الـكفر والفسوق والعصيان ممن فعله كما أراده ممن فعله .

وفساد هذا القول مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام مع دلالة الـكتاب والســنة واجماع السلف على فساده . وتأويلهم الثاني قالوا لا يرضاه دينا كما يقولون لا يريده دينا ومعناه عندهم أنه لا يريد أن يثبت فاعله إذ جميع الموجودات والأفعال عندهم بالنسبة إليه سواء لا يحب منها شيئا دون شيء ولا يبغض منها شيئا دون شيء . وقد بسط الـكلام على فساد هذا القول وتناقضه في مواضع أخر . وإنما المقصود هنا التنبيه على ان ما يجب اثباته لله تعالى من الصفات ليس مقصورا على ما ذكره هؤلاء مع اثباتهم بعض صفاته بالعقل وبعضها بالسمع فان من عرف حقائق أقوال الناس وطرقهم التي دعتهم إلى تلك الأقوال حصل له العلم والرحمة فعلم الحق ورحم الخلق وكان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهذه خاصة أهل السنة المتبعين للرسول ﷺ فانهم يتبعون الحق ويرحمون من خالفهم باجتهاده حيث عذره الله ورسوله وأهل البدع يبتدعون بدعة باطلة ويكفرون من خالفهم فيها .

(فصل)

ومن شأن المصنفين فى العقائد المختصرة على مذهب أهل السنة والجماعة أن يذكروا ما تميز به أهل السنة والجماعة عن الكفار والمبتدعين فيذكروا إثبات الصفات ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنه تعالى يرى فى الآخرة خلافا للجهمية من المعتزلة وغيرهم ، ويذكرون أن الله خالق أفعال العباد وأنه مريد لجميع الكائنات وأنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن خلافا للقدرية من المعتزلة وغيرهم ، ويذكرون مسائل الأسماء والأحكام والوعد والوعيد ، وأن المؤمن لا يكفر بمجرد الذنب ولا يخلد فى النار خلافاً للخوارج والمعتزلة ، ويحققون القول فى الإيمان ، ويثبتون الوعيد لأهل الكبائر مجملا خلافاً للمرجئة ، ويذكرون إمامة الخلفاء الأربعة وفضائلهم خلافا للشيعة من الرافضة وغيرهم ..

وأما الإيمان بما اتفق عليه المسلمون من توحيد الله تعالى والإيمان برسله والإيمان باليوم الآخر فهذا لا بد منه ، وأما دلائل هذه المسائل فنى الكتب المبسوطة الكبار وهذا المصنف لم يسلك هذا الطريق بل أشار إشارة مختصرة إلى دليل ما ذكره من لأحكام ولم يستوف الأحكام التى تذكر فى المعتقدات، وعذره فى ذلك أن يقول: ذكرت جمل الاقرار بالربوبية والرسالة والمعاد فذكرت صفات الله الثبوتية ، وذكرت الرسالة وما جاءت به النبوات من الايمان بالمعاد ..

وقولى انه متكلم يناقض قول من قال القرآن مخلوق . فإن حقيقة قول أولئك أنه ليس بمتكلم وإثبات الارادة عامة يتناول جميع الكائنات وإثبات القدرة المطلقة تتضمن أنه خالق كل شىء بقدرته ، وبهذين يخرج قول المعتزلة فى الكلام والقدرة ، والمعترض عليه يقول اقتصرت على بعض الصفات دون بعض فإن كنت اقتصرت على ما يعلم العقل عندك فقد ذكرت السمع والبصر والكلام ، وأثبت ذلك بالسمع ، وإن كنت ذكرت ما يتوقف تصديق الرسول ﷺ عليه فهو لا يتوقف عندك على إثبات السمع والبصر والكلام لأنك أثبت ذلك بالسمع ، وحقيقة الأمر أنك أثبت هذه الصفات السبع لأنها هى المشهورة عند المتأخرين من الكلابية كأبى المعالى وأمثاله بأنها العقليات ، ولكن

لم يثبتها جميعها بالعقل بل أثبت بعضها بالسمع موافقة للرازى فلهذا لم تطرد له فى ذلك طريق واحد وهو قد نبه على الأدلة تنبيها يعلم به جنس مايثبت به من الأدلة وإلا فاذكره من الأدلة لا يكفى فى العلم بهذه الأحكام فان الدليل ان لم تقرر مقدماته ويجاب عما يعارضها لم يتم فكيف إذا لم تقرر مقدماته بل ولاتثبت ، ونحن نزيد على ماذكره وعلى وجه تقريره . .

(فأما قوله) فالدليل على وجوده المكنات لاستحالة وجودها بنفسها واستحالة وجودها بممكن آخر ضرورة استغناء المعلول بعلته عن كل ماسواه وافتقار الممكن إلى علته . (فهذا الدليل مبنى على مقدمتين)

(إحداهما) أن الممكنات موجودة .

(والثانية) أن الممكن لايوجد إلا بواجب الوجود ، والمقدمة الأولى لم يقررها بحال ولايمكن أن يسلك فى ذلك طريقة ابن سينا وأمثاله من المتفلسفة الذين قالوا نفس الوجود يشهد بوجود واجب الوجود . فان الوجود إما ممكن وإما واجب والممكن مستلزم للواجب فثبت وجود الواجب على هذا التقرير . فان هذه الطريقة وان كانت صحيحة بلاريب لكن نتيجتها اثبات وجود واجب ، وهذا لم ينازع فيه أحد من العقلاء المعتبرين ولاهو من المطالب العالية ، ولافيه اثبات الخالق ولا إثبات وجود واجب أبدع السموات والأرض كما يسلمه الالهيون من الفلاسفة كأرسطو وأتباعه المشائين ، وإنما فيه أن الوجود وجود واجب ، وهذا يسلمه منكروا الصانع كفرعون والدهرية المحضة من الفلاسفة والقرامطة ونحوهم ، ويقولون أن هذا الوجود واجب الوجود بنفسه ، وإلى هذ يؤول قول أهل الوحدة القائلين بأن الوجود واحد فانهم يقولون فى آخر الأمر : ماثم موجود مباين للسموات والارض ، وماثم غير وجود الوجود الممكن .

(ومصنف العقيدة) أثبت الصانع بهذا الطريق فانه لما أثبت أنه صنع المكنات أثبت علمه وقدرته فلابد أن يثبت أولا وجود شيء ممكن ليس بواجب ليبنى عليه ثبوت وجود واجب مبدع لوجود ممكن ليتم ماسلكه ، وأما مجرد اثبات وجود واجب فلايفيد هذا المطلوب فليفهم اللبيب هذا .

ولاريب أنه اختصر هذه العقيدة من كتب أبى عبد الله بن الخطيب ، وقد تكلمنا على ماذكره أبو عبد الله الرازى مبسوطا فى مواضعه ونحن نقدر وجود الممكنات ليتم ماذكره المصنف من الدليل ، ويتبين أن هذا الطريق أصح فى العقل وأبين مما يذكر فى كتب الأصول والأمهات التى اختصرت منها هذه العقيدة لكونها موافقة لطريقة القرآن فان الفاضل إذا تأمل غاية مايذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية وجد الصواب منها يعود إلى بعض ماذكر فى القرآن من الطرق العقلية ، وفى طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ماقد نبهنا على بعضه فى غير هذا الموضع .

(فنقول) إنه يمكن تقريرها بمانشاهد من حدوث الحوادث فانا نشاهد من حدوث الحوادث حدوث الحيوان والنبات والمعادن ، وهذه الحوادث ليست ممتنعة فان الممتنع لايوجد ولا واجبة الوجود بنفسها . فان واجب الوجود بنفسه لايقبل العدم وهذه كانت معدومة ثم وجدت فعدمها ينفى وجوبها ووجودها ينفى امتناعها وهذا دليل قاطع واضح بين على ثبوت الممكنات لكن من سلك هذه الطريق لم يحتج إلى أن يثبت إمكانها بحدوثها ثم يستدل بامكانها على الواجب بل نفس حدوثها دليل على اثبات المحدث لها فان العلم بان المحدث لابد له من محدث أبين من العلم بان الممكن لابد له من واجب فتكون تلك الطريق أبين وأقصر ، وهذه أخفى وأطول حيث يستدل بالحدوث على الامكان ثم بالامكان على الواجب .

وإن كان بعض الناس يستدل بالحوادث على المحدث فان الحوادث لاتختص بما هى عليه إلا بمخصص فانه يجوز أن تقع على خلاف ماوقعت عليه فتخصيص أحد طرفى الممكن لابد له من مخصص . فهذا الاستدلال وإن كان صحيحا فليس بمسلك سديد فان العلم بان المحدث لابد له من محدث أبين من هذا المحتاج إلى هاتين المقدمتين اللتين هما أخفى من ذلك ، ومن استدل على الجلى بالخفى فانه وان تكلم حقا فلم يسلك طريق الاستدلال فان كل مستلزم للشيء يصلح أن يكون دليلا عليه إذ يلزم من ثبوت الملزوم ثبوت اللازم والدليل ، وهذا من شأن الدليل فانه يلزم من ثبوته ثبوت المدلول عليه ، ولهذا يجب طرد الدليل ولايجب عكسه . لكن إذا كان اللازم والمدلول عليه أظهر من الملزوم الذى هو الدليل كان الاستدلال بالملزوم على اللازم خطأ فى البيان والدلالة وإن سلك المصنف

فى اثبات الممكنات تقرير امكان الاجسام كلها . فهذا دليل طويل وفيه مقدمات متنازع فيها نزاعا طويلا وكثير من الناس يقدح فيها بما لم يمكن دفعه . فاثبات الصانع بمثل هذه المقدمات لوكانت صحيحة كان الدليل باطلا .

(وأما المقدمة الثانية وهى أن الممكن لابد له من واجب) فقد نبه على هذه المقدمة بقوله : (لاستحالة وجودها بنفسها)فان الممكن هو الذى يقبل الوجود والعدم كما نشاهده من المحدثات ، وما كان قابلا للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه كما أن المحدث لا يكون وجوده بنفسه كما قال تعالى : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » يقول سبحانه : أحدثوا من غير محدث أم هم أحدثوا أنفسهم ، ومعلوم أن الشيء لايوجد نفسه فالممكن الذى ليس له من نفسه وجود ولا عدم لايكون موجودا بنفسه بل أن حصل مايوجده وإلا كان معدوما ،وكل ماأمكن وجوده بدل عن عدمه وعدمه بدل عن وجوده فليس له من نفسه وجود ولاعدم وهذا بين . .

ومما يقرره أن مايمكن عدمه بدلا عن وجوده لا يكون وجوده بنفسه إذ لو كان وجوده بنفسه لكان واجبا بنفسه ، ولو كان واجبا بنفسه لم يقبل العدم وهو قد قبل العدم فليس موجودا بنفسه . يقرر ذلك ان ما كان موجودا فاما أن يكون مفتقرا فى وجوده إلى غيره ، وإما أن لا يكون فان كان مفتقرا فى وجوده إلى غيره لم يكن وجوده بنفسه بل بذلك الغير الذى هو مفتقر اليه أو به وبذلك الغير . فعلى التقديرين لا يكون وجوده بنفسه وان لم يكن مفتقرا فى وجوده إلى غيره كان موجودا بنفسه فالموجود بنفسه لا يكون مفتقرا إلى غيره ، والمفتقر إلى غيره لايكون موجودا بنفسه فالموجود بنفسه الذى لا يفتقر إلى غيره واجب بنفسه إذ نفسه كافية فى وجوده فلا يتوقف وجوده على شيء غير إنيته ان قدر ان إنيته شيء غير وجوده ، وان قدرأن إنيته هى وجوده كما هو قول أهل السنة كان قول القائل موجودا بنفسه أى هويته ثابتة بهويته فحيث قدرت هويته لم يمكن عدمها فالموجود بنفسه لايقبل العدم ، وماقبل العدم فليس موجودا بنفسه فيفتقر إلى غيره فكل ممكن مفتقر إلى غيره .

وهذه المقامات ثابتة فى نفس الأمر ويمكن تحريرها بوجوه من الطرق والعبارات

والمعنى فيها واحد فتبين قول المصنف لاستحالة وجود الممكنات بأنفسها .

(وأما قوله واستحالة وجودها بممكن آخر ضرورة استغناء المعلول بعلته عن كل ماسواه وافتقار المعلول إلى علته) فمقصوده أن يبين أن الممكنات كما لا توجد بانفسها فلا توجد بممكن آخر فيلزم أنه لابد له من واجب بنفسه ، وذلك لأنها لو وجدت بممكن استغنت به عما سواه لأن ذلك الممكن إن لم يكن علة تامة لوجودها لم توجد به ، وإن كان علة تامة لوجودها استغنت به عما سواه فان العلة التامة تستلزم وجود المعلول فلا يفتقر المعلول إلى غيرها فلو وجدت الممكنات بممكن لزم أن يستغني به عما سواه ، وذلك الممكن من جملة الممكنات والممكن مفتقر إلى غيره فيلزم أن يكون مفتقرا إلى علة غير نفسه ، والمفتقر إلى غيره لا يكون مستغنيا بنفسه فيلزم أن يكون مفتقرا إلى غيره غير مفتقر إلى غيره ، غنيا بنفسه ليس بغني بنفسه ، وهو جمع بين النقيضين . فلو كان فاعل الممكنات كلها ممكنا لزم أن يكون هذا الممكن غنيا بنفسه ليس بغني بنفسه فقيرا إلى غيره غير فقير إلى غيره حيث جعل ممكنا مفتقرا ، وجعل معلولا بعلة تامة فلايفتقر فيلزم التناقض والأمر فى هذا أوضح من هذا التطويل ..

وإنما سلك هذا المصنف طريقة أبى عبد الله بن الخطيب الرازى فان هذه طرقه وكان ينسج على منواله ، والا فالعلم بان جميع الممكنات تفتقر إلى غيرها كالعلم بان هذا الممكن مفتقر إلى غيره . فان الافتقار إذا كان من جهة كونه ممكنا سواء كان الامكان دليل الافتقار أو علة الافتقار فهو يعمها كلها فاى شيء قدر ممكنا كان الفقر ثابتا فيه إلى غيره فلابد لكل ممكن من مفتقر اليه كما لابد لهذا الممكن من غير يفتقر به (ومعلوم)ان افتقار الشيء إلى بعض أشد من افتقاره إلى نفسه فاذا كان الممكن لايوجد بنفسه ولا يكون وجودا بنفسه فكيف يكون موجودا ببعضه وكيف يتصوران يكون مجموع الممكنات موجودة بممكن من الممكنات وهى لايكفى فى وجودها مجموع الممكنات والهيئة الاجتماعية لاتخرجها عن الامكان الذى هو علة الافتقار أو دليل الافتقار وهذا بين ولله الحمد .

(فصــل)

فلما قرر اثبات الصانع أخذ يثبت وحدانيته ، فقال : « والدليل على وحدته انه

لا تركيب فيه بوجه وإلا لما كان واجب الوجود لذاته ضرورة افتقاره إلى ما تركب منه ويلزم من ذلك أن لا يكون من نوعه اثنان إذ لو كان لزم وجود الاثنين بلا امتياز وهو محال ، وهذا الدليل أخذه من كلام أبي عبد الله الرازى وقد سلك فيه مسلك المتفلسفة كابن سـينا وأمثاله . فان هذا هو عمدتهم فيما يدعونه من التوحيد وهو حجة باطلة ومقصودهم فيما يدعونه من التوحيد وقد بين ذلك علماء المسلمين كما بينه أبو حامد الغزالى فى تهافت الفلاسفة ، وكما قد صرح الرازى وغيره فى هذه الطرق فى مواضع أخر ..

(وأما قوله ويلزم من ذلك أن لا يكون من نوعه اثنان إذ لو كان لزم وجود الاثنين بلا امتياز وهو محـال) فطريقهم فى تقرير هذا أنه لو كان اثنان واجبا الوجود لـكانا مشتركين في وجوب الوجود ، فان كان كل منها ممتازا عن الآخر بتعيينه كان كل منهما مركبا مما به الاشتراك وما به الامتياز فيكون كل منهما مركبا وقد تقدم ان التركيب محال ، وان لم يكن أحدهما ممتازا عن الآخر لزم وجود اثنين بلا امتياز . .

وبهذه الحجة يثبتون امكان الأجسام كلها لأنهم يقولون الجسم مركب إما من المادة والصورة ، وإما من الجواهر الفردة ، وكل مركب ممكن فبهذه الحجة تقوم الصفات ، وكانوا من أشد الناس تجهما لأنهم زعموا ان إثبات الصفات ينافى هذا التوحيد .. وقد تفطن لفسـاد هذه الحجة من تفطن لها من الفضلاء كأبى حامد الغزالى وغيره وذلك من وجوه :

(أحدها) ان يقال قول القائل انه يلزم افتقاره إلى ما ركب منه وذلك ينافى وجوب الوجود ممنوع لأن غاية ما فيه أنما ركب منه جزء من أجزائه ، وقول القائل ان المركب مفتقر إلى جزئه ليس بأعظم من قوله انه مفتقر إلى كله فان الافتقار إلى المجموع أشد من الافتقار إلى بعض المجموع ، فالمفتقر إلى المجموع مفتقر إلى كل جزء منه والمفتقر إلى جزء منه لا يلزم ان يكون مفتقرا إلى الجزء الآخر . ومعلوم ان افتقاره إلى الجميع هو افتقاره إلى نفسه ، وهو معنى قوله هو واجب بنفسه . فعلم ان وجوبه بنفسه لا يوجب الافتقار المنافى لوجوب الوجود .

(الوجه الثانى) ان يقال وجوب الوجود الذى دل عليه الدليل ينفى أن يفتقر إلى أن يكون مفتقرا إلى شيء خارج عن نفسه إذ كانت الممكنات لا بد لها من وجود

غير ممكن موجود بنفسه . وهذا ينفى أن يفتقر إلى شىء خارج عن نفسه فلو قيل انه موجود بنفسه مستغن عن غيره وانه مفتقر إلى غيره للزم الجمع بين النقيضين فاما ما هو داخل فى مسمى نفسه فليس هو شيئا خارجا عن نفسه حتى يقال افتقاره إليه ينافى وجوده بنفسه ..

(الوجه الثالث) ان يقال اسم الغير فيه اصطلاحان . أحدهما ان حد الغيرين ما جاز العلم بأحدهما مع عدم العلم بالآخر . والآخر ان الغيرين ما جاز مفارقة أحدهما الآخر بوجود أو إمكان أو زمان. والأول اصطلاح المعتزلة والكرامية. والثانى اصطلاح الكلابية والأشعرية فان قيل بالثانى فجزؤه وصفته ليس بغير له فلا يكون ثبوته موجبا لافتقاره إلى غيره . وان قيل بالأول فثبوت الغير بهذا التفسير لا بد منه فانه يمكن العلم بوجوده ، والعلم بوجوبه ، والعلم بأنه خالق والعلم بعلمه، والعلم بارادته ،وهم يعبرون عن ذلك بالعقل والمناية ،وهذه المعانى أغيار على هذا الاصطلاح وثبوتها لازم لواجب الوجود . وإذا كان ثبوت هذه الاغيار لازما له لم يجز القول بنفيها لأن نفيها يستلزم نفى واجب الوجود وعلم ان مثل هذا وان سمى تركيبا فليس منافيا لوجوب الوجود ..

(فاذا قيل) واجب الوجود لا يفتقر إلى غيره ، قيل لا يفتقر إلى غير يجوز مفارقته له أم هو لازم لوجوده (فالأول) حق (وأما الثانى) فممنوع ونبين ذلك (بالوجه الرابع) وهو أن يقال استعمال لفظ الافتقار فى مثل هذا ليس هو المعروف فى اللغة والعقل ، فان هذا إنما هو تلازم بمعنى انه لا يوجد المركب الا بوجود جزء ، أو لا يوجد أحد الجزئين إلا بوجود الآخر ، أولا يوجد الجزء إلا بوجود الكل ، أو لا توجد الصفة إلا بوجود الموصوف ، أو لا يوجد الموصوف إلا بوجود الصفة .

ومعلوم ان الشيئين المتلازمين فى الوجود لا يجب أن يكون أحدهما مفتقرا إلى الآخر بل ان كانا ممكنين جاز أن يكونا معلولى علة واحدة أوجبتهما من غير أن يفتقر أحدهما إلى الآخر ، وأما الأمور المتلازمة كالابوة والبنوة لا يجب أن يكون أحدهما مفتقرا إلى الآخر فان افتقار الشىء إلى غيره إنما يكون إذا كان ذلك الغير مؤثرا فى وجوده كتأثير العلة ، فأما المتلازمان اللذان يكون وجود أحدهما مستلزما لوجود الآخر معه فانه وان قيل ان وجوده شرط لوجوده لكن لا يلزم أن يكون مفتقراً إليه بحيث يكون علة

له ، وإذا كان المراد بالافتقار هنا التلازم فذلك لا ينافى وجوب الوجود يوضح ذلك

(الوجه الخامس) وهو أن يقال لا ريب انه يمتنع أن يكون شيآن كل منها علة للآخر لأن العلة متقدمة على المعلول فلو كان علة لعلته للزم تقدمه على نفسه لكونه علة العلة وتأخره عن نفسه لكونه معلول العلة وذلك جمع بين النقيضين ولهذا كان الدور القبلى محالا ولا يمتنع أن يكون شيآن كل منها شرط فى الآخر لأن ذلك إنما يستلزم أن يكون كل منها مع الآخر ، وليس ذلك يمتنع ولهذا قيل الدور المعى ليس بمحال فالمركب غايته أن يكون كل من أجزائه مشروطا بالجزء الآخر وأن يكون هو مشروطا بأجزائه ولا يقتضى التركيب وجود جزء قبل جزء ولا وجود جزء قبل أجزائه فاذا قيل إنه مفتقر إلى جزئه كان معناه لا يوجد إلا بوجود جزئه معه ويستلزم ذلك وجود جزئه ثم ذلك الجزء ليس هو علة له ولا هو خارجا عن نفسه فالقول بأن وجوده يستلزم وجود الجزء حق والتعبير عن ذلك بأنه يقتضى أن يكون مفتقرا إلى جزئه وجزؤه غيره ليس له معنى إلا ذلك وهذا لا يقتضى أنه مفتقر إلى علة ومحتاج إلى علة ولا شرط خارج عن واجب الوجود ولا دور قبلى وأما ما فيه من الدور المعى فليس ذلك بمحال ، ولا ينافى وجوب الوجود الا أن يثبت ان مثل هذا التعدد ينافى وجوب الوجود وهم لم يثبتوا ان التعدد ينافى وجوب الوجود إلا بهذا فبطل أن يكون هذا دليلا على بطلان التعدد فى وجوب الوجود .

(الوجه السادس) أن يقال قول القائل واجب الوجود بنفسه هل يقتضى أن يكون مفتقرا إلى نفسه أم لا يقتضى ذلك فان اقتضاه كان افتقاره إلى جزئه أولى وأحرى بالالتزام فلا يكون ممتنعا . وإن قيل لا يقتضيه قيل وكذلك التركيب لا يقتضى أن يكون المركب مفتقرا إلى جزئه فانه إذا كانت نفسه لا توجد إلا بنفسه ولم يحسن أن يقال هو مفتقر إليها فالجميع الذى لا يوجد إلا بأجزائه أولى أن لا يقال له هو مفتقر إلى واحد منها إذ المركب ليس الا الأجزاء وصورة التركيب .

(الوجه السابع) أن يقال المعنى المعروف من لفظ التركيب أن يكون الجزآن مفترقين، فيركبهما جميعا مركب ، لأن المركب اسم مفعول ركبه مركب فهو مركب كما يركب الطبيخ من أجزائه والأدوية المركبة من أجزائها وأمثال ذلك . ومعلوم ان المركب بهذا الاعتبار مفتقر إلى من يركبه غيره ، إذ لو كانت ذاته تقتضى التركيب لم يجز عليه التفرق

وواجب الوجود بنفسه لا يكون مفتقرا إلى شيء خارج عن نفسه لأن ذلك جمع بين النقيضين . ولا ريب ان مثبتة الصفات ليس فيهم بل ولا فى سائر فرق الأمة من يثبت هذا التركيب فى حق الله تعالى . ولكن المتفلسفة يسمون الموصوف مركبا ويسمون الصفات أجزاء فيقولون الإنسان مركب من الحيوانية والناطقية والنوع مركب من الجنس والفصل . فاما أن يريدوا بالحيوانية والناطقية جوهراً أو عرضاً فان أرادوا بها جوهرا وهو الحيوان والناطق فالحيوان والناطق هما الانسان وليس الجوهر الذى هو الانسان ولاهو غير الجوهر الذى هوحيوان ناطق لكن الذهن يجرد هذه المعانى فى الذهن، فيتصور الناطق مطلقا والحيوان مطلقا والانسان مطلقا لكن تجريد الذهن لها لا يقتضى أن يكون فى الخارج ثلاثة جواهر والعلم بهذا ضرورى . وان قيل إنه مركب من الحيوانية والناطقية وهما عرضان فالعرض لا يقوم إلا بالجوهر والحيوانية والناطقية صفة الانسان فكيف يكون الجوهر مركبا من صفاته وصفاته لا قيام لها إلا به وهى مفتقرة إليه .

وإذا قالوا لو سمينا هذا تركيبا لم ننازع فى الألفاظ نزاعا لافائدة فيه . نقول كل موجود فلا بد أن يكون مركبا بهذا الاعتبار فان وجود ذات عارية عن جميع الصفات ممتنع ، ووجود موجود مطلق لا يتعين ولا له حقيقة يختص بها عن سائر الحقائق ممتنع وكل ما اختص وتميز عن غيره فلا بد له من خاصة ، وقد بسطنا هذا فى غير هذا الموضع ولسنا محتاجين هنا إلى اثبات وجوب مثل هذا بل يكفى أن نقول لا نسلم امتناع مثل هذا المعنى الذى سميتموه تركيبا، وكثير من المتكلمين لا يسمون الاتصاف تركيبا بل يسمون التقدير تركيبا لأن المقدر مركب من الأجزاء الفردة أو من المادة والصورة ، وهذا أيضا فيه نزاع فطوائف من أهل الكلام كالهشامية والضرارية والنجارية والكلابية يقولون : ليس بمركب بحال ، ومن قال انه مركب قال لا يمكن وجود أجزائه وحينئذ فيقال لهم كما قيل للمتفلسفة وهم يسمون نفى مثل هذا التركيب توحيدا ويدخلون فى ذلك نفى الصفات فيجعلون نفى علم الله وقدرته وحياته وكلامه وسمعه وبصره وسائر صفاته من التوحيد ، ويسمون أنفسهم الموحدين كما يدعى المعتزلة انهم أهل التوحيد والعدل، ويعنون بالتوحيد نفى الصفات ..

ولما كان أبو عبد الله محمد بن التومرت على مذهب المعتزلة فى نفى الصفات لقب أصحابه بالموحدين ، وقد صرح فى كتابه الكبير بنفى الصفات ولهذا لم يذكر فى مرشدته شيئاً من الصفات الثبوتية لا علم الله ولا قدرته ولا كلامه ولا شيئا من صفاته الثبوتية وإنما ذكر السلوب،والتوحيد الذى بعث الله به رسوله ﷺ وأنزل به كتابه هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وهو توحيد ألوهيته المتضمن توحيد ربوبيته كما قال تعالى : « والهكم اله واحد » وقال تعالى : لا تتخذوا الهين اثنين إنما هو إله واحد فاياى فارهبون » وقال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا نوحى إليه انه لا إله إلا أنا فاعبدن » وقال تعالى : « لقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » . . والمشركون كانوا يقرون بأن رب العالمين واحد لكن كانوا يعبدون معه غيره كما قال تعالى: « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» وقال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » ، وقال تعالى : « قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون » . .

(ونحن نوجه ذلك بعد ذكر حجته) ووجه نظمها أن يقال واجب الوجود لا تركيب فيه وما لا تركيب فيه فهو واحد فواجب الوجود واحد ، وإنما قلنا لا تركيب لأن المركب مفتقر إلى ما تركب منه وما تركب منه غيره ،وواجب الوجود لا يفتقر إلى غيره فواجب الوجود لا تركيب فيه وهذا معنى قوله:(الدليل على وحدته انه لا تركيب فيه بوجه وإلا لما كان واجب الوجود لذاته) أى لو كان فيه تركيب بوجه لما كان واجب الوجود لذاته، ثم قال(ضرورة افتقاره إلى ما تركب منه) كان مركبا للزم ضرورة أن يفتقر إلى ما ركب منه ثم انه حذف تمام الحجة وهو إذا افتقر إلى ما تركب منه كان مفتقرا إلى غيره ، وواجب الوجود لا يفتقر إلى غيره.

وأما قوله (ويلزم من ذلك أن لا يكون من نوعه اثنان إذ لو كان اثنان واجب الوجود فان كان بينهما امتياز لزم تركيبهما مما به الاشتراك وما به الامتياز وإلا لزم عدم التعيين) فيقال : الجواب عن ذلك من طريقين :

أحدهما انهما إذا اشتركا فى وجوب الوجود وامتاز كل منهما بتعينه فمعلوم أن وجوب أحدهما ليس هو عين وجوب الآخر كما ان عينه ليست عينه بل هذا واجب وهذا واجب . كما ان هذا عين وهذا عين واشتراكهما فى وجوب الوجود المطلق كاشتراكهما فى التعيين المطلق .. والمطلق إنما يكون مطلقا فى الأذهان لا فى الأعيان فعين هذا واجبة وجوبا يخصها ، وعين هذا واجبة وجوبا يخصها ، والذهن يجرد وجوبا مطلقا وتعينا مطلقا ، وإذا كان كذلك بطل قول القائل ان كلا منهما مركب مما به الاشتراك وما به الامتياز بل ما به الاشتراك وهو الوجوب مثل ما به الامتياز وهو التعيين ، وهذه الحجة كثيرة فى كلامهم والغلط فيها واقع لاحيلة فيه، وإنما نشأ الغلط حيث أخذوا فى الوجوب ما يشتركان فيه وفى التعيين ما يخص وهذا يمكن معارضته بمثله بأن يقال هما مشتركان فى التعيين إذ هذا معين وهذا معين ويمتاز كل منهما بوجوبه إذ لكل منهما وجوب يخصه، وإذا أمكن العكس تبين أن مافعلوه تحكم محض .

(الطريق الثانى) أن يقال : هب ان هذا تركب مما به الاشتراك والامتياز لكن دليله على نفى مثل هذا التركيب باطل كما تقدم ..

(فصـــل)

(وأما قوله : والدليل على علمه ايجاده الأشياء لاستحالة ايجاده للأشياء مع الجهل) فهذا الدليل مشهور عند نظار المسلمين أولهم وآخرهم ، والقرآن قد دل عليه كما فى قوله تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) والمتفلسفة أيضا سلكوه ، وبيانه من وجوه :

(أحدها) ان ايجاده للأشياء هو بارادته كما سيأتى ، والارادة تستلزم تصور المراد قطعا ، وتصور المراد هو العلم فكان الايجاد مستلزما للارادة ، والارادة مستلزمة للعلم فالايجاد مستلزم للعلم ..

(الثانى) ان المخلوقات فيها من الإحكام والاتقان مايستلزم علم الفاعل لها لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير عالم، وبهذين الطريقين يتقرر ماذكره. «ولهم طرق» منها ان من المخلوقات ماهو عالم والعلم صفة كمال؛ ويمتنع أن لا يكون الخالق عالما، وهذا

له طريقان : (أحدهما) : أن يقال نحن نعلم بالضرورة ان الخالق أكمل من المخلوق ، وان الواجب أكمل من الممكن ونعلم ضرورة انا إذا فرضنا شيئين أحدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل منه فاذا لم يكن الخالق سبحانه عالم يلزم أن يكون غير عالم أى جاهلا وهو ممتنع ..

(الثانى) أن يقال كل علم فى الممكنات التى هى المخلوقات فهو منهم ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه بل هو احق والله سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ لا يستوى هو والمخلوق لا فى قياس تمثيل ولا قياس شمول بل كل ما أثبت لمخلوق فالخالق به أحق ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق فتنزيه الخالق عنه أولى ..

(فصــل)

(وأما قوله والدليل على قدرته إيجاده الأشياء وهى إما بالذات وهو محال وإلا لكان العالم وكل واحد من مخلوقاته قديما وهو باطل فتعين أن يكون فاعلا بالاختيار وهو المطلوب) فقد يقال هذا إنما أثبت به أنه فاعل بالاختيـار وان كان لم يقرر مقدمات دليله ، وفعله بالاختيار يثبت الارادة ولا يثبت القدرة ، وهو قد أثبت الارادة فيما بعد : فظاهر هذا انه كرر دليل الارادة ولم يذكر على القدرة دليلا لكن تقرير ذلك أن يقال إنه إما أن يكون المبدع للاشياء مجرد ذات عارية عن الصفات يستلزم وجوده المفعول كما يقوله المتفلسفة القائلون بقدم الافلاك ، وإما أن يكون ذاتا موصوفة بالصفات لا يجب منهـا وجود المخلوقات كما عليه أهل الملل ..

(وإذا أردت التقسيم الحاضر قلت) الفاعل إما بمجرد الذات ، وإما الذات بصفة فان كان الأول فمعلوم ان العلة التامة تستلزم وجود المعلول فاذا كان مجرد الذات هو الواجب فمجرد الذات علة تامة فيلزم وجود المعلول جميعه ، ويلزم قدم جميع الحوادث وهو خلاف المشاهدة ، وان كان الثانى فالصفة التى يصلح بها الفعل هى القدرة . أو يقال : فاذا لم يكن موجبا لذاته بل بصفة تعين أن يكون مختارا فانه إما موجب بالذات ، وإما فاعل بالاختيار والمختار إنما يفعل بالقدرة إذ القادر هو الذى ان شاء فعل وان لم يفعل فاما من يلزمه المفعول بدون ارادته فهذا ليس بقادر بل ملزوم بمنزلة الذى تلزمه الحركات الطبيعية التى لا قدرة له على فعلها ولا تركها ..

(فصــل)

(وأما قوله والدليل على أنه حى علمه وقدرته لاستحالة قيام العلم والقدرة بغير الحى)

فهذا دليل مشهور للنظار يقولون قد علم أن من شرط العلم والقدرة الحياة فان ماليس بحى يمتنع أن يكون عالما إذ الميت لايكون عالماً والعلم بهذا ضرورى .

وقد يقولون هذه الشروط العقليةلا تختلف شاهدا ولاغائباً فتقدير عالم لاحياة به ممتنع بصريح العقل .

(وكذلك قوله والدليل على إرادته تخصيصه الأشياء بخصوصيات واستحالة المخصص من غير مخصص) فإن هذا دليل مشهور للنظار ويقرر هكذا ان العالم فيه تخصيصات كثيرة مثل تخصيص كل شىء بماله من القدر والصفات والحركات كطوله وقصره، وطعمه ولونه، وريحه وحياته، وقدرته وعلمه وسمعه وبصره، وسائر مافيه مع العلم الضرورى بانه من الممكن ان يكون خلاف ذلك اذ ليس واجب الوجود بنفسه. ومعلوم أن الذات المجردة التى لاإرادة لها لاتخصص وإنما يكون التخصيص بالإرادة، ولو قيل التخصيص هو بأسباب معلومة كالأرض والأشجار تكون مختلفة فاذا سقيت بماء واحد اختلف ثمارها لاختلاف القوابل كما أن الشمس تختلف آثارها بحسب القوافل كما تبيض الثوب وتسود وجه القصار وتلين اليابس الذى لم ينضج بما تجذبه اليه من الرطوبة وتجفف الرطب الذى كمل نضجه لانقطاع الرطوبة عنه .

قيل هب أن الأمر كذلك فما الموجب لاختلاف القوابل حتى خصت هذه الشجرة وهذا الجسم بسبب آخر فلا بد أن ينتهى الأمر إلى سبب لاسبب فوقه فإن قيل هو شىء صدر عنه كما تقول المتفلسفة لايصدر عن الواحد إلا واحد والصادر الأول هو العقل وصدر عن العقل عقل ونفس وفلك . فهذا باطل لانه إن كان الصادر الأول واحدا من كل وجه لم يصدر عنه أيضاً الاواحد. وإن كان فيه كثرة فقد صدر عن الواحد أكثر من واحد. وإن قيل الكثرة عدمية لزم أن يصدر عن العدم وجود . ثم يقال الفلك الثامن كثير الكواكب دون التاسع فما الوجب لكثرة كواكبه . ثم قيل السبب الأول إن كان فيه اختصاص بصفه وقدر كان تخصيصه بالإرادة لان التخصيص بذات الإرادة لها ممتنع بصريح العقل، وإن قيل ليس له اختصاص بصفة وقدر قيل هذا يقتضى أن يكون وجوداً مطلقا والمطلق لايكون الافى الاذهان لافى الاعيان . .

(فصل)

كثير من النظار كابن كلاب وموافقيه كالا شعرى وأكثر متبعيه من أهل الكلام والرأى والحديث والتصوف من أصحاب الأئمة الاربعة وغيرهم كالقاضى أبى يعلى وأبى المعالى الجوينى ، وأبى الوليد الباجى ، وأبى منصور الماتريدى وغيرهم يقولون إنه يعلم المعلومات كلها بعلم واحد بالعين ، ويريد المرادات كلها بارادة واحدة بالعين بل يقولون إن كلامه الذى يتضمن كل أمر أمر به ، وكل خبر أخبر به هو أيضاً واحد بالعين ، وإن كان جمهور العقلاء يقولون إن فساد هذا معلوم بالضرورة بعد التصور التام ، ثم تنازع القائلون بهذا الأصل هل كلامه معنى فقط والقرآن العربى لم يتكلم به ولا بالتوراة العبرانيه ، ولا تكلم بشىء من الحروف أو الحروف والأصوات التى نزل بها القرآن وغيره وهى قديمة أزلية على قولين .

ومن القائلين بقدم أعيان الحروف أو الحروف والاصوات من لا يقول هى واحدة بالعين بل يقول هى متعددة ، وإن كانت لانهاية لها ويقول ثبوت حروف أوحروف معاق لانهاية لها فى آن واحد وأنها لم تزل ولا تزال ، ومن القائلين بقدم معنى الكلام وأنه لم يتكلم بحروف من يقول القديم خمسة معان ، ومنهم من يقول ذلك المعنى يعود إلى الخبر ويجعل الأمر داخلا فى معنى الخبر ، ومنهم من يرد الخبر إلى العلم ومنهم من يقول مع ذلك إن العلم ليس صفة قائمة بالعلم . .

وأما أقوال السلف وعلماء الاسلام فى هذا الاصل ، وما فى ذلك من نصوص الكتاب والسنة فهذا أعظم من أن يسعه هذا الشرح ومن كتب التفسير المنقولة عن السلف مثل تفسير عبدالرازق ، وعبد بن حميد وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وبقى بن مخلد ، وعبدالرحمن بن إبراهيم رحيم ، وعبدالرحمن بن أبى حاتم ، ومحمد بن جرير الطبرى ، وأبى بكر بن المنذر ، وأبى بكر بن عبد العزيز ، وأبى الشيخ الأصفهانى ، وأبى بكر بن مردويه وغيرهم . من ذلك ماتطول حكايته وكذلك الكتب المصنفة فى السنة والرد على الجهمية وأصول الدين المنقولة عن السلف مثل كتاب الرد على الجهمية لمحمد بن عبدالله الجعفى شيخ البخارى وكتاب خلق الأفعال للبخارى ، وكتاب السنة لأبى داود السجستانى ولأبى بكر الأثرم ، ولعبدالله بن أحمد بن حنبل ،

وحنبل بن إسحاق ، ولأبى بكر الخلال ، ولأبى الشيخ الاصفهانى ، ولأبى القاسم الطبرانى ، ولأبى عبد الله بن منده وأمثالهم ، وكتاب الشريعة لأبى بكر الآجرى ، والابانة لأبى عبدالله بن بطة ، وكتاب الأصول لأبى عمر الطلمنكى وكتاب رد عثمان ابن سعيد الدارمى وكتاب الرد على الجهمية له واضعاف هذه الكتب ، وذلك مثل ماذكره الخلال وغيره عن إسحاق بن راهويه حدثنا بشر بن عمر قال : سمعت غير واحد من المفسرين يقول : (الرحمن على العرش استوى أى ارتفع) . .

وقال البخارى فى صحيحه قال أبو العالية استوى إلى السماء ارتفع وقال مجاهد استوى (علا) على العرش ، وقال البغوى فى تفسيره : قال ابن عباس وأكثر مفسرى السلف استوى إلى السماء ارتفع إلى السماء ، وكذلك قال الخليل بن أحمد ، وروى البيهقى عن الفراء استوى أى صعد وهو كقول الرجل كان قاعدا فاستوى قائماً . .

وروى الشافعى فى مسنده عن أنس بن مالك أنه قال عن يوم الجمعة وهو اليوم الذى استوى فيه ربكم على العرش ، وروى أبو بكر الأثرم عن الفضيل بن عياض قال : ليس لنا أن نتوهم فى الله كيف وكيف لان الله وصف فأبلغ فقال : (قل هو الله أحد الله الصمد) فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه ومثل هذا النزول والضحك وهذه المباهاة وهذا الاطلاع كما شاء أن ينزل وكما شاء أن يضحك فليس لنا أن نتوهم أن ينزل عن مكانه كيف وكيف وإذا قال لك الجهمى أنا كفرت برب ينزل فقل أنت أنا أؤمن برب يفعل مايشاء .

وقال البخارى فى كتاب خلق الافعال والفضيل بن عياض إذا قال لك الجهمى أنا أكفر برب يزول عن مكانه فقل : أنا أؤمن برب يفعل مايشاء . قال البخارى وحدث يزيد بن هرون عن الجهمية فقال : من زعم أن الرحمن على العرش استوى على خلاف ماتقرر فى قلوب العامة فهو جهمى ، وروى الخلال عن سليمان بن حرب أنه سأل بشر بن السرى حماد بن زيد فقال يا أبا إسماعيل الحديث ينزل الله إلى السماء الدنيا أيتحول من مكان إلى مكان فسكت حماد بن زيد ثم قال هو فى مكانه يقرب من خلقه كيف شاء ، وهذا نقله الاشعرى فى كتاب المقالات عن أهل السنة والحديث فقال : ويصدقون بالاحاديث

التي جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويأخذون بالكتاب والسنة كما قال تعالى : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين ولا يحدثون في دينهم مالم يأذن به الله ويقرون أن الله يجيء يوم القيامة كما قال : (وجاء ربك والملك صفا صفا) وإن الله يقرب من خلقه كما يشاء كما قال : (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) .

(ثم قال الأشعري وبكل ماذكرنا من قولهم نقول واليه نذهب) .

وقال أبو عثمان النيسابوري الملقب بشيخ الإسلام في رسالته المشهورة في السنة قال ويثبت أهل الحديث نزول الرب سبحانه في كل ليلة الى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف ، بل يثبتون له ما أثبته له رسول الله صلى الله عليه وسلم وينتهون فيه اليه ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره ، ويكلون علمه إلى الله وكذلك يثبتون ماأنزل الله في كتابه من ذكر المجيء والاتيان في ظلل من الغمام والملائكة وقوله عز وجل (وجاء ربك والملك صفا صفا) .

وقال سمعت الحاكم أبا عبدالله الحافظ يقول سمعت أبا زكريا يحيى بن محمد العنبري يقول سمعت إبراهيم بن أبي طالب سمعت أحمد بن سعيد الرباطي يقول حضرت مجلس الأمير عبدالله بن طاهر ذات يوم ، وحضر إسحاق بن إبراهيم يعني ابن راهويه فسأل عن حديث النزول صحيح هو؟ فقال نعم فقال بعض قواد عبدالله : ياأبا يعقوب أتزعم أن الله ينزل كل ليلة قال نعم قال كيف ينزل قال أثبته فوق حتى أصف لك النزول فقال الرجل أثبته فوق فقال إسحاق قال الله تعالى (وجاء ربك والملك صفا صفا) فقال له الأمير عبد الله بن طاهر : يا أبا يعقوب هذا يوم القيامة فقال إسحاق أعز الله الامير من يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم وروى باسناده عن إسحاق قال قال لي الامير عبدالله بن طاهر ياأبايعقوب هذا الحديث الذي ترويه عن النبي صلى الله عليه وسلم : ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف ينزل قال قلت : أعز الله الامير لايقال لامر الرب كيف ينزل إنما ينزل بلا كيف .

وباسناده أيضاً عن عبدالله بن المبارك أنه سأله سائل عن النزول ليلة النصف من شعبان فقال عبدالله ياضعيف ليلة النصف أي وحدها هو ينزل في كل ليلة فقال الرجل ياأبا عبد الرحمن كيف ينزل ألم يخل ذلك المكان فقال عبد الله بن المبارك ينزل كيف شاء قال أبو عثمان النيسابوري فلما صح خبر النزول عن النبي صلى الله عليه وسلم أقر به

أهل السنة ، وقبلوا الحديث ، وأثبتوا النزول على ماقاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يعتقدوا تشبيها له بنزول خلقه وعلموا وعرفوا واعتقدوا وتحققوا أن صفات الرب لاتشبه صفات الخلق ، كما أن ذاته لاتشبه ذوات الخلق سبحانه وتعالى عما يقول المشبهة والمعطلة علوا كبيرا .

وروى البيهقي باسناده عن إسحاق بن راهوايه قال جمعني وهذا المبتدع — يعني ابن صالح — مجلس الامير عبد الله بن طاهر فسألني الامير عن أخبار النزول فثبتها فقال إبراهيم : كفرت برب ينزل من سماء إلى سماء ، فقلت آمنت برب يفعل مايشاء فرضى عبدالله كلامى ، وأنكر على إبراهيم ، وقال حرب بن اسماعيل الكرمانى فى كتابه المصنف فى مسائل أحمد وإسحاق مع ماذكر فيها من الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابةوالتابعين ومن بعدهم قال :

(باب القول فى المذهب) هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الاثر المعروفين بها المقتدى بهم فيها ، وأدركت من علماء العراق والحجاز والشام عليها فمن خالف شيئامن هذه المذاهب ، أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن سبيل السنة ومنهج الحق ، وهو مذهب أحمد وإسحاق بن ابراهيم وبقى بن مخلد ، وعبد الله ابن الزبيرالحميدى ، وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم ..

وذكر الكلام فى الإيمان والقدر ، والوعيد والامامة ، وما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم من اشتراط الساعة وأمر البرزخ وغير ذلك (إلى أن قال) وهو سبحانه بائن من خلقه لايخلو من علمه مكان ، ولله عرش وللعرش حملة يحملونه وله حد الله أعلم بحده ، والله تعالى على عرشه عز ذكره وتعالى جده ولا إله غيره ، والله تعالى سميع لايشك ، بصير لايرتاب ، عليم لايجهل ، جواد لايبخل ، حليم لايعجل ، حفيظ لاينسى ، يقظان لا يسهو ، رقيب لايغفل . يتكلم ويتحرك ، ويسمع ويبصر ، وينظر ويقبض ، ويبسط ويفرح ، ويحب ويكره ، ويبغض ويسخط ، ويغضب ويرحم ، ويعفو ويغفر ، ويعطى ويمنع ، ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف شاء متكلما عالما تبارك الله أحسن الخالقين . .

وروى أبو بكر الخلال فى كتاب السـنة قال أخبرنى به يوسف بن موسى ان أبا عبد الله يعنى ـ أحمد بن حنبل ـ قيل له أهل الجنة ينظرون إلى ربهم ويكلمونه ويكلمهم قال : نعم ينظر اليهم وينظرون اليه ، ويكلمهم ويكلمونه كيف شاء ، وإذا شاء وقال أيضا : أخبرنى عبد الله بن حنبل أخبرنى أبى حنبل بن اسحاق قال . قال عمى نحن نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء وكما شاء قال الخلال : وأخبرنى على بن عيسى ان حنبلا حدثهم قال قلت لأبى عبد الله : الله يكلم عبده يوم القيامة؟ قال نعم فمن يقضى بين الخلائق إلا الله عز وجل يكلم عبده ويسأله ، الله متكلم لم يزل الله متكلما يأمر بما شاء ، ويحكم بما شاء ، وليس له عدل ولا مثل كيف شاء وأين شاء .. قال الخلال وان محمد ابن على بن بحران يعقوب بن بختان حدثهم ان أبا عبد الله سئل عمن زعم ان الله لم يتكلم بصوت . قال بلى تكلم بصوت وهذه الأحاديث كما جاءت نرويها لكل حديث وجه يريدون أن يموهوا على الناس بأن من زعم ان الله لم يكلم موسى فهو كافر ..

وأخبرنا المروزى سمعت أبا عبد الله وقيل له ان عبد الوهاب قد تكلم ، وقال من زعم ان الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمى عدو الله وعدو الاسلام فتبسم أبو عبد الله وقال ما أحسن ما قال عافاه الله ، وعن عبد الله بن أحمد أيضا سألت أبى عن قوم يقولون لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت فقال أبى بل تكلم تبارك وتعالى بصوت وهذه الأحاديث نرويها كما جاءت ، وحديث ابن مسعود : إذا تكلم الله بالوحى سمع له صوت كجر السلسلة على الصفوان قال أبى والجهمية تنكره. قال أبى : وهؤلاء كفار يريدون أن يموهوا على الناس أن من زعم ان الله لم يتكلم فهو كافر ..

(قلت) قد بين الامام أحمد وغيره من السلف أن الصوت الذى تكلم الله تعالى به ليس هو الصوت المسموع ، وسئل أحمد عن قوله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن» قال هو الرجل يرفع صوته به هذا معناه ، وقال فى قوله ﷺ « زينوا القرآن بأصواتكم» يحسنه بصوته وقال البخارى فى كتاب خلق الأفعال : ويذكر عن النبى ﷺ ان الله ينادى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب وليس هذا لغير الله قال البخارى : وفى هذا دليل على ان صوت الله لا يشبه أصوات الخلق ، لأن صوت الله يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، وان الملائكة يصعقون

من صوته فإذا ينادى الملائكة لم يصعقوا قال تعالى : « فلا تجعلوا لله أندادا » فليس لصفة الله ند ولا مثل ، ولا يوجد شيء من صفاته فى المخلوقين .

ثم روى باسناده حديث عبد الله بن أنيس قال سمعت النبي ﷺ يقول : « يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك الديان لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وواحد من أهل النار يطلبه بمظلمه » وذكر الحديث الذى رواه أيضا فى صحيحه فى هذا المعنى فى قوله : « حتى إذا فزع عن قلوبهم » الآية عن أبى سعيد قال قال رسول الله ﷺ : « يقول الله يوم القيامة ياآدم فيقول لبيك وسعديك فينادى بصوت ان الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار قال يارب ما بعث النار قال من كل ألف أراه قال : تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحامل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ..

وذكر البخارى حديث ابن مسعود الذى استشهد به أحمد وذكر الحديث الذى رواه فى صحيحه عن عكرمة قال : سمعت أبا هريرة يقول ان نبى الله ﷺ قال : إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كانه سلسلة على صفوان » « فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير » . وذكر البخارى حديث ابن عباس المعروف من حديث الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس عن نفر من الأنصار وقد رواه أحمد ومسلم فى صحيحه وساقه البخارى من طريق ابن اسحاق عنه أن رسول الله ﷺ قال لهم : « ما تقولون فى هذه النجوم التى يرمى بها قالوا كنا نقول حين رأيناها يرمى بها : مات ملك ولد مولود فقال رسول الله ﷺ ليس ذلك كذلك ولكن إذا قضى الله فى خلقه أمرا يسمعه حملة العرش فيسبحون فيسبح من تحتهم بتسبيحهم من تحت ذلك فلم يزل التسبيح يهبط حتى ينتهى إلى السماء الدنيا حتى يقول بعضهم لبعض لم سبحتم فيقولون سبح من فوقنا فسبحنا بتسبيحهم فيقولون ألا تسألون من فوقكم لم سبحتم فيسألونهم فيقولون قضى الله فى خلقه كذا وكذا الأمر الذى كان يهبط الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهى إلى السماء الدنيا فيتحدثون به فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم منهم واختلاف ثم يأتون به الكهان من أهل الأرض فيحدثهم فيخطئون ويصيبون فيحدث به الكهان »

قال البخارى : ولقد بين نعيم بن حماد أن كلام الرب ليس بمخلق ، وأن العرب لا تعرف الحى من الميت إلا بالفعل فمن كان له فعل فهو حى ومن لم يكن له فعل فهو ميت ، وان أفعال العباد مخلوقة فضيق عليــه حتى مضى لسبيله وتوجع أهل العلم لمـا نزل به . .

قال البخارى : وفى اتفاق المسلمين دليل على أن نعيما ومن نحا نحوه ليس بما رق ولا مبتدع ، وقال أبو عبد الله بن حامد فى كتابه فى أصول الدين : ومما يجب الايمان به التصديق بأن الله متــكلم ، وأن كلامه قديم ، وأنه لم يزل متــكلما فى كل أوقاته موصوفا بذلك ، وكلامه قديم غير محدث كالعلم والقدرة . قال وقد علم أن المذهب أن كون الــكلام صفة ومتــكلما به ولم يزل موصوفا بذلك ومتــكلما إذا شاء وبما شاء ، ولا نقول إنه ساكت فى حال ومتكلم فى حال من حيث حدوث الــكلام . قال ولا خلاف عن أبى عبد الله يعنى أحمد بن حنبل ان الله لم يزل متــكلما قبل أن يخلق الخلق وقبل كل الــكائنات وأن الله كان فيما لم يزل متــكلما كيف شاء وكما شاء إذا شاء أنزل كلامه وإذا شاء لم ينزله ، فقد ذكر ابن حامد أنه لا خلاف فى مذهب أحمد أنه سبحانه لم يزل متــكلما كيف شاء وكما شاء . ثم ذكر قولين هل هو متــكلم دائما بمشيئته أو أنه لم يزل موصوفا بذلك متــكلما إذا شاء ، وساكتا إذا شاء لا بمعنى أنه يتــكلم بعد أن لم يزل ساكتا فيكون كلامه حادثا كما يقول الــكرامية فإن قول الــكرامية فى الــكلام لم يقل به أحد من أصحاب أحمد ؛ وكذلك ذكر القولين أبو بكر عبد العزيز فى أول كتابه الــكبير المسمى بالمقنع .

وقد ذكر ذلك عنه القاضى أبو يعلى فى كتاب إيضاح البيان فى مسألة القرآن . قال أبو بكر : لما سألوه إنكم إذا قلتم لم يزل متــكلما كان ذلك عبثا فقال لأصحابنا قولان أحدهما أنه لم يزل متــكلما كالعلم لأن ضد الــكلام الخرس كما أن ضد العلم الجهل قال ومن أصحابنا من قال أثبت لنفسه أنه خالق ، ولم يجز أن يــكون خالقا فى كل حال بل قلنا إنه خالق فى وقت إرادته أن يخلق ، وإن لم يكن خالقا فى كل حال ولم يبطل أن يكون خالقا كذلك ، وان لم يكن متــكلما فى كل حال .

الذى ذكروا فيه القولين والقاضى أبو يعلى وموافقوه على أصل ابن كلاب يتأولون كلام أحمد والآثار فى ذلك بأنه سكوت عن الاسماع لا عن التكليم .

وكذلك تأول ابن عقيل كلام أبى إسماعيل الانصارى ، وليس مرادهم ذلك كما هو بين لمن تدبر كلامهم مع أن الاسماع على أصل النفاة إنما هو خلق إدراك فى السامع ليس سببا يقوم بالمتكلم فكيف يوصف بالسكوت لكونه لم يخلق إدراكا لغيره ؟ فأصل ابن كلاب الذى وافقه عليه القاضى ، وابن عقيل ، وابن الزاغونى وغيرهم أنه منزه عن السكوت مطلقا فلا يجوز عندهم أن يسكت عن شىء من الاشياء إذ كلامه صفة قديمة لازمة لذاته لا تتعلق عندهم بمشيئته كالحياة حتى يقال إن شاء تكلم بكذا ، وإن شاء سكت عنه .

ولا يجوز عندهم أن يقال ان الله سكت عن شىء كما جاءت به الآثار بل يتأولونه على عدم خلق الادراك منزه عن الخرس باتفاق الأمه . . هذا مما احتجوا به على قدم الكلام وقالوا لو لم يكن متكلما للزم اتصافه بضده كالسكوت والخرس ، وذلك ممتنع عندهم سواء قيل هو سكوت مطلق أو سكوت عن شىء معين ، وقال أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخى الشافعى فى كتابه الذى سماه (الفصول فى الأصول عن الأئمة الفحول) وذكر اثنى عشر إماما الشافعى ومالك وسفيان الثورى ، وأحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة وابن المبارك واسحاق بن راهويه ، والبخارى وأبو زرعة وأبو حاتم قال فيه : سمعت الإمام أبا منصور محمد بن أحمد يقول سمعت الامام أبا بكر عبيد الله بن أحمد يقول سمعت الشيخ أبا حامد الاسفرائينى يقول مذهبى ومذهب الشافعى وفقهاء الامصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر والقرآن حمله جبريل مسموعا من الله تعالى والنبى صلى الله عليه سمعه من جبريل والصحابة سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى نتلوه نحن بألسنتنا فما بين الدفتين وما فى صدورنا مسموعا ومكتوبا ومحفوظا ومنقوشا كل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر عليه لعائن الله والملائكة والناس أجمعين .

قال أبو الحسن : وكان الشيخ أبو حامد شديد الانكار على الباقلانى وأصحاب

الكلام . وقال ولم تزل الأئمة الشافعية يأنفون ويستنكفون أن ينتسبوا إلى الاشعرى ويتبرءون مما بنى مذهبه عليه ، وينهون أصحابهم وأحبابهم من الحوم حواليه على ما سمعت عدة من المشايخ والأئمة منهم الحافظ المؤتمن بن أحمد الساجى يقولون : سمعنا جماعة من المشايخ الثقاة قالوا كان الشيخ أبو حامد أحمد بن طاهر الاسفرائينى إمام الأئمة الذى طبق الأرض علما وأصحابا إذا سعى إلى الجمعة من قطيعة الكرخ إلى الجامع المنصور يدخل الرباط المعروف بالروزى المحازى للجامع ، ويقبل على من حضر ويقول اشهدوا على بأن القرآن كلام الله غير مخلوق كما قال أحمد بن حنبل لا كما يقول الباقلانى ويتكرر ذلك منه فقيل له فى ذلك فقال : حتى تنتشر فى الناس وفى أهل البلاد ، ويشيع الخبر فى أهل البلاد انى برىء مما هم عليه يعنى الاشعرية ، وبرىء من مذهب أبى بكر الباقلانى فان جماعة من المتفقهة الغرباء يدخلون على الباقلانى خفية ويقرءون عليه فيفتنون بمذهبه فإذا رجعوا إلى بلادهم أظهروا بدعتهم لا محالة فيظن ظان أنهم منى تعلموه وأنا قلته وأنا برىء من مذهب الباقلانى وعقيدته .

قال وسمعت الفقيه الإمام أبا منصور سعد بن العجلى سمعت عدة من المشايخ والأئمة ببغداد أظن أبا اسحاق الشيرازى أحدهم قالوا : كان أبو بكر الباقلانى يخرج إلى الحمام متبرقعا خوفا من الشيخ أبى حامد الاسفرائينى ، والكلام على ما وقع من انكار أبى حامد وغيره من أئمة الاسلام على القاضى أبى بكر مع جلالة قدره وكثرة رده على أهل الالحاد والبدع بسبب هذا الاصل الذى بنى عليه مذهبه طويل ولبسطه موضع آخر

وإنما المقصود هنا التنبيه على بعض من أثبت هـــذا الاصل ولم يوافق على النفاة والحارس والمحاسبى قد ذكر القولين عن أهل السنة المثبتين الصفات والقدر فقال فى كتاب فهم القرآن : لما تكلم على ما لا يدخل فيه النسخ وما يدخل فيه النسخ ، ومايظن أنه متعارض من الآيات وذكر عن أهل السنة فى الارادة والسمع والبصر قولين فى مثل قوله تعالى : « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله » وقوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها » وقوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وكذلك قوله : « إنا معكم مستمعون » وقوله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ونحو ذلك فقال : ذهب قوم من أهل السنة إلى أن لله استماعا

حادثا فى ذاته ، وذكر أن هؤلاء وبعض أهل البدع تأولوا ذلك في الارادة على الحوادث قال : فأما من أدى السنة فأراد إثبات القـدر فقال إرادة الله تحدث من تقدير سابق للارادة .

وأما بعض أهل البدع فزعموا أن الإرادة إنما هى خلق حادث وليست مخلوقة ، ولـكن بها كون الله المخلوقين قال : وزعموا أن الخلق غـير المخلوق ، وأن الخلق هو الإرادة ، وانها ليست بصفة لله من نفسه قال : وكذلك قال بعضهم ان رؤيته تحدث .

قال محمد بن الهيصم فى كتاب جمل الكلام لما ذكر جمل الـكلام وانه مبنى على خمسة فصول :

(أحدها) : ان القرآن كلام الله ، وقد حكى عن جهم بن صفوان ان القرآن ليس كلام الله على الحقيقة وإنما هو كلام خلقه الله فنسب إليه كما قيل سماء الله وأرض الله ، وكما قيل : بيت الله ، وشهر الله .. وأما المعتزلة فإنهم أطلقوا القول بأنه كلام الله على الحقيقة ثم وافقوا جهما فى المعنى حيث قالوا كلام خلقه بائنا عنه ، وقال عامة المسلمين : إن القرآن كلام الله على الحقيقة وأنه تـكلم به .

(والفصل الثانى) ان القرآن غير قديم فإن الـكلابية وأصحاب الأشعرى زعموا أن الله لم يزل متكلما بالقرآن ، وقال أهل الجماعة إنمـا تـكلم بالقرآن حيث خاطب به جبريل ، وكذلك سائر الـكتب .

(والفصل الثالث) ان القرآن غير مخلوق فإن الجهمية والنجارية والمعتزلة زعموا انه مخلوق ، وقال اهل الجماعة إنه ليس بمخلوق .

(والفصل الرابع) أنه غير بائن منه فإن الجهمية وأتباعهم من المعتزلة قالوا : إن القرآن بائن من الله وكذلك سائر كلامه ، وزعموا أن الله خلق كلاما فى الشـجرة فسمعه موسى ، وخلق كلاما فى الهواء فسمعه جبريل ، ولا يصح عندهم انه وجد من الله كلام يقوم به فى الحقيقه ، وقال أهل الجماعة: بل القرآن غير بائن من الله وإنما هو موجود منه وقائم به

وذكر محمد بن الهيصم فى مسألة الاراده والخلق والمخلوق وغير ذلك ما يوافق التى ليست أعيانهـا قديمة ولا مخلوقة ، وهو يحكى ذاك عن أهل الجماعة ، وقال الإمام عثمان ابن سعيد الدارى فى كتابه المعروف بنقض عثمان بن سعيد على المريسى الجهمى العنيد فيما افترى على الله فى التوحيد قال : وادعى المعارض أن قول النبي ﷺ « إن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يمضى من الليل الثلث فيقول : هل من مستغفر هل من تائب هل من داع » قال فادعى أن لا ينزل بنفسه إنما ينزل أمره ورحمته وهو على العرش وكل مكان من غير زوال لأنه الحى القيوم ، والقيوم بزعمه من لا يزول . قال : فيقال لهذا المعارض، وهذا أيضا من حجج النساء والصبيان ومن ليس عنده بيان ، ولا لمذهبه برهان لأن أمر الله ورحمته تنزل فى كل ساعة ووقت وأوان ، فما بال النبي ﷺ يحد لنزوله الليل دون النهار، ويوقت من الليل شطره أو الأسحار أفأمره ورحمته تدعوان العباد إلى الاستغفار ، أو يقدر الأمر والرحمة أن يتكلما دونه فيقولا : (هل من داع فأجيب له هل من مستغفر فاغفر له هل من سائل فأعطيه » فإن قررت مذهبك لزمك أن تدعى ان الرحمة والأمر هما اللذان يدعوان إلى الإجابة والاستغفار بكلامهما دون الله وهذا محال عند السفهاء فكيف عند الفقهاء .

قد علمتم ذاك ولكن تكابرون ، وما بال أمره ورحمته ينزلان من عنده الليل ثم يمكثان إلى طلوع الفجر يرفعان لأن رفاعة يرويه ويقول فى حديثه حتى ينفجر الفجر ، وقد علمتم إن شاء الله أن هذا التأويل أبطل باطل ، ولا يقبله إلا كل جاهل ..

وأما دعواك أن تفسير القيوم الذى لا يزول عن مكانه ولا يتحرك فلا يقبل منك هذا التفسير إلا بأمر صحيح مأثور عن النبي ﷺ ، أو عن بعض أصحابه ، أو التابعين لأن الحى القيوم يفعل ما يشاء ، ويتحرك إذا شاء ، ويهبط ويرتفع إذا شاء ، ويقبض ويبسط ويقوم ويجلس إذا شاء لأن ذلك أمارة ما بين الحى والميت لأن كل متحرك لا محالة حى ، وكل ميت غير متحرك لا محالة ومن يلتفت إلى تفسيرك ، وتفسير صاحبك مع تفسير نبي الرحمة ورسول رب العزة إذ فسر نزوله مشروطا منصوصا ووقت له وقتا موضوحا لم يدع لك ، ولا لأصحابك فيه لبسا ولا عويصا .

قال ثم أجمل المعارض جميع ما أنكره الجهمية من صفات الله تعالى وذواته المسماة

فى كتابه ، وآثار رسوله ﷺ فعمد منها بضعة وعشرين صفة نقشا ، وأخذ يتكلم عليها ويفسرها بما حكى المريسى وفسرها وتأولها حرفا حرفا خلاف ماعنى الله ورسوله ،وخلاف ما تأولها الفقهاء والصالحون لا يعتمد فى أكثرها الا على المريسى فبدأ منها بالوجه ثم بالسمع والبصر ، والغضب والرضا ، والحب والبغض ، والفرح والكره ، والضحك والعجب ، والسخط ، والإرادة : والمشيئة والاصابع والكف والقدمين وقوله : « كل شىء هالك إلا وجهه فأينما تولوا فثم وجه الله » و « هو السميع البصير » « وخلقت بيدى » «وقالت اليهود يد الله مغلولة » « يد الله فوق أيديهم » «والسموات مطويات بيمينه » وقوله « فإنك بأعيننا » « وهل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة » « وجاء ربك والملك صفا صفا » « الذين يحملون العرش ومن حوله » وقوله : « ويحذركم الله نفسه » «ولا يكلمهم الله ولاينظر إليهم يوم القيامة» و« كتب ربكم على نفسه الرحمة » و« تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » « والله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

قال : عمد المعارض إلى هذه الصفات فنسقها ونظم بعضها إلى بعض إلى بعض كما نظمها شيأ بعد شىء ثم قررها أبوابا فى كتابه وتلطف بردها بالتأويل كتلطف الجهمية معتمدا فيها على الرابع الجهمى بشر بن غياث المريسى عند الجهال بالتشنيع بها على قوم يؤمنون بالله ، ويصدقون الله ورسوله فيها بغير تكييف ولا تمثيل . فزعم أن هؤلاء المؤمنين بها يكيفونها ويشبهونها بذوات أنفسهم ، وأن العلماء بزعمه قالوا ليس فى شىء منها اجتهاد رأى ليدرك كيفية ذلك ، أو يشبه فيها شىء مما هو فى الخلق . قال: وهذا خطأ كما أن الله ليس كمثله شىء فكذلك ليس ككيفيته شىء .

قال أبو سعيد عثمان بن سعيد فقلنا لهذا المعارض المداس بالتشنيع إن قوله : كيفية هذه الصفات وتشبيهها مما هو فى الخلق خطأ فإنا لا نقول له كما قال هى عندنا له ، ونحن لا نكيفها ولا نشبهها بما هو فى الخلق موجود أشد إلفا منكم غير أنا كما لانشبهها ولا نكيفها لا نكفرها ولا نكذبها ولانبطلها بتأويل الضلال كما أبطلها إمامك المريسى.

قال وأما ما ذكرت من اجتهاد الرأى فى تكييف صفات الله فإنا نجيز اجتهاد الرأى فى كثير من الفرائض والأحكام التى نراها بأعيننا ، ونسمعها بآذاننا فكيف فى

صفات الله التي لم ترها العيون وقصرت عنها الظنون ؟ غير أنا لا نقول فيها كما قال المريسي : إن هذه الصفات كلها شيء واحد وليس السمع منه غير البصر ، ولا الوجه منه غير اليد ، ولا الذات غير النفس ، وإن الرحمن ليس يعرف بزعمكم لنفسه سمعا من بصر ، ولا بصرا من سمع ، ولا وجها من يدين ، ولا يدين من وجه وهو كله بزعمكم سمع وبصر ووجه ، وأعلا وأسفل ويد ونفس وعلم ومشيئة وإرادة ، مثل خلق السموات والأرض ، والجبال والتلال والهواء التي لا يعرف لشيء منها شيء من هذه الصفات والذوات ، ولا يوقف بها منها على شيء فالله تعالى عندنا أن يكون كذلك فقد ميز الله تعالى في كتابه السمع من البصر ، وذكر الآيات الواردة في ذلك فقال تعالى : « إنني معكما أسمع وأرى » « وإنا معكم مستمعون » وقال : « ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم » ففرق بين الكلام والنظر دون السمع فقال عند السمع والصوت « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير » « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء » . ولم يقل رأى الله قول التي تجادلك في زوجها . وقال تعالى في موضع الرؤية « الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين » . وقال تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ولم يقل : يسمع الله تقلبك ويسمع الله عملكم فلم يذكر الرؤية فيما يسمع ولا السمع فيما يرى كما أنها عنده خلاف ما عندكم ، وذكر كلاما طويلا في الرد على النفاة .

(قلت) وكلام أهل الحديث والسنة في هذا الأصل كثير جدا .

وأما الآيات والأحاديث الدالة على هذا الأصل فكثيرة جدا يتعذر أو يتعسر حصرها ، لكن نذكر بعضها وقد جمع الامام أحمد كثيرا من الآيات الدالة على هذا الأصل وغيره مما يقوله النفاة وذكرها عنه الخلال في كتاب السنة وكذلك كقوله تعالى .

« فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » . وقوله تعالى : « وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين » . وقوله تعالى « فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين » وقوله تعالى : فلما أتاها نودي من شاطيء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين » وقوله تعالى : « وهل أتاك

حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى » فوقت النداء بقوله : « فلما » وبقوله « إذ » فعلم أنه كان فى وقت مخصوص لم يناداه قبل ذلك وقوله تعالى: « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين » وقال تعالى : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » فأخبر سبحانه أنه قال لهم ذلك بعد أن خلق آدم وصوره لا قبل ذلك وقال تعالى « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » وقال تعالى : « وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق » .

وقال تعالى : « بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون». وقال تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون » وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان وأن الفعل المضارع للاستقبال وقال تعالى . « وإذ قال ربك للملائكة » وقال تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان » وقال تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » وقال تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » وقال تعالى : (الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) وقال تعالى . (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) وقال تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك) وقال تعالى : (وجاء ربك والملك صفاصفا) وقال تعالى (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) وقال تعالى : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) وقال تعالى : (وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال) وقال تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) .

وقال موسى : (ستجدنى إن شاء الله صابرا) وقال اسماعيل : (قال ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) وقال صاحب مدين لموسى (ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) وأدوات الشرط تخلص الفعل للاستقبال ومن هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : (من حلف فقال : إن شاء الله فان شاء فعل وإن شاء ترك) رواه أهل السنن واتفق الفقهاء على ذلك وكذلك ما فى الصحيحين من قول النبى ﷺ عن سليمان أنه قال(لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تأتى كل امرأة بفارس يقاتل فى سبيل الله فقال له صاحبه قل إن شاء

الله فلم يقل فلم تلد منهن إلا امرأة جاءت بشق ولد قال النبى صلى الله عليه فلو قال: إن شاء الله لقاتلوا فى سبيل الله فرسانا أجمعين) وقال تعالى (كل يوم هو فى شأن) وقال تعالى (فاذهبوا بآياتنا إنا معكم مستمعون) وقال تعالى لموسى وهرون (إننى معكما أسمع وأرى) وقال تعالى (أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) وقال تعالى (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) وقال تعالى (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) وقال تعالى : (الله نزل أحسن الحديث) وقال تعالى (فبأى حديث بعده يؤمنون) وقال تعالى (ومن أصدق من الله حديثا) وقال تعالى (فلما آسفونا انتقمنا منهم) وقال تعالى (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فاحبط أعمالهم) .

وقال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى (إن تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم) فأخبر أن طاعته سبب لمحبته ورضاه ومعصيته سبب لسخطه وأسفه وقال تعالى (اذكرونى أذكركم) وجواب الشرط مع الشرط كالسبب مع مسببه ومثله فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ومن تقرب إلى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة) .

وقال تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) وأما أفعاله المتعدية إلى المفعول به الحادثة وذكرها فى القرآن العزيز فكثيرة جدا كقوله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وقوله تعالى (فسنيسره لليسرى) (فسنيسره للعسرى) وقوله تعالى (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) (فسوف يحاسب حسابا عسيرا) وقوله تعالى (من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره كلا لما يقض ما أمره فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا) وقوله تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وقوله تعالى (ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين) وقوله تبارك وتعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة

فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) وقال تعالى (خلقكم من نفس واحدة ثم خلق منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون) .

وقوله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها) وقوله تعالى (ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه) وقال تعالى (من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) وقال تعالى (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) وقوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) ومثل هذا كثير فى القرآن والاحتجاج به ظاهر على قول الجمهور الذين يجعلون الخلق غير المخلوق وهو الصواب فإن الذين يقولون : الخلق هو المخلوق قولهم فاسد .

وقد بين فساده فى غير هذا الموضع وشبهتهم أنه لو كان غيره لكان إن كان قديما لزم قدم المخلوق وإن كان محدثا احتاج إلى خلق آخر فيلزم التسلسل وإن كان قائما به فيكون محلا للحوادث . وقد أجابهم الناس عن هذا كل قوم بجواب يبين فساد قولهم ، وطائفة منعت قدم المخلوق كالارادة فإنهم سلموا أنها قديمة مع حدوث المراد ، وطائفة منعت قيامه به وقالت لا يقوم به الخلق فلا يكون محلا للحوادث فإذا قالوا إن الخلق هو المخلوق ولا يقوم به فلان يجوز أن يكون غير المخلوق ولا يقوم به أولى ، وطائفة قالت لا نسلم أنه إذا افتقر المخلوق المنفصل إلى خلق أن يفتقر ما يقوم به من الخلق إلى خلق آخر بل يكفى فيه القدرة والمشيئة فإنكم إذا جوزتم وجود الحادث الذى يباينه بمجرد القدرة والمشيئة فوجود ما لا يباينه بها أولى بالجواز وهؤلاء وغيرهم يمانعونهم فى قيام الحوادث به : وطائفة منعت امتناع التسلسل فى الآثار والأفعال وقالت إنما يمتنع فى الفاعلين لا فى الفعل كما قد بسط فى موضع آخر .

وأما الأحاديث الدالة على هذا الأصل التى فى الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها

عن النبى ﷺ فأكثر من أن يحصيها واحد كقوله فى الحديث المتفق على صحته عن زيد ابن خالد قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الحديبية على أثر سماء كانت من الليل فقال (أتدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بى فمن قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن بى كافر بالكوكب ومن قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فهو كافر بى مؤمن بالكوكب) .

وفى الصحيحين فى حديث الشفاعة : (يقول كل من أولى العزم من الرسل مع آدم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا شديدا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله) وقوله فى الحديث الصحيح (إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماء كجر السلسلة على الصفوان) وقوله فى الحديث الصحيح (إن الله يحدث من أمره ما يشاء ومما أحدث أن لا يتكلموا فى الصلاة) وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث التجلى المتفق على صحته من غير وجه (ويقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون) وقوله فى الحديث المتفق عليه (لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فنام تحت شجرة ينتظر الموت فلما استيقظ إذا بدابته عليها طعامه وشرابه فالله أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته .

وقوله فى الحديث الصحيح (يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة) وقوله فى حديث الرجل الذى هو آخر من يدخل الجنة وهو حديث أبى هريرة الذى يقول الله فيه (أو لست قد أعطيت العهود والمواثيق أن لا تسأل غير الذى أعطيت ؟ فيقول يا رب لا تجعلنى أشقى خلقك فيضحك الله منه ثم يأذن له فى دخول الجنة) وفى حديث ابن مسعود وهو حديث آخر قال النبى صلى الله عليه وسلم (فيقول الله ياابن آدم أترضى أن أعطيك الدنيا ومثلها معها ؟ فيقول أى رب أتستهزىء بى وأنت رب العالمين ؟ وضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا تسألونى مما ضحكت ؟ فقالوا لم ضحكت ؟ فقال من ضحك رب العالمين حين قال أتستهزىء بى وأنت رب العالمين فيقول إنى لا أستهزىء بك ولكنى على ما أشاء قادر) وفى حديث أبى رزين عن

النبى صلى الله عليه وسلم قال (ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب فقال له أبو رزين : أو يضحك الرب ؟ قال نعم قال : لن نعدم من رب يضحك خيرا) وفى الحديث الصحيح (يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) قال الله حمدنى عبدى فاذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله أثنى على عبدى فاذا قال (مالك يوم الدين) قال الله مجدنى عبدى فاذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال الله عز وجل هذه الآية بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فاذا قال (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال الله هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل) .

وقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح المتفق عليه (ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعونى فاستجيب له من يسألنى فاعطيه من يستغفرنى فاغفر له حتى يطلع الفجر) وقوله فى الحديث الصحيح حديث الانصارى الذى أضاف رجلا وآثره على نفسه وأهله فلما أصبح الرجل وغدا على النبى صلى الله عليه وسلم فقال (لقد ضحك الله الليلة أو قال عجب من فعالكما أو قال من أفعالكما الليلة وأنزل الله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء) وفى الصحيح عنه أنه قال (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) وفى الصحيحين عن أبى واقد الليثى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قاعدا فى أصحابه إذ جاءه ثلاثة نفر فاما رجل فرأى فى الحلقة فرجة فجلس فيها ، وأما رجل فجلس خلفهم وأما رجل فانطلق فقال النبى صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم عن هؤلاء النفر؟ أما الرجل الذى جلس فى الحلقة فرجل آوى إلى الله فآواه الله ، وأما الرجل الذى جلس فى خلف الحلقة فاستحى فاستحى الله منه ، وأما الرجل الذى انطلق فاعرض أعرض الله عنه) وفى صحيح البخارى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (يقول الله تعالى من عادى لى

وليـا فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب إلى عبدى بمثـل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه) .

وفى الصحيحين عن البراء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (الانصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق من أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله) وفى الصحيحين عن عبادة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . فقالت عائشة : إنا لنكره الموت قال ليس ذاك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وأن الكافر إذا حضره الموت بشر بعذاب الله وسخطه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه) .

وفى الصحيحين عن أنس قالوا (أنزل علينا ثم كان من المنسوخ : أبلغوا قومنا إنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا) وفى حديث عمر بن مالك الرواسى قال : (أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله ارض عنى قال : فاعرض عنى ثلاثا فقلت: يارسول الله (إن الرب ليرضى فارض عنى فرضى عنى) . وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله) وهو حينئذ يشير إلى رباعيته وقال (اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله فى سبيل الله)

وفى صحيح مسلم عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده (اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) . وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى) وفى روايه « سبقت » وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال

ليقفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم يارب فيقرره ثم يقول قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته وهو قوله تعالى (هاؤم اقرؤا كتابيه) وأما الكافر والمنافق فينادون : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » فأخبر ﷺ انه سبحانه يقول قولا ثم يقول العبد ثم يقول الرب تعالى قولا آخر . وهذا الأصل العظيم دلت عليه الكتب المنزلة من الله ـ القرآن والتوراة والانجيل وكان عليه سلف الأمة وأئمتها بل وعليه جماهير العقلاء وأكابرهم من جميع الطوائف حتى من الفلاسفة .

(فصل)

(وأما قوله والدليل على كونه متكلما انه آمر وناه لأنه بعث الرسل لتبليغ أوامره ونواهيه ولا معنى لكونه متكلما إلا ذلك) فنقول : السلف والأئمة وغيرهم لهم في اثبات كونه متكلما طريقان فإنهم يثبتون ذلك بالسمع تارة وبالعقل أخرى كما يوجد مثل ذلك في كلام الامام أحمد وغيره من الأئمة وفي كلام متكلمة الصفاتية كعبد العزيز المكي وأبي محمد بن كلاب وأبي عبد الله بن كرام وأبي الحسن الأشعري ونحوهم ، والطرق التي أظهروها من العقليات قد دل القرآن عليها ، وأرشد إليها كما دل القرآن على الطرق العقلية التي يثبت بها سائر قواعد العقائد المسماة بأصول الدين (لكن الدليل) قد تتنوع عباراته وتراكيبه فانه تارة يركب على وجه الشمول المنقسم إلى قياس تداخل وقياس تلازم وقياس تعاند الذي يسمى بالحملي والشرطي المتصل والشرطي المنفصل ، وتارة يركب على وجه قياس التمثيل المفيد لليقين بأن يجعل المشترك بين الأصل والفرع الذي يسمى في قياس التمثيل المناط والوصف والعلة والمشترك والجامع ونحو ذلك من العبارات هو الحد الأوسط في قياس الشمول فاذا قال ناظم القياس الأول : نبيذ الحبوب المسكر حرام قياسا على خمر العنب لأنه خمر فكان حراما قياسا عليه فهذا كما في نظم قياس الشمول : هذا خمر وكل خمر حرام أو فيه الشدة المطربة وما فيه الشدة المطربة فهو حرام وما يثبت به هذه المقدمة الكبرى يثبت به كون المشترك علة الحكم . وبهذا تبين ان قياس التمثيل قد يكون أتم في البيان من قياس الشمول فأما ما يقوله طائفة من النظار من أن قياس الشمول هو الذي يفيد اليقين دون التمثيل فهذا لا يصح الا بحسب المواد بأن يوجد ذلك

فى مادة يقينية وهذا فى مادة ظنية ، وحينئذ فقد يقال : بل ذلك يفيد اليقين دون هذا ، وسبب غلطهم أنهم تعودوا كثيراً استعمال التمثيل فى الظنيـات ، واستعمال الشمول فى اليقينيات عندهم فظنوا هذا من صورة القياس ، وليس الأمر كذلك بل هو من المادة .

وقد بسط الكلام على هذا فى مواضع غير هذا الموضع كالرد على المناطقين فى المنطق وغير ذلك ثم القياس تارة يعتبر فيه القدر المشترك من غير اعتبار الأولوية وتارة يعتبر فيه الأولوية فيؤلف على وجه قياس الأولى وهو إن كان قد يجعل نوعا من قياس الشمول والتمثيل فله خاصة يمتاز بها عن سائر الأنواع ، وهو أن يكون الحكم المطلوب أولى بالثبوت من الصـورة المذكورة فى الدليل الدال عليه ، وهذا النمط هو الذى كان السلف والأئمة كالامام أحمد وغيره من السلف يسلكونه من القياس العقلى فى أمر الربوبية وهو الذى جاء به القرآن . وذلك أن الله سبحانه لا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قياس الشمول الذى تستوى أفراده ولا تحت قياس التمثيل الذى يستوى فيه حكم الأصل والفرع . فإن الله تعالى ليس كمثله شىء لا فى نفسه المذكورة بأسمائه ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، ولكن يسلك فى شأنه قياس الأولى كما قال : « ولله المثل الأعلى » ..

فإنه من المعلوم أن كل كمال ونعت ممدوح لنفسه لا نقص فيه يكون لبعض الموجودات المخلوقة المحدثة . فالرب الخالق الصمد القيوم القديم الواجب الوجود بنفسه هو أولى به وكل نقص وعيب يجب أن ينزه عنه بعض المخلوقات المحدثة الممكنة فالرب الخالق القدوس السلام القديم الواجب وجوده بنفسه هو أولى بأن ينزه عنه ..

وأما إذا سلك مسلك المشبهين لله بخلقه المشركين به الذين يجعلون له عدلا وندا ومثلا . فيسوون بينه وبين غيره فى الأمور كما يفعله أهل الضـلال من أهل الفلاسفة والكلام من المعتزلة وغيرهم . فإن ذلك يكون قولا باطلا من وجوه (منها) أن تلك القضية الكلية التى تعمه وغيره قد لا يمكنهما إثباتها عامة إلا بمجرد قياس التمثيل وقياس التمثيل إن أفاد اليقين فى غير هذا الموضع ففى هذا الموضع قد لا يفيد الظن للعلم بانتفاء الفارق (ومنها) أنهم إذا حكموا على القدر المشترك الذى هو الحد الأوسط بحكم يتناوله

والمخلوقات كانوا بين أمرين إما أن يجعلوه كالمخلوقات ، أو يجعلوا المخلوقات مثله فينتقض عليهم طرد الدليل فيبطل ..

ومثال ذلك إذا قال الفيلسوف : إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، وهو واحد فلا يصدر عنه إلا واحد . فإنه يحتاج أن يعلم أولا قوله الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، فان هذه قضية كلية ، وكل قياس شمولى فلا بد فيه من قضية كلية ، وعلمه بأن كل واحد لا يصدر عنه إلا واحد إما أن يكون باستقراء الآحاد ، وإما بقياس بعضها إلى بعض ، وهذا استقراء ناقص وهذا تمثيل وهما عنده لا يفيدان اليقين .. فان قال أعلم بالبديهة أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد كان هذا مكابرة لعقله فإن العلوم الكلية المطابقة للأمور الخارجية ليست مغروزة فى الفطرة ابتداء بدون العلم بأمور معينة منها . لكن لكثرة العلم بالأمور المعينة الجزئية يجرد العقل الكليات فتبقى القضيه العامة ثابتة فى العقل لا تحتاج إلى شواهد وأمثلة جزئية إلا أن يكون علم تلك القضية العقلية من تركيب قضايا أخر ..

وقوله : الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ليس من هذا ولا من هذا . ثم إذا تصور مفردات هذه القضيه علم يقيناً أنه ليس عنده منها علم بل علم أن الواقع خلافها . فان قوله الواحد إن عنى به الواحد الذى لا يعلم منه أمر ان ليس أحدهما الآخر فليس فى الوجود واحد بهذا الاعتبار فانه يعلم أن واجب الوجود موجود ، وأنه عاقل ومعقول ، وعقل وإن له عناية .. وأمثال هذه المعانى التى ليس أحدها هو الآخر فإن الوجوب ليس هو الوجود ولا الوجوب ، والوجود هو العاقل ولا العاقل هو المعقول ولا العاقل ، والمعقول هو ذو العناية وإن قال هذه كلها سلوب وإضافات محضة كان مكابراً لعقله فان كون الشىء يعقل ليس هو كونه يعقل ولا كونه عالما مجرد نسبة محضة إلى المعلوم كالأمور الإضافية التى لا يتغير بها حال المضاف كالتيامن والتياسر فانه من المعلوم أن كون الشىء متيامنا أو متياسراً عنك لا يختلف به حالك فى الوضعين ..

وأما كون الشىء عالما فيخالف كونه غير عالم كما أن كونه محبا يخالف كونه غير محب ، وكونه قادرا يخالف كونه غير قادر ، ومن جعل الشىء حال كونه عالما وحال

كونه غير عالم سواء فهو مصاب فى فهو عقله ، وهذا من أعظم السفسطة ، وكذلك من جعل كونه ذا عناية هو مجرد كونه عاقلا فان هذا من أعظم السفسطة والعقل الصريح يعلم أن كون الشيء عالما ليس هو مجرد كونه مريداً ، ولا مجرد كونه مريداً هو مجرد كونه عالما ، ولو قيل إن أحدهما يستلزم الآخر . فالتلازم لا يوجب كون الملزوم هو اللازم ، وإذا قيل فى أى موجود فرض أن علمه هو إرادته ، وإرادته هى حياته ، وأن ذلك هو وجوده كان فساد هذا من أبين الأمور فى العقل كما إذا قيل : إن هذه التفاحة طعمها هو مجرد لونها ، ولونها هو مجرد ريحها وريحها هو مجرد شكلها ، وشكلها هو عين ذاتها ..

فهذا الكلام من تصوره من الناس وفهمه حتى الصبيان المميزين علم أن قائله من أضل الناس وأجهلهم ، فهذا الواحد الذي يصفونه يمتنع فى الوجود الواجب فهو فى غيره أشد امتناعا ولهذا يؤول بهم الأمر إلى أن يجعلوه وجودا مطلقا بشرط الاطلاق كما يجعله المعتزلة ذاتا مجردة من الصفات وكلاهما مما يعلم بصريح العقل انتفاء ثبوته فى الخارج بل المطلق لابشرط يمتنع ثبوته فى الخارج وهم يجعلون موضوع العلم الالهى هذا الوجودالمنقسم إلى واجب وممكن وجوهر وعرض وعلة ومعلول ويجعلون هذا هو الفلسفة الأولى والحكمة العظمى ولم يعلمون ان الكليات المقسومة سواء سميت جنسا أو لم تسم جنسا لا توجد فى الخارج كلية فليس فى الخارج الحيوان المنقسم إلى ناطق وأعجم ولا الوجود المنقسم إلى جوهر وعرض بل كل حيوان يوجد فى الخارج فهو من هذا القسم وكل موجود يوجد فى الخارج فهو إما قائم بغيره وهو المقسوم الصادق على أقسامه فهو مطلق لا بشرط الاطلاق فانه لو شرط فيه الاطلاق لم يصدق على المعينات فان المعين ليس مطلقا بشرط الاطلاق فاذا كان المطلق لا بشرط الاطلاق لا يوجد فى الخارح فلا يوجد فيه حيوان مطلق بشرط الاطلاق ولا إنسان مطلق بشرط الاطلاق وهذا بين لجميع العقلاء .

ثم قالوا فى الوجود الواجب الوجود إنه وجود مطلق بشرط الاطلاق وقد علم بصريح العقل أن الوجود المطلق بشرط الاطلاق لا يكون فى الخارج وإنما هو أمر يقدر فى العقل

لا حقيقة له فى الخارج عن الذهن ولا ثبوت له فى نفس الأمر وهذا عين التعطيل للموجود الواجب الذى شهد به الوجود من حيث هو وجو فان الوجود من حيث هو وجود يشهد بوجود واجب الوجود كما قال ابن سينا وغيره وأصابوا فى ذلك فانه لاريب أن ثم وجودا وأنه إما واجب وإما ممكن والممكن لا بد له من واجب فثبت أنه لا بد فى الوجود من موجود واجب .

فهذا البيان الذى ذكروه فى اثبات واجب الوجود حق واضح مبين لكنهم زعموا مع ذلك أنه وجود مطلق بشرط الاطلاق لا يتعين ولا يتخصص بحقيقة يمتاز بها عن سائر الموجودات بل حقيقته وجود محض مطلق بشرط نفى جميع القيود والمعينات والمخصصات وهم يعلمون فى المنطق وكل عاقل تصور هذا الكلام أن هذا لا حقيقة له ولا وجود له إلا فى الذهن لا فى الخارج فصار الموجود الواجب الذى يشهد به الوجود فى الخارج لا يوجد إلا فى الذهن وهذا من أبين التناقض والاضطراب والجمع بين النقيضين حيث جعلوه بموجب البرهان الحق موجوداً فى الخارج وبموجب سلب الصفات هو التوحيد الذى تخيلوه معدوما فى الخارج فصار قولهم مستلزما لوجوده وعدمه وكذلك قول من سلك سبيلهم من القرامطة الباطنية كأصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم من الاتحادية أهل وحدة الوجود كابن سبعين وابن عربى ونحوهما . بل وسبيل نفاة الصفات من أهل الكلام كالمعتزلة وغيرهم بل وسبيل سائر من نفى شيأ من الصفات فان لازم كلامه تعطيله ونفيه مع اقراره بثبوته فيكون جامعا بين النقيضين وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

وإنما المقصود هنا التنبيه على مثال أقيستهم الفاسدة التى يجعلونها براهين فيما خالفوا فيه الحق ثم إذا تبين أن هذا الواحد ليس له حقيقة فى الخارج قيل لمن قال الواحد لا يصدر عنه إلا واحد : ما معنى الصدور ؟ أنت لا تعنى به حدوثه عنه ولا فعله له بمشيئته وقدرته فعلا يسبق به الفاعل مفعوله وإنما تعنى به لزومه له ووجوبه به ونحن لا نتصور فى الموجودات شيئا صدر عنه وحده شىء منفصل عنه كان لازما له قيل هذا الوجه بل مالزمه وحده كان صفة له إما أن يكون اللازم للملزوم وحده شيئا منفصلا عنه فهذا بيان غير معقول ومعروف فهذا الصدور الذى ذكرته غير معروف .

فقولك في هذه القضية الكلية الواحد لا يصدر عنه إلا واحد يقتضي الحكم على كل ما يتصور أنه واحد بأنه لا يصدر عنه إلا واحد فاذا لم يتصور هذا الصدور ولا يعلم صدق هذا السلب في صورة معينة من صور هذه القضية الكلية فمن أين تعلم هذه القضية الكلية .

وإذا استدلوا على ذلك بالنار التي لا يصدر عنها إلا الاحراق وبسائر الأجسام البسيطة كالماء أو بالشمس التي يصدر عنها الشعاع ، لم يكن شيء من هذه المعينات داخلا في قضيتهم الكلية : فان الاحراق لا يصدر عن النار وحدها بل لا بد من محل قابل للاحراق ولهذا لا يصدر عنها الاحراق في السمندل والياقوت ونحوهما من الأجسام التي لا تقبل الاحراق وكذلك البردات . ثم ان الاحراق له موانع تمنعه فهو موقوف على ثبوت شروط وانتفاء موانع غير النار فلم يصر صادراً عن النار بالمعنى الذي أرادوه بالحجة وهو لزومه لذات النار بحيث لا ينفك عنها .

وإنما يعقل هذا اللزوم في صفات اللزوم كاستدارة الشمس والضوء القائم بها ونحو ذلك ، فان هذا لازم لا يفارق ذاتها بخلاف الضوء القائم بما يقابلها من الأجسام وهو الشعاع المنعكس على الأجسام السطحة كالأرض والقائمة كأشخاص الجبال والحيوان والنبات والحيطان فان هذا ليس لازماً لذات الشمس بل هو موقوف على وجود هذه الحال التي يقوم بها هذا العرض .

وهو أيضاً ممنوع عنها بالحجب كالسحاب الكثيف والكسوف وغير ذلك وهذا الشعاع كالظل يكون بسبب الحجاب بينها وبين مايظله الحجاب فيوجد تارة ويعدم أخرى ولهذا يوجد الليل تارة والنهار أخرى . فهذا بيان أن ما قدروه من الواحد ومن الصدور عنه أمر لا يعقل في الخارج أصلا فضلا عن أن يكون قضية كلية عامة . وأما إذا قدروا واحداً يفرضونه في أنفسهم وصدورا يفرضونه في أنفسهم فلا ريب أن هذا ملازمة حكم يكون في أنفسهم لكن لا يعلم أنه مطابق للخارج حتى يعلم أن هذا الواجب الوجود هو هو هذا الواحد وأن ابداعه للعالم هو هذا الصدور ولو علموا ذلك لم يحتاجوا إلى هذا القياس .

فهذا القياس لا يفيدهم شيئاً إذ مطلوبه علم معين بقضيه كلية وتلك القضية لا صدقها

أصلا إلا مايدعونه فى ذلك المعين فهم إن علموا ثبوت الحكم لذلك المعين بدون تلك القضية لم يحتاجوا إليها وان لم يعلموا ثبوت الحكم للمعين بدون تلك لم يعلم صدق القضية عليه فلا يفيد بل إذا عورضوا بنقيض ماقالوه كان أبين فى القياس فيقال لهم ليس فى الوجود واحد يصدر عنه واحد بل كل صادر فى الوجود فهو عن اثنين فصاعدا فلا حادث عن المخلوقات إلا عن أصلين كالولد بين أبوين والتسخين والتدبير والاحراق والاغراق وغير ذلك لا بد فيه من اثنين والشعاع المنبسط لابد فيه من اثنين فاذالم يكن فى لوجود واحد لا يصدر عنه واحد كان قول القائل : ليس كل واحد لا يصدر عنه إلا واحد أصح فى العقل والقياس من قولهم . بل لو قال الواحد الذى ذكروه لا يصدر عنه شيء أصلا لكان قوله أصح فى العقل والقياس من قولهم وكذلك إذا قيل الواحد الذى ذكروه لايصدر عنه شيء إلا مع غيره لكان قوله أصح من قولهم وذلك يقتضى أن يكون للرب شريك وولد إذ مقصودهم بالصدور هو لزومه إياه وهذا هو أنتولد العقلى وحقيقة قولهم : إن العقول والنفوس متولدة عنه وقولهم بالعلة والمعلول هو القول بالتولد والمتولد عنه (فاستطرد شيخ الإسلام كلامهم إلى أن قال) فانه يحتاج أن يعلم أولا انهم (جعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) .

وقد بسطنا هذا فى غير هذا الموضع وبينا أن قول هؤلاء أفسد من قول مشركى العرب الذين قالوا : إن الملائكة بنات الله وقالوا إن آلهتنا تشفع لنا فان أولئك كانوا يقولون ان الرب فاعل مختار والملائكة مخلوقون له ولكن ضلوا فى بعض ما وصفوه كما ضلت النصارى فى بعض ماذكروه ، وأما هؤلاء فأعظم ضلالا من اليهود والنصارى ومشركى العرب فانهم فى الحقيقة لا يجعلون الرب تعالى خالقا لشيء ولا يفعل فعلا بمشيئته واختياره ولا يجعلون الملائكة عباده بل يجعلون العقل الأول هو رب كل ما سوى الله والشفاعة عندهم ليست سؤالا من الله تعالى من الشافع بل توجه إلى الشافع حتى يفيض منه على المستشفع ما ليس لله ولا للشافع به علم عندهم ولا يحصل بقدرته ولا مشيئته .

والمقصود هنا التنبيه على أن طرق السلف والأئمة الموافقة للطرق التى دل القرآن عليها وأرشد إليها هى أكمل الطرق وأصحها وأكثر الناس صوابا فى العقليات أقربهم إليهم كما أن أكثرهم صوابا فى السمعيات أقربهم إليهم إذ العقل الصريح لا يخالف السمع الصحيح بل يصدقه ويوافقه كما قال تعالى « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق » وقال تعالى (ولا يأتونك بمثل الاجئناك بالحق وأحسن تفسيراً) ولهذا كان المتكلمة الصفاتية كابن كلاب والأشعرى وابن كرام خيرا وأصح طريقا فى العقليات والسمعيات من المعتزلة ، والمعتزلة خيرا وأصح طريقا فى العقليات والسمعيات من المتفلسفة وان كان فى قول كل من هؤلاء ما ينكر عليه وما خالف فيه العقل والسمع ولكن من كان أكثر صوابا وأقوم قيلا كان أحق بأن يقدم على من هو دونه تنزيلا وتفصيلا .

قالت عائشة أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم وهذا من القسط الذى أمر الله به وأنزل به كتبه وبعث به رسله قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله) وقال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)

(والمقصود هنا) التنبيه على طرق الناس فى اثبات كون الله متكلما تنبيها مختصرا بحسب ما يحتمله جواب هذا السؤال ، والطرق نوعان سمعية وعقلية ، وان كانت العقلية هى أيضا شرعية سمعية باعتبار أن السمع دل عليها وأرشد إليها وان الشرع أحبها ودعا إليها لكن صاحب هذا المختصر إنما سلك طريقا سمعيـة اتباعا لمتبوعه أبى عبد الله بن الخطيب وهذه الطرق مبنية على مقدمتين .

(احداهما) انه آمر، ناه ومن كان كذلك فهو متكلم والمقدمة الأولى مدلول عليها بأن الرسل بلغوا أمره ونهيه وكل من المقدمتين واضحة فان الكلام نوعان: انشاء وإخبار والانشاء أمر ونهى وإباحة فاذا ثبت له نوع من أنواع الكلام ثبت مطلق الكلام فثبت أنه متكلم .

وأما الثانية فقد علم بالاضطرار من دين جميع الرسل أنهم يخبرون عن الله بأنه أمر

بكذا ونهى عن كذا فيلزم من ثبوت الرسالة ثبوت كلام الله تعالى وجحد كون الله متكلما هو جحد لما بلغت عنه الرسل من الأمر والنهى . فان قيل فما الفرق بين هذه الطرق وبين الطرق التى أثبت بها السمع والبصر وهو السمع . قيل هناك أثبت السمع والبصر بنفس الإخبار المنفصل مثل قوله (وهو السميع البصير) وهنا أثبت تكلمه بمجرد إرسال الرسل من غير تعيين نص حيث قال علمنا أن الله أرسل رسله بتبليغ أمره ونهيه ولم يتعرض لاخبار السمع بأنه متكلم . فان قيل إذا أثبت المثبت تكلمه بالسمع وجب أن يكون السمع قد علمت صحته قبل العلم بكونه متكلما لكن الرسول إذا قال ان الله أرسلني إليكم يأمركم بتوحيده وينهاكم عن الاشراك به مثلا فان لم يعلموا قبل ذلك جواز كونه متكلما لم يعلموا امكان إرساله فلا يثبت السمع . قيل الجواب من وجهين أحدهما ان ما علم بالسمع وقوعه يكفى فيه الامكان الذهنى وهو كونه غير معلوم الامتناع بل كل مخبر أخبرنا بخبر ولم نعلم كذبه جوزنا صدقه ومتى كان فيه الصدق ممكنا لم يجز التكذيب بل أمكن أن يقام الدليل الدال على صدقه ووجوب تصديقه فيجب تصديقه وهذا الموضع يغلط فيه كثير من النظار فيظنون انه يحتاج فيما يطلب الدليل على وقوعه أو فيما قام الدليل على وجوده العلم بامكانه قبل ذلك وإنما يجب ان لا يعلم امتناعه فالرسل صلوات الله عليهم تخبر بمجارات العقول وما لا تعرفه العقول أو ما تعجز عن معرفته فما علم العقل امكانه ولم يعلم هل يكون أم لا يكون تخبر الرسل بوقوعه أم عدم وقوعه وما لم يعلم بالعقل امكانه ولا امتناعه تخبر الرسل أيضا إما بامكانه وإما بوقوعه المستلزم امكانه ولكن لا تخبر الرسل بوجوده ولا امكانه وما علم عدمه لا تخبر بوجوده فلا تأتى الرسل صلوات الله عليهم بما يعلم نقيضه ولكن قد تأتى بما لم يكن يعلم كما قال تعالى « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » .

وكذلك الوحى النازل على الأنبياء يعلمهم ما لم يكونوا يعلمون لا يأتيهم بما يعلمون خلافه قال تعالى (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) .

(الوجه الثانى) أن يقال إمكان التكلم معلوم بأدنى نظر العقل فانه إذا عرف أنه حى عليم قدير علم أنه يمكن أن يكون متكلما ، فان الكلام من الصفات المشروطة بالحياة ، والصفات المشروطة بالحياة إنما تمتنع عليه سبحانه مايمتنع منها ، كالنوم والأكل والشرب لتضمنها نقصا ينزه عنه ، وليس فى الكلام نقص ، بل سنبين إن شاء الله أنه من صفات الكمال ، ونبين مايستحيل اتصافه به ، فهذا تقرير ماذكره ويمكن أن يسلك فى ذلك طريقا أعم مما ذكره ، فانه استدل بالأمر والنهى ، خاصة والتحقيق أن الخبر يدل أيضا على أنه متكلم ، كما أن الأمر يدل على ذلك ، والرسل يبلغون عنه تارة الأمر والنهى ، وتارة الخبر . إما عن نفسه وإما عن مخلوقاته فيبلغون خبره عن نفسه بأسمائه وصفاته وخبره عن مخلوقاته بالقصص ، كما يبلغون الخبر عن ملائكته وأنبيائه ، ومن تقدم من الأمم المؤمنين والمكذبين ويبلغون خبره مما يكون فى القيامة من الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد بل ماتبلغه الرسل من خبره أكثر مما تبلغه من أمره ، والخبر فى القرآن أكثر من الأمر ، وإذا قيل لامعنى لكونه متكلما إلا أنه مخبر منبيء ، والتحقيق أن يقال لزم من كونه آمرا ناهيا أن يكون متكلما ، ويلزم من كونه مخبرا منبئا أن يكون متكلما .

(وأما قول القائل) لامعنى لكونه متكلما إلا أنه آمر ناه . وإنه مخبر ففيه نظر فان المتكلم يكون تارة آمراً وتارة مخبراً ، وهو فى حالة كونه مخبرا متكلم وإن لم يكن آمرا ، وفى حال كونه آمرا متكلم وإن لم يكن مخبرا سواء قدر إمكان انفكاك أحدهما عن الآخر أو قدر تلازمهما فى حق بعض المتكلمين .

ولقائل أن يقول هذا الذى ذكره قليل الفائدة فانه إن كان المقصود به إثبات كونه متكلما على من يقر بالرسل فجميع هؤلاء يقرون بأنه متكلم إذ لايمكن أحدا ممن يؤمن بالتوراة أو الانجيل أو القرآن أن ينكر أن الله تكلم ، وهذه الكتب مملوءة بذكر ذلك وأهل الملل مطبقون على ذلك وإن كان مقصوده إثبات ذلك على من لايقر بالرسل ، فتقرير المسألة تقرير لهذا ، فحاصله أن ماذكره من كونه متكلما هو حقيقة أن الرسل صادقون فيما أخبروا عنه فاذا أثبت ذلك بصدق الرسل كان إثباتا للشيء بنفسه (وإنما المقصود) إثبات أنه متكلم حقيقة بكلام يقوم بنفسه خلافا للمتفلسفة التى تجعل كلامه إنما هو تعريف فعلى وهو مايفيض النفوس من التعريفات وللجهمية من المعتزلة وغيرهم الذين يجعلون كلامه ما يخلقه فى

فى غيره من الحروف والأصوات ، وهذا الذى اعتنى به السلف فى الرد على من يقول القرآن مخلوق خلقه الله فى الهواء ، لم يقم به كلام فكيف بمن يقول ليس كلامه إلا ما يحدث فى النفوس من التعريف والاعلام من غير أن يكون له كلام منفصل عن نفوس الأنبياء والمرسلين ، وقد بسطنا القول فى مسألة الكلام واضطراب الناس فيها فى غير هذا الموضع.

(ولا ريب) أنه سلك فى هذا الاعتقاد مسلك الصفاتية المخالفين للمعتزلة ، ولهذا عد الصفات السبع . وأما المعتزلة فيقتصرون على أنه حى عالم قادر . وقد يزيد البصريون الإدراك كالسمع والبصر .

(وأما كونه متكلما ومريداً) فهذا عندهم من باب المفعولات لا من باب الصفات ، إذ معنى كونه متكلما عندهم أنه خلق كلاما فى غيره كسائر ما يخلقه من المخلوقات بخلاف كونه حيا عالما قادرا أو مدركا عند البصريين ، فان ذلك ثبت له لذاته سواء خلق شيئا أو لم يخلقه ، ولهذا كان عام التعلق لا يختص بمعلوم دون معلوم كما تختص الارادة والكلام بمراد دون مراد ومأمور دون مأمور . وهذا القدر الذى أثبته من كونه متكلما آمراً ناهيا لا ينازعه فيه معتزلى بل ولا متفلسف إلهى يقر بالنبوات فى الجملة كما يقر بها المتفلسفة الذين حقيقة أمرهم أنهم يؤمنون ببعض الصفات ويكفرون ببعض ، كما أن اليهود والنصارى يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض .

(ولقائل أن يقول) إن هذا السؤال ليس لازما له فى مسألة الكلام بل وفى سائر المسائل فانه لم يثبت شيئا من الصفات القائمة بنفسه ، وإنما أثبت أحكام الصفات وأثبت الاسماء . والمعتزلة توافق على الاسماء والأحكام بل والفلاسفة أيضا توافق على إطلاق ما ذكره من الأسماء والصفات فلا يكون فى هذا الاعتقاد فرق بين مذهب الصفاتية أهل الإثبات ، كابن كلاب والأشعرى وأتباعهما ولا بين المعتزلة كأبى على وأبى هاشم وأبى الحسين البصرى وأمثالهم . بل هذا الاعتقاد مشترك بين المعتزلة والأشعرية وغيرهم من الطوائف . يبين هذا أنه لم يذكر فى اعتقاده ما تتميز به الأشعرية عن المعتزلة ولا ذكر أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ولا ذكر مسألة الرؤية ، وإن رؤية الله جائزة فى الدنيا واقعة فى الآخرة ، ولا ذكر أيضا مسائل القدر . وأن الله خالق أفعال العباد وإنه مريد

للكائنات ولا ذكر أيضا مسائل الأسماء والأحكام ، وأن الفاسق لا يخرج عن الإيمان بالكلية . ولا يجب إنفاذ الوعيد ، بل يجوز العفو عن أهل الكبائر . ولا ذكر مسائل الامامة والتفضيل . وكل هذه الأصول تذكر فى مختصرات المعتقدات التى يصنفها متأخرو الاشاعرة كالعقيدة القدسية لأبى حامد ، والعقيدة البرهانية المختصرة من إرشاد أبى المعالى ونحوها فضلا عن الاعتقاد الذى تذكره أئمة الأشعرية كالقاضى أبى بكر ونحوه فانهم يزيدون على ذلك إثبات الصفات الخبرية ، وإثبات العلو . وأمثال ذلك فضلا عن الاعتقاد الذى ذكره الأشعرى فى المقالات عن أهل السنة وأصحاب الحديث فان فيه جملا مفصلة فضلا عما يذكره السلف والأئمة الكبار من الإثبات والتفصيل المبين للسنة الفاصل بينها وبين كل بدعة ، ولهذا كان أصحاب هذا الصنف مع انتسابهم إلى الأشعرى إماما فى باب الصفات مقرون بما تقر به المعتزلة ولا يقرون بما تقر به الأشعرية من الزيادات ، وبحوث أبى عبدالله بن الخطيب تعطيهم ذلك فان الوقت والحيرة ظاهر على كلامه فى إثبات الصفات ، ومسألة الرؤيا والكلام وأمثالها بخلاف مسائل القدر فانه جازم فيها بمخالفة المعتزلة ، وهذه الطريقة تشبه من بعض الوجوه طريقة ضرار بن عمرو ، وحسين النجار وأمثالها ممن كان يقر بالقدر ولكنه فى الصفات بين المعتزلة والأشعرية أو تشبه طريقة الواقفية الذين كانوا يقفون فى القرآن ، فلا يقولون هو مخلوق ولا غير مخلوق .

وكلام أئمة السنة فى ذم هؤلاء ، وكلام متكلمة الصفاتية كالأشعرى ، وغيره فى ذلك مشهور معروف (فان قيل) فالمعتزلة لا تقر بمنكر ونكير ، والصراط والميزان ، ونحو ذلك مما ذكره هذا الصنف (قيل المعتزلة) فى ذلك على قولين منهم من يثبت ذلك ومنهم من ينفيه على أن ما ذكره ليس فيه ما يدل على إثبات هذه الأمور ، وإنما فيه الإقرار بكل ما أخبر به الرسول من هذه الأمور ، وليس فى المعتزلة ولا غيرهم من المسلمين من يقول لا أقر بما أخبر به الرسول ، بل كل مسلم يقول إن ما أخبر به الرسول فهو حق يجب تصديقه به .

وكل المسلمين من أهل السنة والبدعة يقولون آمنت بالله ، وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله فانه متى لم يقر بهذا فهو كافر كفرا ظاهرا ولا يتميز بهذا القول المجمل مذهب أهل السنة عن غيرهم ، ولهذا لا يكتفى إمام من أئمة السنة بمجرد هذا

ومن نقل عن الشافعي وغيره انه اكتفى بهذا فقد كذب عليه وإنما هذا قول بعض المتأخرين وهو قول صحيح لا يخالف فيه إلا كافر لكن العلم بالسنة منفصلا مقام آخر ، فالمبتدع إذا نازع السني لا ينازعه في تصديق الرسول في كل ما أخبر به لكن ينازع هل أخبر بذلك الرسول أم لا وهل خبره على ظاهره أم لا ؟ وهو لم يثبت لا هذا ولا هذا . إذ هما من علم النقل ودلالة الألفاظ وليس فيما ذكره شيء من هذا وهذا . كما أن كلامه في التوحيد ليس مبنيا على أصول الأشعرية ولا أصول المعتزلة بل على أصول المتفلسفة فهو متردد بين الفسلفة والاعتزال وأخذ من بحوث المنتسبين إلى الأشعرية كالرازي ونحوه ما قد يقوله هؤلاء وهؤلاء .

وكذلك يحكي عنه خواص أصحابه انه كان في الباطن يميل إلى ذلك وقد ظهر ذلك في خواص المحدثين من أصحابه كالقشيري وغيره ومعلوم انه تكلم بمبلغ علمه وحسب اجتهاده ونهاية عقله وغاية نظره .

ولكن المقصود أن تعرف المقالات والمذاهب وما هي عليه من الدرجات والمراتب ليعطى كل ذي حق حقه ويعرف المسلم أين يضع رجله .

(إذا تبين هذا) فنحن ننبه على ما يتميز به أهل السنة عن المعتزلة ومن هو أبعد عن الحق منهم كالمتفلسفة (فنقول) إذا ثبت بهذا الدليل انه سبحانه متكلم وثبت أن الرسل أخبروا بذلك فنقول الذي أخبرت به الرسل انه متكلم بكلام قائم بنفسه هذا هو الذي نبينه وهذا هو الذي فهمه عنهم أصحابهم ثم تابعوهم باحسان بل علموا هذا من دليل الرسل بالاضطرار ولم يكن في صدر الأمة وسلفها من ينكر ذلك وأول من ابتداع خلاف ذلك الجعد بن درهم ثم صاحبه الجهم بن صفوان وكلاهما قتل . أما الجعد بن درهم الذي كان يقال انه معلم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وكان يقال له الجعدي نسبة إلى الجعد فانه قتله خالد بن عبد الله القسري ضحى به بواسط يوم النحر وقال (أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحايا كم فاني مضح بالجعد بن درهم انه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيراً) ثم نزل فذبحه وكانوا أول ما أظهروا بدعتهم قالوا ان الله لا يتكلم ولا يكلم كما حكى عن الجعد وهذه حقيقة قولهم فكل من قال القرآن مخلوق فحقيقة قوله أن الله لم يتكلم ولا يكلم ولا يأمر ولا ينهى

ولا يحب فلما رأوا ما فى ذلك من مخالفة القرآن والمسلمين قالوا انه يتكلم مجازا يخلق شيأ يعبر عنه لانه فى نفسه يتكلم فلما شنع المسلمون عليهم قالوا يتكلم حقيقة ولكن المتكلم هو من أحدث الكلام وفعله ولو فى غيره فكل من أحدث كلاما ولو فى غيره كان متكلما بذلك الكلام حقيقة وقالوا المتكلم من فعل الكلام لا من قام به الكلام وهذا الذى استقر عليه قول المعتزلة وهم يموهون على الناس فيقولون أجمع المسلمون على أن الله متكلم ولكن اختلفوا فى معنى المتكلم هل هو من فعل الكلام أو من قام به الكلام وما زعموه من أن المتكلم يكون متكلما بكلام قائم بغيره قول خرجوا به عن العقل والشرع واللغة .

وكان قدماء الصفاتية من السلف والأئمة والكلابية والكرامية والأشعرية يحققون هذا المقام ، ويثبتون ضلال الجهمية من المعتزلة وغيرهم فيه ولكن الرازى ونحوه أعرض عنه وقال هذا بحث لفظى وزعم انه قليل الفائدة ثم سلك مسلكا ضعيفا فى الرد عليهم قد بيناه فى غير هذا الموضع .

وهذا غلط عظيم جدا من وجهين (أحدهما) أن المسألة إذا كانت سمعية وانت إنما أثبت انه متكلم بأن الرسل بلغت أمره ونهيه الذى هو كلامه كان من تمام ذلك البحث عن مراد الرسل بكونه آمراً ناهيا متكلما هل مرادهم بذلك انه خلق كلاما فى غيره أوانه قام به كلام تكلم به والدلائل السمعية مقرونة بالبحث عن ألفاظ الرسل ولغاتهم التى بها خاطبوا الخلق فصارت هذه المقدمة هى الركن المعتمد فى الرد على المعتزلة كما سلكه قدماء الصفاتية وأئمتهم بل هى الركن المعتمد فى معنى كونه متكلما إذا ثبت ذلك بالطرق السمعية .

(الثانى) إن المسألة ليست لغوية فقط بل كون الصفة إذا قامت بمحل هل يعود حكمها على ذلك المحل أو على غيره هو من البحوث العقلية النافعة فى هذا المقام والسلف رضى الله عنهم عرفوا حقيقة المذهب وردوه بناء على هذا الأصل كما ذكره البخارى فى كتاب خلق الأفعال وقال وقال :قال ابن مقاتل سمعت ابن المبارك يقول من قال إنى أنا الله لا إله إلا أنا مخلوق فهو كافر ولا ينبغى لمخلوق أن يقول ذلك وقال إنما نحكى كلام

اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية وقال سليمان بن داود الهاشمى : من قال ان القرآن مخلوق فهو كافر وان كان القرآن مخلوقا كما زعموا فلم صار فرعون أولى بأن يخلد فى النار إذ قال (أنا ربكم الأعلى) ؟ وزعموا أن هذا مخلوق ومن قال إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى مخلوق فهذا أيضا قد ادعى ما ادعى فرعون فلم صار فرعون أولى بأن يخلد فى النـــار من هذا وكلاهما عنده مخلوق فأخبر بذلك أبو عبيد فاستحسنه وأعجبه .

قال البخارى قال أبو الوليد : سمعت يحيى بن سعيد وذكر له أن قوما يقولون القرآن مخلوق فقال كيف يصنعون بقل هو الله أحد الله الصمد ؟ كيف يصنعون بقوله : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا » وروى عن وكيع بن الجراح انه قال : لا تستخفوا بقولهم القرآن مخلوق فانه من شر قولهم إنما يذهبون إلى التعطيل .

ومعنى كلام السلف أن من قال « إن كلام الله مخلوق فحقيقة قوله أن الله تعالى لا يتكلم وان المحل الذى قام به « إننى أنا الله لا إله إلا أنا » هو المدعى الإلهية كما ان فرعون لما قام به « أنا ربكم الأعلى » كان مدعيا للربوبية وكلام السلف مبنى على ما يعلمونه من أن الله خالق أفعال العباد وأقوالهم وإذا كان كلامه ما خلقه فى غيره كان كل كلام كلامه وكان كلام فرعون كلامه إذ المتكلم من قام به الكلام فلا يكون متكلما بكلام يكون فى غيره كسائر الصفات والأفعال فانه لا يكون عالما بعلم يقوم بغيره ولا قادرا بقدرة تقوم بغيره ، ولا حيا بحياة تقوم بغيره . وكسائر الموصوفين فان الشيء لا يكون حيا عالمـا قادرا بحياة أو علم أو قدرة تقوم بغيره ولا يكون متحركا أو ساكنا بحركة أو سكون يقوم بغيره كما لا يكون متلونا بلون يقوم بغيره » .

(وهنا) أربع مسائل مسألتان عقليتان ومسألتان سمعيتان لغويتان (الأولى) ان الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها إلى ذلك المحل فكان هو الموصوف بها فالعلم والقدرة والكلام والحركة والسكون إذا قام بمحل كان ذلك المحل هو العالم القادر المتكلم أو المتحرك أو الساكن . (الثانية) ان حكمها لا يعود على غير ذلك المحل فلا يكون عالما بعلم يقوم بغيره ولا قادرا بقدرة تقوم بغيره ولا متكلما بكلام يقوم بغيره ولا متحركا بحركة تقوم بغيره وهاتان عقليتان .

(الثالثة) أنه يشتق لذلك المحل من تلك الصفة اسم إذا كانت تلك الصفة مما يشتق لمحلها منها اسم ، كما إذا قام العلم أو القدرة أو الكلام أو الحركة بمحل قيل عالم أو قادر أو متكلم أو متحرك بخلاف أصناف الروائح التي لا يشتق لمحلها منها اسم .

(الرابعة) أنه لا يشتق الاسم لمحل لم يقم به تلك الصفة ، فلا يقال لمحل لم يقم به العلم أو القدرة أو الارادة أو الكلام أو الحركة إنه عالم أو قادر أو مريد أو متكلم أو متحرك .

والجهمية والمعتزلة عارضوا هذا بالصفات الفعلية ، فقالوا : إنه كما أنه خالق عادل بخلق وعدل لا يقوم به بل هو موجود في غيره ، فكذلك هو متكلم مريد بكلام وإرادة ، لا تقوم به بل يقوم الكلام بغيره ممن سلم لهم هذا النقض ، كالأشعري ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد أظهر تناقضهم ولم يجيبوهم بجواب مستقيم ، وأما السلف وجمهور المسلمين من جميع الطوائف فإنهم طردوا أصلهم وقالوا : بل الأفعال تقوم به كما تقوم به الصفات والخلق ليس هو المخلوق ، وذكر البخاري أن هذا إجماع العلماء ، ومن قال الصفات تنقسم إلى صفات ذاتية وفعلية ، ولم يجعل الأفعال تقوم به ، فكلامه فيه تلبيس فانه سبحانه لا يوصف بشيء لا يقوم به وإن سلم أنه يتصف بما لا يقوم به ، فهذا هو أصل الجهمية الذين يصفونه بمخلوقاته ويقولون : إنه متكلم ومريد وراض وغضبان ومحب ومبغض وراحم لمخلوقات يخلقها منفصلة عنه لا بأمور تقوم بذاته .

(إذا تبين ذلك) فالسلف لما علموا هذا علموا أن قول من قال : « إني أنا الله لا إله إلا أنا » مخلوق يوجب أن يكون هذا الكلام كلاما للشجرة لا كلاما لله لأنه قائم بالشجرة لم يقم بالله . كما أن كلام فرعون قام به ، وإن كان الله خالق ذلك كله فانه خالق العباد وأفعالهم وكلامهم وهذا أيضا مما يبين أنه لو كان من يخلق الكلام في غيره متكلما لوجب أن يكون كل كلام في الوجود كلامه وهذا يقوله غاية الجهمية الاتحادية كصاحب الفصوص ونحوه فانه يقول :

وكل كلام في الوجود كلامه * سواء علينا نثره ونظامه

ومعلوم أن هذا الكلام أعظم من كفر عباد الأصنام ، كما ذكره ابن مبارك وغيره من السلف ، وأيضا فان الله تعالى قد أنطق أشياء كما قال تعالى (يوم تشهد عليهم ألسنتهم

وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين) وقال : (حتى إذا ماجاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء) فهو منطق كل شيء وخالق نطقه ولا نزاع أنه خالق النطق فى غير الحي المختار ، وإنما تنازعت القدرية فى خلق أقوال الأحياء وأفعالهم ، فان كان حقيقة كلامه ماخلقه فى غيره من الكلام فهذا جميعه كلامه وما فى هذا الكلام المخلوق من ضمير المتكلم إما أن يعود إلى خالقه أو إلى محله ، فان عاد إلى خالقه كانت شهادة الأعضاء شهادة الله وكان قول فرعون : « أنا ربكم الأعلى » قولا لله وكان قولهم «لجلودهم لم شهدتم علينا »قولالله وكان قول الجلود « أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء » بمعنى أنطقت نفسى .

ولم يكن فرق عندهم بين نطق وأنطق ، وإن عاد الضمير إلى محله كان الكلام المخلوق فى الشجرة إننى أنا الله لاإله إلا أنا كلاما للشجرة فتكون الشجرة هى القائلة إننى أنا الله لاإله إلا أنا ، وهذا حقيقة قولهم لما ثبت من أن الكلام كلام لمن قام به ، فيكون ضمير المتكلم فيه عائدا إلى محله ، ولما كان هذا المعنى مستقرا فى فطر الناس وعقولهم كان السلف يقصدون بمجرد قولهم : القرآن كلام الله . الرد على هؤلاء الجهمية الذين حقيقة قولهم إن القرآن ليس كلام الله وإنما هو كلام لجسم مخلوق ، وحقيقة قولهم إن الله لم يكلم موسى وإنما كلمه مخلوق من مخلوقاته ، قال البخارى قال عبدالرحمن ابن عفان سمعت سفيان بن عيينة فى السنة التى ضرب فيها المريسى ، فقام ابن عيينة من مجلسه مغضبا ، قال ويحكم القرآن كلام الله قد صحبت الناس وأدركتهم هذا عمرو بن دينار وهذا ابن المنكدر حتى ذكر منصورا والأعمش ومسعر بن كدام ، فقال ابن عيينة قد تكلموا فى الاعتزال والرفض والقدر وأمرونا باجتناب القوم فما نعرف القرآن إلا كلام الله ، ومن قال غير هذا فعليه لعنة الله ، وما أشبه هذا القول بقول النصارى : لاتجالسوهم ولا تسمعوا كلامهم .

وابن عيينة أخرج هذا القول عن الرفض والاعتزال لأن المعتزلة أولا الذين كانوا فى زمن عمرو وابن عبيد وأمثاله لم يكونوا جهمية ، وإنما كانوا يتكلمون فى الوعيد وإنكار

القدر ، وإنما حدث فيهم نفى الصفات بعد هذا ولهذا لما ذكر الإمام أحمد بن حنبل فى رده على الجهمية قول جهم قال فاتبعه قوم من أصحاب عمر وابن عبيد وغيره واشتهر هذا القول عن أبى الهذيل العلاف والنظام وأشباههم من أهل الكلام .

وأما الرافضة فلم يكن فى قدمائهم من يقول بنفى الصفات بل كان الغلو فى التجسيم مشهوراً عن شيوخهم هشام بن الحكيم وأمثاله .

وقال البخارى حدثنى الحكم بن محمد الطبرى كتبت عنه بمكة قال حدثنا سفيان بن عيينة قال أدركت مشيختنا منذ سبعين سنة منهم عمرو بن دينار ، يقولون القرآن كلام الله وليس بمخلوق . قلت كان المريسى قد صنف كتابا فى نفى الصفات وجعل يقرؤه بمكة فى أواخر حياة ابن عيينة ، فشاع بين علماء أهل مكة ذلك ، وقالوا صنف كتابا فى التعطيل فسموا فى عقوبته وحبسه ، وذلك قبل أن يتصل بالمأمون ويجرى من المحنة ما جرى. وقول ابن عيينة ما أشبه هذا الكلام بكلام النصارى هو كما قال كما قد بسط فى غير هذا الموضع فان عيسى مخلوق ، وهم يجعلونه نفس الكلمة لا يجعلونه المخلوق بالكلمة ، وأيضا فأئمة نصارى كغشتكين أحد فضلائهم الأكابر يقولون إن الله ظهر فى صورة البشر متراثيا لنا كما ظهر كلامه لموسى فى الشجرة فالصوت المسموع هو كلام الله وان كان خلقه فى غيره وهذا المرئى هو الله وان كان قد حل فى غيره .

قال البخارى وقال على بن عاصم ما الذين قالوا بأن لله ولدا أكفر من الذين قالوا ان الله لا يتكلم . قال وقال على بن عبد الله يعنى بن المدينى القرآن كلام الله من قال انه مخلوق فهو كافر لا يصلى خلفه . قال وقال أبو الوليد من قال القرآن مخلوق فهو كافر ومن لم يعقد قلبه على أن القرآن ليس بمخلوق فهو خارج عن الإسلام، قال وقال أبو عبيد: نظرت فى كلام اليهود والنصارى والمجوس فما رأيت قوما أضل فى كفرهم منهم وإنى لأستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم . قال وقال معاوية بن عمار سمعت جعفر بن محمد يقول القرآن كلام الله ليس بمخلوق . وهذا باب واسع كبير منتشر فى كتب السنة والحديث . فهذا تمام ما قرره فى مسألة الكلام .

(فصـــل)

وللناس طرق أخرى فى اثبات كون الله متكلما منها ما فى القرآن من الاخبار عن ذلك كقوله تعالى (قال الله ـ ويقول الله) وقوله (وكلم الله موسى تكليما) وقوله (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) وما ذكره فى القرآن من كلمة وكلماته كقوله تعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك) وقوله (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) وما فيه من ذكر مناداته ومناجاته كقوله (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) وقوله (ويوم يناديهم أين شركائى الذين كنتم تزعمون ـ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ـ وإذ نادى ربك موسى ان ائت القوم الظالمين) وما فى القرآن من ذكر أنبائه وقصصه كقوله (قد نبأنا الله من أخباركم) وقوله (نحن نقص عليك أحسن القصص) وما فى القرآن من ذكر حديثه كقوله (الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثـــا) وقوله (الله نزل أحسن الحديث) من القول منه وقوله (ولـكن حق القول منى لاملأن جهنم من الجنة والنـاس أجمعين) وقوله تعالى (قوله الحق وله الملك) الآية .

وما ذكر فى القرآن انه منه أو ما أضيف إليه فان كان عينا قائمة بنفسها أو أمرا قائما بتلك العين كان مخلوقا كقوله فى عيسى (وروح منه) وقوله (وسخر لـكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه) وقوله تعالى (وما بكم من نعمة فمن الله) .

وأما ما كان صفة لا تقوم بنفسها ولم يذكر لها محل غير الله كان صفة له فـكالقول والعلم والأمر إذا أريد به المصدر كان المصدر من هذا الباب كقوله تعالى (ألا له الخلق والأمر) . وإن أريد به المخلوق المـكون بالأمر كان من الأول كقوله تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) .

وبهـــذا يفرق بين كلام الله سبحـــانه ، وعلم الله ، وبين عبد الله وبيت الله وناقة الله وقوله (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) وهذا أمر معقول فى الخطاب فاذا قلت علم فلان وكلامه ومشيئته لم يكن شيئا باينا عنه ، والسبب فى ذلك أن هذه الأمور صفات لما تقوم به فاذا أضيفت إليه كان ذلك اضافة صفة لموصوف إذ لو قامت

بغيره لكانت صفة لذلك الغير لا لغيره .

واعلم أن الاستدلال على الكلام بمثل هذه السمعيات أكمل من الاستدلال على السمع والبصر بالسمعيات لأن ما أخبر الله به عن نفسه من قوله وكلامه ونبائه وقصصه وأمره ونهيه وتكليمه ونداثه ومناجاته وأمثال ذلك أضعاف أضعاف ما أخبر به من كونه سميعا بصيرا ..

وأيضا فانه نوع الاخبار عن كل نوع من أنواع الكلام وثنى ذلك وكرره فى مواضع ولا يحصى مافى القرآن من ذلك إلا بكلفة، ومن المعلوم بالاضطرار ان المخاطبين لا يفهمون من هذا الكلام عند الاطلاق انه خلق صوتا فى غيره وإنما يفهمون منه هو الذى تكلم بذلك وقاله كما قالت عائشة فى حديث الافك « ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بوحى يتلى » فلو كان المراد بهذه الجمل الكثيرة العظيمة البينة الصريحة خلاف مفهومها ومقتضاها لوجب بيان ذلك إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز ، ثم لا يقدر أحد أن يحكى عنهم أنهم جعلوا الكلام كلاما لمن أحدثه فى غيره بل لا يوجد فى كلامهم ، قال : ويقول تكلم ويتكلم إلا إذ كان الكلام قائما بذاته .

وإذا احتجت الجهمية من المعتزلة ونحوهم بأن أحدنا إنما كان متكلما لأنه فعل الكلام . قيل هو لم يحدثه فى غيره ولم يباين كلامه نفسه وأنتم تجعلون الكلام البائن للمتكلم كلاما له . فان قالوا ولا نعقل الكلام إلا كلاما لمن فعله بمشيئته وقدرته فان كلام أحدنا لم يكن كلاما له بمجرد قيامه بذاته بل لكونه فعله . قيل أما كلام أحد فهو قائم به وهو تكلم به فى ذاته ومشيئته وقدرته فهو قد جمع الوصفين انه قائم بذاته وانه تكلم به بمشيئته وقدرته فليس جعلكم الكلام كلامه لمجرد كونه فعله بأولى من جعل غيركم الكلام كلاما له لمجرد كونه قام بذاته .

وهذا موضع تنازعت فيه الصفاتية بعد اتفاقهم على تضليل الجهمية من الفلاسفة والمعتزلة ونحوهم على قولين مشهورين حتى القائلون بأن الكلام معنى قائم بنفس المتكلم وراء الأصوات تنازعوا فى ذلك كما ذكره أبو محمد بن كلاب فيما حكاه عنه أبو بكر ابن فورك . قال ابن فورك : فأما صريح عبارته وما نص عليه فى كتاب الصفات الكبير

فى تحقيق الكلام فإنه قال فأما الكلام فإنه على ما شاهدناه منه معنى قائم بالنفس فقوم يزعمون أنه نعت لها ، وقوم يزعمون أنه فعل من أفعالها إلا أنهم يعبرون عنه بالألفاظ والكتاب والإيماء ، وكل ذلك قد يسمى كلاما ، وقولا لأدائه ما يؤدى عن تلك المعانى الخفيات ..

وكذلك أبو بكر عبد العزيز ذكر فى كتابه ما ذكره القاضى أبو يعلى عنه أن أصحاب الإمام أحمد تنازعوا فى معنى قولهم القرآن غير مخلوق هل المراد به أنه صفة لازمة له كالعلم والقدرة أو أنه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء ، وهذه المسألة متعلقة بمسألة قيام الأفعال بذاته المتعلقة بمشيئته هل يجوز أم لا ؟ كالاتيان والمجيء والاستواء ونحو ذلك ، وتسمى مسألة حلول الحوادث ، وكل طائفة من طوائف الأمة وغيرهم فيها على قولين حتى الفلاسفة لهم فيها قولان لمتقدميهم ومتأخريهم ..

وذكر أبو عبد الله الرازى أن جميع الطوائف تلزمهم هذه المسألة وإن لم يلتزموها وأول من صرح بنفيها الجهمية من المعتزلة ونحوهم ووافقهم على ذلك أبو محمد بن كلاب وأتباعه كالحارث المحاسبى ، وأبى العباس القلانسى ، وأبى الحسن الأشعرى ، ومن وافقهم من أتباع الأئمة كالقاضى أبى يعلى وأبى الوفاء بن عقيل وأبى الحسن بن الزاغونى وهو قول طائفة من متأخرى أهل الحديث كأبى حاتم البستى ، والخطابى ونحوهما ، وكثير من طوائف أهل الكلام يثبتها كالهشامية والكرامية والزهيرية ، وأبى معاذ التومنى وأمثالهم كما ذكره الأشعرى عنهم فى المقالات وهو قول أساطين فلاسفة المتقدمين ، وكأبى البركات صاحب المعتبر وأمثاله من المتفلسفة وهو قول جمهور أئمة الحديث كما ذكره عثمان ابن سعيد الدارى وإمام الأئمة أبو بكر بن خزيمة وغيرهما عن مذهب السلف والأئمة ، وكما ذكره شيخ الاسلام أبو اسماعيل الأنصارى ، وأبو عمر بن عبد البر النميرى .

وقاله طوائف من أصحاب أحمد كالخلال وصاحبه ، وأبى حامد وأمثالهم وقاله داود ابن على الأصفهانى وأتباعه ، وهو مقتضى ما ذكروه عن السلف والأئمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى عبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل ، والبخارى صاحب الصحيح وأمثالهم ، وعليه يدل كلام السلف فهؤلاء إذا قالوا : المتكلم من قام به الكلام وهو

يتكلم بمشيئته وقدرته خصموا المعتزلة وانقطعت حجتهم عنهم فإنهم اعتبروا الوصفين جميعاً ، فمن جعل المتكلم من قام به الكلام ، وإن لم يكن متكلما بمشيئته وقدرته ، أو جعله من فعله بمشيئته وقدرته وإن لم يكن قائما به لحذف أحد الوصفين ..

ولا ريب أن الطرق الدالة على الاثبات والنفى إما السمع وإما العقل . (أما السمع) فليس مع النفاة منه شيء بل القرآن والأحاديث هى من جانب الاثبات كقوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وقوله تعالى : « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين » وقوله : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » وقوله : « خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) وقوله (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) وقوله (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك) وأمثال ذلك مما فى القرآن فانه كثير جدا .

وكذلك الأحاديث الصحيحة كقوله عليه الصلاة والسلام ، لما صلى بهم صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل (أتدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : فانه قال أصبح من عبادي مؤمن بى وكافر بالكوكب) وما يذكره من خطابه للعباد يوم القيامة وخطابه للملائكة ، وأمثال ذلك بل كل ما تحتج به المعتزلة على أن القرآن مخلوق من نحو هذا فانه لايدل على أنه بائن منه . وإنما يدل على أنه يتكلم بمشيئته وقدرته فيمكن هؤلاء التزامه ويكون قولهم متضمنا للايمان بجميع ما أنزله الله مما يدل على أنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وعلى أن كلامه غير مخلوق بخلاف غيرهم، فانه يقرر بعض النصوص ويرد بعضها بتحريف أو تفويض ومن جعله متكلما بمشيئته وقدرته وقال إن كلامه قائم به زال عنه هذا كله والمنازع لهم يحتاج أن يقرر بالعقل امتناع ذلك ثم يبين انه يمكن تأويله .

(فأما الطرق العقلية) فالمثبتون يقولون إنها من جانبهم دون جانب النفاة كما تزعم النفاة أنها من جانبهم ، وذلك أنهم قالوا إن قدرته على مايقوم به من الكلام ، والفعل صفة كمال كما أن ما يقوم به من العلم والقدرة صفة كمال ومن المعلوم أن من قدر على أن

يفعل ويتكلم أكمل ممن لا يقدر على ذلك ، كما أن قدرته على أن يبدع الأشياء صفة كمال والقادر على الخلق أكمل ممن لا يقدر على الخلق .

وقالوا الحي لا يخلو عن هذا والحياة هي المصححة لهذا كما هي المصححة لسائر الصفات وإذا قدر حي لا يقدر على أن يفعل بنفسه ويتكلم بنفسه كان عاجزا بمنزلة الزمن والأخرس كما أنه إذا قدر حي لا يسمع ولا يبصر كان أصم أعمى ، فما من طريق يسلكه الصفاتية في إثبات صفاته إلا يسلك هؤلاء نظيره من إثبات ذلك .

ولا ريب أن النفاة نوعان (أحدهما) وهم الأصل المعتزلة ونحوهم من الجهمية فهؤلاء ينفون الصفات مطلقا وحجتهم على نفي قيام الأفعال به من جنس حجتهم على نفي قيام الصفات به ، وهم يسوون في النفي بين هذا وهذا كما صرحوا بذلك وليس لهم حجة تختص بنفس قيام الحوادث .وأما مثبتة الصفات الذين ينفون الأفعال الاختيارية القائمة به كابن كلاب والأشعري فانهم فرقوا بين هذين بأنه لو جاز قيام الحوادث به لم يخل منها لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ومالا يخلو من الحوادث فهو حادث ، وبهذا استدلوا على حدوث الأجسام لأنها لا تخلو من الأعراض الحادثة كالحركة والسكون والاجتماع والافتراق (فأجابهم الأولون) بثلاثة أجوبة (أحدها) أن استدلالكم بقيام الأفعال به على حدوثه هو نظير استدلال المعتزلة بقيام الصفات به على حدوثه . وقالوا الصفات أعراض والأعراض لا تقوم إلا بجسم ففرقتم أنتم بين الصفات وهي اللازمة وبين الأعراض وهو فرق صوري يرجع في الحقيقة إلى الاصطلاح فان جاز أن تقوم به الصفات التي هي أعراض في غيره ولا يكون جسما محدثا جاز أن تقوم به الأفعال التي هي حركات في غيره ولا يكون جسما محدثا وهذا إلزام .

(الثاني) قالوا انهم لا نسلم أن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده وقد اعترف أبو عبد الله الرازي وأبو الحسن الآمدي ونحوهما بفساد هذا الأصل ، وعليه بنى الأشعري وأصحابه كلامهم في مسألة امتناع قيام الحوادث به ومسألة القرآن ونحوهما من المسائل .

(الثالث) هب انه لا يخلو عنه وعن ضده وأن ذلك يستلزم تعاقب الحوادث لكن لا نسلم ان ذلك يستلزم حدوث ما قام به ، قالوا والدليل الذى ذكرتموه على حدوث العالم من هذا الوجه دليل ضعيف وقد ألزمكم الفلاسفة فيه الزاما لم تنفصلوا عنه ولا يمكنكم الانفصال عنه إلا بتجويز ذلك على القديم فإنهم قالوا : ما حدث بعد أن لم يكن فلا بد له من سبب حادث فإن ذلك الحادث ممكن والممكن لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح والمرجح ان لم يجب حصول الممكن عند حصوله لم يكن مرجحا تاما فافتقر إلى تمامه ، ثم القول فى حدوث ذلك التمام كالقول فى حدوث الأول فلا بد من مرجح تام يجب عنده الحادث فلابد لكل حادث من سبب تام يحصل الحادث عند تمام ذلك السبب فاذا كان العالم محدثا بعد أن لم يكن ولم يحدث سبب يقتضى حدوثه فلم يكن حين ابداعه أمر يوجب ترجيحه لم يكن قبل إبداعه بل الحالان سواء فيلزم ترجيح الحدوث بلا مرجح .

وهذا الموضع هو أصعب المواضع على المتكلمين فى بحثهم مع الفلاسفة فى مسألة حدوث العالم . وهذه الشبهة أقوى شبهة الفلاسفة فإنهم لما رأوا أن الحدوث يمتنع إلا بسبب حادث قالوا : والقول فى ذلك الحادث كالقول فى الأول .

وقال هؤلاء المثبتة لقيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى وعلى أصلنا يبطل كلام الفلاسفة فإنه يقال لهم أنتم تجوزون قيام الحوادث بالقديم إذ الفلك قديم عندكم والحركات تقوم به ، وتجوزون حوادث لا أول لها وتعاقب الحركات على الشىء لا يستلزم حدوثه وإذا كان كذلك فلم يجوز أن يكون الخالق للعالم له أفعال اختيارية تقوم به يحدث بها الحوادث ولا يكون تسلسلها وتعاقبها دليلا على حدوث ما قامت به .

قال هؤلاء لأصحابهم الذين أثبتوا حدوث العالم بهذه الطرق تسلط عليكم الفلاسفة فى مسألة حدوث العالم فإنكم إذا أثبتم حدوث العالم وقلتم المحدث لا بد له من محدث لأن تخصيص الحوادث ببعض الأوقات دون بعض لا بد له من مخصص قال لكم الدهرية فأنتم تجوزون الحدوث من غير سبب حادث يقتضى التخصيص ببعض الحوادث دون بعض .

فان قلتم القديم يخصص مثلا عن مثل بلا سبب أصلا جوزتم تخصيص أحد المثلين على الآخر بغير مخصص وهذا يفسد عليكم اثبات العلم بالصانع وهو المقصود بطريقكم فسلكتم طريقا لم تحصل المقصود من العرفان ، وسلطتم عليكم أهل الضلال والعدوان، كمن أراد أن يغزو العدو بغير طريق شرعى فلا فتح بلادهم ولا حفظ بلاده بل سلطهم حتى صاروا يحاربونه بعد أن كانوا عاجزين عنه .

ولهذا ذم السلف والأئمة أهل الكلام المحدث المخالف للكتاب والسنة إذ كان فيه من الباطل فى الأدلة والأحكام ما أوجب تكذيب بعض ما أخبر به الرسول وتسلط العدو على أهل الإسلام وليس هذا موضع بسط الكلام فى هذه الأمور الكبيرة العظيمة . بل نبهنا عليها تنبيها مختصرا بحسب مايحتمله هذا المقام ، فان الكلام فى مسألة الكلام حير عقول أكثر الأنام الذين ضعفت معرفتهم واتباعهم لما بعث الله به رسله الكرام، ولهم طرق سمعية فى تقريره يطول ذكرها .

(وأما الطرق العقلية) فمن وجوه (أحدها) أن الحى إذا لم يتصف بالكلام لزم اتصافه بضده كالسكوت والخرس وهذه آفة يتنزه الله عنها فتعين اتصافه بالكلام وهذا المسلك يسلكونه فى اثبات كونه سميعا بصيرا أيضا فانه إذا كان حيا ولم يكن سميعا بصيرا لزم اتصافه بضد ذلك من الصمم والعمى .

(الثانى) أن الكلام صفة كمال وهنا من جعله صفة لا تتعلق بمشيئته واختياره جعله كالعلم والقدرة ومن قال إنه يتعلق بمشيئته وقدرته قال كونه متكلما يتكلم إذا شاء صفة كمال ، وقد يقول بطرد ذلك فى كونه فاعلا الأفعال الاختيارية القائمة بنفسه ويجعل هذا كله من صفات الكمال وقد يقول القدرة على ذلك هى صفة الكمال إذ الكمال لايجوز أن يفارق الذات فانه لم يزل ولا يزال كاملا مستحقا لجميع صفات الكمال ، فالقدرة على كونه يقول ما شاء ويفعل ما شاء صفة كمال فالقدرة وحدها غير القدرة مع ما يقترن بها من المقدورية ، وهذا ينبنى على أن ما يقوم به من ذلك هل كله مسبوق بالعدم أو لم يزل ذلك يقوم به ؟ وفيه لهم قولان ، أحدهما أنه مسبوق بالعدم كما تقوله الكرامية وغيرهم .

(والثانى) أنه ليس مسبوقا بالعدم وهو مذهب أكثر أهل الحديث وكثير من أهل الكلام والفقه والتصوف .

(الثالث) أن يقال المخلوق ينقسم إلى متكلم وغير متكلم والمتكلم أكمل من غير المتكلم وكل كمال هو فى المخلوق مستفاد من الخالق فالخالق به أحق وأولى ومن جعله لا يتكلم فقد شبهه بالموات والجماد الذى لا يتكلم وذلك صفة نقص إذ المتكلم أكمل من غيره ، قال تعالى فى ذم من يعبد من لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر (أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) وقال فى الآية الأخرى (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) وقال تعالى (ضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) . فعاب الصنم بأنه أبكم لا يقدر على شىء إذ كان من المعلوم أن العجز عن النطق والفعل صفة نقص فالنطق والقدرة صفة كمال .

والفرق بين هذه الطريق وبين التى قبلها أن هذه استدلال بما فى المخلوق من الكمال على أن الخالق أحق به وأنه يمتنع أن يكون مضاهيا للناقص والأولى أنه مستحق لصفات الكمال من حيث هى هى مع قطع النظر عن كونها ثابتة فى المخلوقات لامتناع النقص عليه بوجه من الوجوه سبحانه وتعالى .

(فصل)

(قال) والدليل على كونه سميعا بصيرا السمعيات (قلت) اثبات كونه سميعا بصيرا وانه ليس هو مجرد العلم بالمسموعات والمرئيات هو قول أهل الاثبات قاطبة من أهل الاثبات قاطبة من أهل السنة والجماعة من السلف والأئمة وأهل الحديث والفقه والتصوف والمتكلمين من الصفاتية كأبى محمد بن كلاب وأبى العباس القلانسى وأبى الحسن الأشعرى وأصحابه وطائفة من المعتزلة البصريين بل قدماؤهم على ذلك ويجعلونه سميعا بصيرا لنفسه كما يجعلونه عالما قادرا لنفسه . واثبات ذلك كاثبات كونه متكلما بل هو أقوى من بعض الوجوه فان المعتزلة البصريين يثبتون مدركا مثل كونه عليما قديرا بخلاف كونه متكلما فانه من باب كونه خالقا .

وللناس فى اثبات كونه سميعا بصيرا طرق (أحدها) السمع كما ذكره وهو ما فى الكتاب والسنة من وصفه بأنه سميع بصير ولا يجوز أن يراد بذلك مجرد العلم بما يسمع ويرى لأن الله فرق بين العلم وبين السمع والبصر . وفرق بين السمع والبصر وهو لا يفرق بين علم وعلم لتنوع المعلومات قال تعالى (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) وفى موضع آخر (انه سميع عليم) قال تعالى « فان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم) ذكر سمعه لأقوالهم وعلمه ليتناول باطن أحوالهم وقال لموسى وهرون (انني معكما أسمع وأرى) وفى السنن عن النبى ﷺ أنه قرأ على المنبر (ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل أن الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا) ووضع ابهامه على أذنه وسبابته على عينه . ولا ريب أن مقصوده بذلك تحقيق الصفة لا تمثيل الخالق بالمخلوق . فلو كان السمع والبصر العلم لم يصح ذلك .

(الطريق الثانى) انه لو لم يتصف بالسمع والبصر لاتصف بضد ذلك وهو العمى والصمم كما قالوا مثل ذلك فى الكلام وذلك لأن المصحح لكون الشىء سميعا بصيرا متكلما هو الحياة فاذا انتفت الحياة امتنع اتصاف المتصف بذلك فالجمادات لا توصف بذلك لانتفاء الحياة فيها وإذا كان المصحح هو الحياة كان الحى قابلا لذلك فان لم يتصف به لزم اتصافه باضداده بناء على ان القابل للضدين لا يخلو من اتصافه بأحدهما إذ لو جاز خلو الموصوف عن جميع الصفات المتضادات لزم وجود عين لا صفة لها وهو وجود جوهر بلا عرض يقوم به .

وقد علم بالاضطرار امتناع خلو الجواهر عن الأعراض وهو امتناع خلو الأعيان والذات عن الصفات وذلك بمنزلة أن يقدر القدر جسما لا متحركا ولا ساكنا ولا حيا ولا ميتا ولا مستديرا ولا ذا جوانب ولهذا أطبق العقلاء من أهل الكلام والفلسفة وغيرهم على إنكار زعم تجويز وجود جوهر خال عن جميع الأعراض وهو الذى يحكى عن قدماء الفلاسفة من تجويز وجود مادة خالية عن جميع الصور ويذكر هذا عن شيعة أفلاطون وقد رد ذلك عليهم أرسطو وأتباعه . وقد بسطنا الكلام فى الرد على هؤلاء

فى غير هذا المـــوضع وبينا أن ما يدعيه شـيعة أفلاطون من اثبات مادة فى الخارج خالية عن جميع الصور ومن اثبات خلاء موجود غير الأجسام وصفاتها ومن اثبات المثل الافلاطونية وهو اثبات حقائق كلية خارجة عن الذهن غير مقارنة للأعيان الموجودة المعينة فظنوها ثابتة فى الخارج عن أذهانهم كما ظن قدماؤهم الفيثاغورية ان العدد أمر موجود فى الخارج بل وما ظنه أرسطو وشيعته من اثبات مادة فى الخارج مغايرة للجسم المحسوس وصفاته واثبات ماهيات كلية للاعيان مقارنة لأشخاصها فى الخارج هو أيضا من باب الخيال حيث اشتبه عليه ما فى الذهن بما فى الخارج وفرق بين الوجود والماهية فى الخارج ..

وأصل ذلك أن الماهية فى غالب اصطلاحهم اسم لما يتصور فى الأذهان والوجود اسم لما يوجد فى الأعيان والفرق بين ما فى الذهن وما فى الخارج لا ينازع فيه عاقل فهمه لـكنهم بعدها ظنوا أن فى الخارج ماهية للشيء الموجود مغايرة للشخص الموجود فى الخارج ..

وهذا غلط ما فى النفس سواء سمى وجودا ذهنيا أو ماهية ذهنية أو غير ذلك هو مغاير لما فى الخارج سواء سمى ذلك وجودا أو ماهية أو غير ذلك . وأما أن يقال ان فى الخارج فى الجوهر المعين الموجود كالانسان مثلا جوهرين أحدهما ماهية والآخر وجوده فهذا باطل كبطلان قولهم ان فيه جوهرين أحدهما مادته والآخر صورته وكقولهم انه مركب من الحيوانية والناطقية فان الحيوانية والناطقيـة ان أرادوا إنها جوهران وهما الحيوان والناطق فالشخص المعين هو الحيوان وهو الناطق وليس هنا شخصان أحدهما حيوان والآخر ناطق وان أرادوا نفس الحياة والنطق فهذان صفتان قائمتان بالانسـان وصفة الموصـــوف قائمة به قيام العرض بالجوهر والجوهر لا يتركب من أعراضه القائمـة به ولا يكون وجود أعراضه سابقا لذاته والـكلام على هذا مبسـوط فى غير هذا الموضع .

(والمقصود هنا) ان أرسطو وأتباعه وأمثاله من أهل الفلسفة أنـكروا على من جوز منهم وجود مادة بلا صورة فهم مع أصنـاف أهل الـكلام وسائر العقلاء

متفقون على امتناع خلو الجسم عن جميع الصفات والأعراض : وإن جوز ذلك الصالحى ابتداء فلم يجوزه دواما ، والجمهور منعوه ابتداء ودواما ، وإن ما تنازع الناس فى استلزامه لجميع أجناس الأعراض ، فقيل إنه لابد أن يقوم به من الأعراض المتضادة واحد منها ، وما لاضد له لابد أن يقوم به واحد من جنسه . وهذا قول الأشعرى ومن اتبعه ، وقيل لابد أن يقوم به الأكوان وهى الحركة أو السكون والاجتماع والافتراق ويجوز خلوه عن غيرها وهو قول البصريين من المعتزلة ، وقيل يجوز خلوه عن الأكوان دون الألوان . . كما يذكر الكعبي وأتباعه من البغداديين منهم وهؤلاء قد يتنازعون فى قبول الشيء من الأجسام بكثير من الأعراض ويتفقون على امتناع خلو الجسم عن العرض وضده بعد قبوله له ، وذلك لأن خلو الموصوف عن الضدين اللذين لا ثالث لهما مع قبوله لهما ممتنع فى المعقول، وبهذا يتبين أن الحى القابل للسمع والبصر والكلام ، إما أن يتصف بذلك وإما أن يتصف بضده وهو الصمم والبكم والخرس ، ومن قدر خلوه عنهما فهو مشابه للقرامطة الذين قالوا لايوصف بأنه حى ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز ، بل قالوا لايوصف بالايجاب ولا بالسلب ، فلا يقال هو حى عالم ولايقال ليس بحى عالم ، ولا يقال هو عليم قدير ولا يقال ليس بقدير عليم ، ولا يقال هو متكلم مريد ، ولا يقال ليس بمتكلم مريد .

قالوا لأن فى الاثبات تشبيها بما تثبت له هذه الصفات وفى النفى تشبيه له بما ينفى عنه هذه الصفات ، وقد قاربهم فى ذلك من قال من متكلمة الظاهرية كابن حزم أن أسماء الحسنى كالحى والعليم والقدير بمنزلة أسماء الأعلام التى لا تدل على حياة ولا علم ولا قدرة وقال ولا فرق بين الحى وبين العليم ، وبين القدير فى المعنى أصلا ومعلوم أن مثل هذه المقالات سفسطة فى العقليات وقرمطة فى السمعيات فانا نعلم بالاضطرار الفرق بين الحى والقدير والعليم والملك والقدوس والغفور .

وإن العبد إذا قال رب اغفرلى وتب على إنك أنت التواب الغفور كان قد أحسن فى مناجاة ربه .. وإذا قال اغفرلى وتب على إنك أنت الجبار المتكبر الشديد العقاب لم يكن محسنا فى مناجاته . . وأن الله أنكر على المشركين الذين امتنعوا من تسميته بالرحمن

فقال تعالى (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) وقال تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) وقال تعالى (كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) وقال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) .

ومعلوم أن الأسماء إذا كانت أعلاماً وجامدات لا تدل على معنى لم يكن فرق فيها بين اسم واسم فلا يلحد أحد فى اسم دون اسم ولا ينكر عاقل اسما دون اسم بل قد يمتنع عن تسميته مطلقا ولم يكن المشركون يمتنعون عن تسمية الله بكثير من أسمائه وإنما امتنعوا عن بعضها وأيضا فالله له الأسماء الحسنى دون السوآى وإنما يتميز الاسم الحسن عن الاسم السيء بمعناه فلو كانت كلها بمنزلة الأعلام الجامدات التى لا تدل على معنى لم تنقسم إلى حسنى وسوآى بل هذا القائل لو سمى معبوده بالميت والعاجز والجاهل بدل الحى والعالم والقادر لجاز ذلك عنده .

فهذا ونحوه قرمطة ظاهرة من هؤلاء الظاهرية الذين يدعون الوقوف مع الظاهر وقد قالوا بنحو مقالة القرامطة الباطنية فى باب توحيد الله وأسمائه وصفاته مع ادعائهم الحديث ومذهب السلف وانكارهم على الأشعرى وأصحابه أعظم انكار . ومعلوم ان الأشعرى وأصحابه أقرب إلى السلف والأئمة ومذهب أهل الحديث فى هذا الباب من هؤلاء بكثير . وأيضا فهم يدعون انهم يوافقون أحمد بن حنبل ونحوه من الأئمة فى مسائل القرآن والصفات وينكرون على الأشعرى وأصحابه والأشعرى وأصحابه أقرب إلى أحمد ابن حنبل ونحوه من الأئمة فى مسائل القرآن والصفات منهم تحقيقا وانتسابا . أما تحقيقا فمن عرف مذهب الأشعرى وأصحابه ومذهب ابن حزم وأمثاله من الظاهرية فى باب الصفات تبين له ذلك وعلم هو وكل من فهم المقالتين ان هؤلاء الظاهرية الباطنية أقرب إلى المعتزلة بل إلى الفلاسفة من الأشعريه .

وان الأشعرية أقرب إلى السلف والأئمة وأهل الحديث منهم وأيضا فان امامهم داود وأكابر أصحابه كانوا من المثبتين للصفات على مذهب أهل السنة والحديث ولكن من

أصحابه كانوا من المثبتين للصفات على مذهب أهل السنة والحديث ولكن من أصحابه طائفة سلكت مسلك المعتزلة وهؤلاء وافقوا المعتزلة فى مسائل الصفات وان خالفوهم فى القدر والوعيد . وأما الانتساب فانتساب الأشعرى وأصحابه إلى الامام أحمد خصوصا وسائر أئمة أهل الحديث عموما ظاهر مشهور فى كتبهم كلها .

وما فى كتب الأشعرى مما يوجد مخالفا للامام أحمد وغيره من الأئمة فيوجد فى كلام كثير من المنتسبين إلى أحمد كأبى الوفاء بن عقيل وأبى الفرج ابن الجوزى وصدقه ابن الحسين وأمثالهم ما هو أبعد عن قول أحمد والأئمة من قول الأشعرى وأئمة أصحابه ومن هو أقرب إلى أحمد والأئمة من مثل ابن عقيل وابن الجوزى ونحوهما كأبى الحسن التميمى وابنه أبى الفضل التميمى وابن ابنه رزق الله التميمى ونحوهم وأئمة أصحاب الأشعرى كالقاضى أبى بكر بن الباقلانى وشيخه أبى عبد الله بن عبد الله بن مجاهد وأصحابه كأبى على بن شاذان وأبى محمد بن اللبان بل وشيوخ شيوخه كأبى العباس القلانسى وأمثاله . بل والحافظ أبو بكر البيهقى وأمثاله أقرب إلى السنة من كثير من أصحاب الأشعرى المتأخرين الذين خرجوا عن كثير من قوله إلى قول المعتزلة أو الجهمية أو الفلاسفة .

فان كثيرا من متأخرى أصحاب الأشعرى خرجوا عن قوله إلى قول المعتزلة أو الجهمية أو الفلاسفة إذ صاروا واقفين فى ذلك كما سننبه عليه .

وما فى هذا الاعتقاد المشروح هو موافق لقول الواقفة الذين لا يقولون بقول الأشعرى وغيره من متكلمة أهل الاثبات وأهل السنة والحديث والسلف بل يثبتون ما وافقه عليه المعتزلة البصريون فان المعتزلة البصريين يثبتون مافى هذا الاعتقاد ولكن الاشعرى وسائر متكلمة أهل الاثبات مع أئمة السنة والجماعة يثبتون الرؤية ويقولون القرآن غير مخلوق ويقولون : إن الله حى بحياة عالم بعلم قادر بقدرة ، وليس فى هذا الاعتقاد شىء من هذا الاثبات .

وقد رأيت اعتقادا مختصرا لصاحب مصنف هذا الاعتقاد المشروح وهو مشهور بالعلم والحديث وهو فى الظاهر أشعرى عند الناس ورأيت اعتقاده على هذا النمط ذكر فيه

أن الله متكلم آمر ناه كما يوافق عليه المعتزلة ، ولم يذكر أن القرآن غير مخلوق ولا أثبت الرؤية بل جعلها مما تتأول وكان يميل إلى الجهمية الذين ناظروا أحمد بن حنبل، وسائر أئمة السنة فى مسألة القرآن ويرجح جانبهم ، وحكى عنهم ذم وسب لأحمد بن حنبل وهو بنى اعتقاده وركبه من قول الجهمية ومن قول الفلاسفة القائلين بقدم العقول والنفوس وهو من جنس القول المضاف إلى ديمقراطيس وليس هذا مذهب الأشعرية بل هم متفقون على أن القرآن غير مخلوق وعلى أن الله يرى فى الآخرة ، وإن قيل إن فى ذلك تدليسا أو خطأ أو غير ذلك ، فليس المقصود هنا تصويب قائل معين ولا تخطئه ولا بيان ما فى مقالته من الخطأ والصواب وموافقة السلف ومخالفتهم . بل أن يعلم مقالة كل كل شخص على حقيقتها .

ثم الحق يجب اتباعه بما أقام الله عليه من البرهان . ثم هذا الاعتقاد المشروح مع أنه ليس فيه زيادة على اعتقاد المعتزلة البصريين فاعتقاد المعتزلة البصريين خير منه فان فى هذا المعتقد من اعتقاد المتفلسفة فى التوحيد ما لا يرضاه المعتزلة . كما نبهنا عليه فيما تقدم وبيناه أن ما ذكره من التوحيد ودليله هو مأخوذ من أصول الفلاسفة وأنه من أبطل الكلام، وهذه الجمل نافعة فان كثيرا من الناس ينتسب إلى السنة أو الحديث أو اتباع مذهب السلف أو الأئمة أو مذهب الامام أحمد أو غيره من الأئمة أو قول الاشعرى أو غيره ويكون فى أقواله ما ليس بموافق لقول من انتسب إليهم .

فمعرفة ذلك نافعة جدا كما تقدم فى الظاهرية الذين ينتسبون إلى الحديث والسنة حتى أنكروا القياس الشرعى المأثور عن السلف والأئمة ودخلوا فى الكلام الذى ذمه السلف والأئمة حتى نفوا حقيقة أسماء الله وصفاته وصاروا مشابهين للقرامطة الباطنية بحيث تكون مقالة المعتزلة فى أسماء الله أحسن من مقالتهم فهم مع دعوى الظاهر يقرمطون فى توحيد الله وأسمائه .

وأما السفسطة فى العقليات فظاهرة فانه من المعلوم بصريح العقل امتناع ارتفاع نقيضين جميعا وانه لا واسطة بين النفى والاثبات فمن قال انه لا يصف الرب بالاثبات فلا يقول انه حى عليم قدير ولا يصفه بالنفى فلا يقول ليس بحى عليم قدير فقد امتنع عن

النقيضين جميعا والامتناع عن النقيضين كالجمع بين النقيضين فان النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان . وهذا مما رأيته قد اعتمد عليه أئمة القرامطة كصاحب (كتاب الاقاليد الملكوتية أبى يعقوب السجستانى) فانهم قالوا نحن لم نجمع بين النقيضين .

فنقول انه حى وليس بحى بل رفعنا النقيضين فقلنا لا موصوف ولا لاموصوف (قال هذا القرمطى المصنف) الذى رأيته من أفضل هؤلاء القرامطة (الاقليد العاشر) فى أن من عبد الله بنفى الصفات والحدود لم يعبده حق عبادته إذ عبادته واقعة لبعض المخلوقين فان قوما من الأوائل وجماعة من فرق الاسلام لم يعبدوا الله حق عبادته ولم يعرفوه بحقيقة المعرفة فقالوا ان الله غير موصوف ولا محدود ولا منعوت ولا مرئى ولا فى مكان وتوهموا ان هذا المقدار تمجيد لله عز وجل وتعظيم له وانهم قد تخلصوا من الشرك والتشبيه وإذا هم قد وقعوا فى الحيرة والتيه لأنهم لما نفوا الصفات والحدود والنعوت عن البارى -تقدست عظمته- لئلا يكون بينه وبين خلقه مشابهة ولا مماثله فنحن نسألهم بعد عن الموصوف والمحدود والمنعوت من خلقه أهو الصفة والحد والنعت أم الموصوف غير صفته والمحدود غير حده والمنعوت غير نعته .

فان قالوا إن الصفة هى الموصوف والحد هو المحدود والنعت هو المنعوت لزمهم أن يقولوا إن السواد هو الاسود والبياض هو الأبيض . وان قالوا الموصوف غير صفته والمنعوت غير نعته والمحدود غير حده وهو أعنى الموصوف والمحدود والمنعوت جميعا مخلوق هذا الخالق الذى نزهتموه عن الصفة والحد والنعت أشركتم الخالق بالمخلوق الذى هو الصفة والحد والنعت فى باب أنها غير الموصوف عندكم وإن جاز أن يشارك المخلوق الخالق فى وجه من الوجوه لم لا يجوز أن يشاركه فى جميع الوجوه قال فاذاً من عبد الله بنفى الصفات واقع فى التشبيه كما ان من عبده بسمة الصفات واقع فى التشبيه الجلى .

ثم أخذ يرد على المعتزلة لكن رده عليهم ما أثبتوه من الحق واحتج عليهم بما وافقوه فيه من النفى فانه بهذا الطريق تمكنت القرامطة الزنادقة الملاحدة من افساد دين الإسلام حيث احتجوا على كل مبتدع بما وافقهم عليه من البدعة من النفى والتعطيل وألزموه لازم قوله حتى قرروا التعطيل المحض قال القرمطى ومن أعظم ماأتت به طائفة من

أهل هذه النحلة فى إقامة رأيهم من أن المبدع سبحانه غير موصوف ولا منعوت أنهم أثبتوا له الأسامى التى لا تتعرى عن الصفات والنعوت فقالوا إنه سميع بالذات بصير بالذات عالم بالذات وتفوا عنه السمع والبصر والعلم ولم يعلموا أن هذه الأسامى إذا لزمت ذاتا من الذوات لزمته الصفات التى من أجلها وقعت الأسامى ؛ إذ لو جاز أن يكون عالما بغير علم ، أو سميعا بغير سمع أو بصيرا بغير بصر لجاز أن يكون الجاهل مع عدم العلم عالما ، والأعمى مع فقد البصر بصيرا والأصم مع غيبوبة السمع سميعا ، فلما لم يجز ما وصفناه صح أن العالم إنما صار عالما لوجود العلم والبصير لوجود البصر ، والسميع لوجود السمع . قال فان قال قائل منهم :

إنما نفينا عن البصير البصر إذ كان اسم البصير متوجها نحو ذات الخالق لأنا هكذا شاهدنا أن من كان اسمه البصير لزمه من أجل البصر أن يجوز عليه العمى ، ومن كان اسمه السميع يلزمه من أجل السمع أن يجوز عليه الصمم ، ومن كان اسمه العالم يلحقه من أجل العلم أن يجوز عليه الجهل .

والله تعالى لا يلحق به الجهل والعمى والصمم فنفينا عنه مايلزم بزواله ضده . يقال له ليس علة وجوب العمى البصر ، ولا علة وجوب الصمم السمع ولا علة وجوب الجهل العلم ولو كانت العلة فيه ماذكرناه كان واجبا أنه متى وجد البصر وجد العمى أو متى وجد السمع وجد الصمم ، أو متى وجد العلم وجد الجهل ، فلما وجد البصر فى بعض ذوى البصر من غير ظهور عمى به ووجد السمع كذلك فى بعض ذوى السمع من غير وجود صمم يتبعه ووجد العلم فى بعضهم من غير وجود جهل به صح أن العلة فى ظهور الجهل والصمم والعمى ليس هو العلم والسمع والبصر ، بل فى قبول إمكان الآفة فى بعض ذوى العلم والسمع والبصر والله تعالى ذكره ليس بمحل الآفات ولا الآفات بداخلة عليه فهو إذا كان اسم العالم والسميع والبصير يتوجه نحو ذاته ذا علم وسمع وبصر فتعالى الله عما أضاف إليه الجهلة المفترون من هذه الأسامى بأنها لازمة له لزوم الذوات بل هذه الأسامى مما تتوجه نحو الحدود المنصوبة من العلوى والسفلى والروحانى والجسمانى لمصلحة العباد تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

قال ويقال لهم ان كان الاستشهاد الذى استشهدتموه صحيحاً فان الاستشهاد الآخر

الذي لايفارق الاستشهاد الأول مثله فى باب الصحة لأنكم إن كنتم هكذا شاهدتم أن من كان عالما من أجل علمه أو سميعا من أجل سمعه أو بصيراً من أجل بصره جازعليه الجهل والعمى والصمم ، فنحن كذلك شاهدنا أن من كان عالما فان العلم سابقه ، ومن كان بصيرا كان البصر قرينه ، ومن كان سميعا كان السمع شهيده ، فان جاز لكم أن تتعدوا حكم الشاهد على الغائب فى أحدهما فتقولوا جاز أن يكون فى الغائب عالم بغير علم وبصير بغير بصر وسميع بغير سمع جاز لنا أن نتعدى حكم الشاهد على الغائب فى الباب الآخر فنقول انا وإن كنا لم نشاهد عالما بعلم إلا وقد جاز عليه الجهل ، وبصيرا بالبصر إلا وقد جاز عليه العمى وسميعا بالسمع إلا وقد جاز عليه الصمم أن يكون فى الغائب عالم بعلم لا يجوز عليه الجهل وبصير بالبصر لا يجوز عليه العمى وسميع بالسمع لا يجوز عليه الصمم وإلا فما الفصل . ولا سبيل لهم إلى التفصيل بين الاستشهادين فاعرفه .

فليتدبر المؤمن العليم كيف الزم هؤلاء الزنادقة الملاحدة المنافقون الذين هم أكفر من اليهود والنصارى ومشركى العرب للمعتزلة ونحوهم من نفاة الصفات نفى أسماء الله الحسنى وأن تكون أسماؤه الحسنى لبعض المخلوقات فيكون المخلوق هو المسمى بأسمائه الحسنى كقولهم فى الأول والآخر والظاهر والباطن أن الظاهر هو محمد الناطق والباطن هو على الأساس ومحمد هو الأول وعلى هو الآخر . وتأويلهم قوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) أن اليد الواحدة هو محمد والأخرى على . وقوله تعالى (تبت يدا أبى لهب) أن يديه هما أبو بكر وعمر لكونهما كانا مع أبى لهب فى الباطن فأمرها بقتل النبى صلى الله عليه وسلم فعجزا عن ذلك ، فأنزل الله (تبت يدا أبى لهب) وأمثال هذه التاويلات المعروفة عن القرامطة وأصل كلامهم استدلالهم بما يزعمونه من نفى التشبيه وإلزامهم لكل من وافقهم على شىء من النفى بطرد مقالته واتباع لوازمها ولازمها التعطيل الذى يقصدونه .

قال القرمطى وأيضا فمن نزه خالقه عن الصفة والحد والنعت ولم يجرده عما لا صفة له ولا حد ولا نعت فقد أثبته بما لم يجرده عنه وإذا كان إثباته لمعبوده بنفى الصفة والحد والنعت فقد كان إثباته مهملا غير معروف لأن مالا صفة له ولا حد ولا نعت ليس هو

الله بزعمه فقط بل هو والنفس والعقل وجميع الجواهر البسيطة من الملائكة وغيرهم .

والله تعالى أثبت من أن يكون اثباته مهملا غير معلوم ، فاذا الاثبات الذى يليق بمجد المبدع ولا يلحقها الاهمال هو نفى الصفة ونفى ان لا صفة ونفى الحد ونفى ان لا حد لتبقى هذه العظمة لمبدع العالمين إذ لا يحتمل أن يكون معه لمخلوق شركة فى هذا التقديس وامتنع أن يكون الاثبات من هذه الطريق مهملا فاعرفه . قال فان قال ان من شريطة القضايا المتناقضة أن يكون أحد طرفيها صدقا والآخر كذبا فقولكم لا موصوفة ولا لاموصوفة قضيتان متناقضتان لابد لاحداهما من أن تكون صادقة والأخرى كاذبة .

يقال له غلطت فى معرفة القضايا المتناقضة وذلك ان القضايا المتناقضة أحد طرفى النقيض منه موجب والآخر سالب فان كانت القضية كلية موجبة كان نقيضها جزئية سالبة كقولنا كل إنسان حى وهو قضية كلية موجبة نقيضة لا كل إنسان حى .

فلما كان من شرط النقيض من انه لا بد من أن يكون أحد طرفيها موجبة والآخر سالبة رجعنا إلى قضيتنا فى المبدع هل نجد فيها هذه الشريطة فوجدناها فى كلتا طرفيها لم يوجب له شيئا بل كلتا طرفيها سالبتان وهى قولنا لاموصوف ولا لاموصوف فهى إذا لم يناقض بعضها بعضا وإنما تتناقض القضية فى هذا الموضع أن نقول له صفة وأن ليس له صفة أو ان نقول له حد وان لا حد له أو انه فى مكان وانه لا فى مكان ، فيلزمنا حينئذ اثبات لاجتماع طرفى النقيض على الصدق . فاما إذا كانت القضيتان سالبتين إحداهما سلب الصفة اللاحقة بالجسمانيين والأخرى نفى الصفة اللازمة للروحانيين كان من ذلك تجريد الخالق عن سمات المربوبين وصفات المخلوقين . قال فقد صح أن من نزه خالقه عن الصفة والحد والنعت واقع فى التشبيه الخفى كما أن من وصفه وحده ونعته واقع فى التشبيه الجلى . قلت فهذا حقيقة مذهب القرامطة وهو قد رد على من وصفه منهم بالنفى دون الاثبات ونفى النفى قال لأن فى الاثبات تشبيها له بالجسمانيين وفى النفى تشبيها له بالروحانيين وهى العقول والنفوس عندهم انها موصوفة عندهم بالنفى دون الاثبات ولهذا يقولون : بسائط ليس فيها تركيب عقلى من الجنس والفصل كما انه ليس فيها تركيب الأجسام .

وظن هذا الملحد وأمثاله انهم بذلك خلصوا من الالزامات ومعلوم عند من عرف

حقيقة قولهم ان هذا القول من أفسد الأقوال شرعا وعقلا وأبعدها عن مذاهب المسلمين واليهود والنصارى بل مع ما قد حققوه من الفلسفة وعرفوه من مذهب أهل الكلام وادعوه من العلوم الباطنة ومعرفة التأويل ودعوى العصمة فى أئمتهم .وقد قرروا انا لا نقول الجمع بين النقيضين ، فليس فى قولنا محال . فيقال لهم ولكن سلبتم النقيضين جميعا وكما أنه يمتنع الجمع بين النقيضين فيمتنع الخلو من النقيضين ، فالنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ولهذا كان المنطقيون يقسمون الشرطية المنفصلة إلى مانعة الجمع ومانعة الخلو ، ومانعتى الجمع والخلو . فالمانعة من الجمع والخلو كقول القائل الشيء إما أن يكون موجودا واما أن يكون معدوما واما أن يكون ثابتا واما أن يكون منفيا ، فتفيد الاستثناآت الأربعة لكنه موجود فليس بمعدوم أو هو معدوم فليس بموجود أو ليس بموجود فهو معدوم أو ليس بمعدوم فهو موجود وكذلك ما كان من الاثبات بمنزلة النقيضين كقول القائل : هذا العدد إما شفع وإما وتر ، فكونه شفعا ووترا لا يجتمعان ولا يرتفعان وهؤلاء ادعوا اثبات شيء يخلو عنه النقيضان فان جوزوا خلوه عن النقيضين جاز اجتماع النقيضين فيه . وهذا مذهب أهل الوحدة القائلين بوحدة الوجود كصاحب الفصوص وابن سبعين وابن أبى المنصور وابن الفارض والقونوى وأمثالهم فان قولهم وقول القرامطة من مشكاة واحدة . والاتحادية قد يصرحون باجتماع النقيضين .

وكذلك يذكرون مثل هذا عن الحلاج . والحلاج لما دخل بغداد كانوا ينادون عليه : هذا داعى القرامطة وكان يظهر للشيعة انه منهم ودخل على ابن نوبخت رئيس الشيعة ليتبعه فطالبه بكرامات عجز عنها . ومقالات أهل الضلال كلها تستلزم الجمع بين النقيضين أو رفع النقيضين جميعا ، لكن منهم من يعرف لازم قوله فيلتزمه ومنهم من لا يعرف ذلك وكل أمرين لا يجتمعان ولا يرتفعان فهما فى المعنى نقيضان لكن هذا ظاهر فى الوجود والعدم .

وقول مثبتة الحالين الذين يقولون لا موجودة ولا معدومة هو شعبة من مذهب القرامطة وإنما التحقيق إنها ليست موجودة فى الأعيان ولا منتفية فى الأذهان .

ومن الأمور الثبوتية ما يكونان بمنزلة الوجود والعدم كقولنا ان العدد إما شفع

وإما وتر وقولنا ان كل موجودين إما أن يقترنا فى الوجود أو يتقدم أحدهما على الآخر وكل موجود إما قائم بنفسه واما قائم بغيره وكل جسم إما متحرك وإما ساكن واما حى واما ميت ، وكل حى اما عالم واما جاهل ، واما قادر واما عاجز ، واما سميع واما أصم واما أعمى واما بصير . بل وكذلك كل موجودين فاما أن يكونا متجانسين. واما أن يكونا متباينين وأمثال هذه القضايا .

وكل من رام سلب هذين جميعا كان من جنس القرامطة الرافعة للنقيضين لكن التناقض قد يظهر باللفظ كما إذا قلنا إما أن يكون واما أن لا يكون وقد يظهر بالمعنى كما إذا قلنا اما قديم بنفسه واما قائم بغيره وهذا كله مبسوط فى غير هذا الموضع . بل وقد زدنا فى جواب السائل عما هو مقصوده لكن نبهنا على أصول نافعة جامعة .

(الطريق الثالث) لأهل النظر فى اثبات السمع والبصر ان السمع والبصر من صفات الكمال فان الحى السميع البصير أكمل من حى ليس بسميع ولا بصير كما أن الموجود الحى أكمل من موجود ليس بحى والموجود العالم أكمل من موجود ليس بعالم وهذا معلوم بضرورة العقل وإذا كانت صفة كمال فلو لم يتصف الرب بها لكان ناقصا والله منزه عن كل نقص . وكل كمال محض لا نقص فيه فهو جائز عليه وما كان جائزا عليه من صفات الكمال فهو ثابت له فانه لو لم يتصف به لكان ثبوته له موقوفا على غير نفسه فيكون مفتقرا إلى غيره فى ثبوت الكمال له وهذا ممتنع إذا لم يتوقف كمال إلا على نفسه فيلزم من ثبوت نفسه ثبوت الكمال لها وكل ما ينزه عنه فانه يستلزم نقصا يجب تنزيهه له . وأيضا فلو لم يتصف بهذا الكلام لكان السميع البصير من مخلوقاته أكمل منه .

ومن المعلوم فى بداية العقول ان المخلوق لا يكون أكمل من الخالق إذ الكمال لا يكون إلا بأمر وجودى والعدم المحض ليس فيه كمال وكل موجود للمخلوق فالله خالقه ويمتنع أن يكون الوجود الناقص مبدعا وفاعلا للوجود الكامل إذ من المستقر فى بداية العقول ان وجود العلة أكمل من وجود المعلول دع وجود الخالق البارى الصانع فانه من المعلوم بالاضطرار انه أكمل من وجود المخلوق المصنوع المفعول .

وقد بسطنا الكلام على مثل هذه الطريقة فى غير هذا الموضع وبينا أن الله سبحانه

وتعالى يستعمل فى حقه قياس الأولى كما جاء بذلك القرآن وهو الطريق التى كان يسلكها السلف والأئمة كأحمد وغيره من الأئمة فكل كمال ثبت للمخلوق فالخالق أولى به وكل نقص ينزه عنه مخلوق فالخالق أولى أن ينزه عنه كما قال تعالى « ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم » وقال تعالى « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون . للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم » وقوله تعالى : « ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون » .

وذلك لأن صفات الكمال أمور وجودية أو أمور سلبية مستلزمة لأمور وجودية كقوله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » . فنفى السنة والنوم استلزم كمال صفة الحياة والقيومية وكذلك قوله «وما ربك بظلام للعبيد » استلزم ثبوت العدل وقوله تعالى : « لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء » استلزم كمال العلم ونظائر ذلك كثيرة . وأما العدم المحض فلا كمال فيه وإذا كان كذلك، فكل كمال لا نقص فيه بوجه ثبت للمخلوق فالخالق أحق به من وجهين :

أحدهما ان الخالق الموجود الواجب بذاته القديم أكمل من المخلوق القابل للعدم المحدث المربوب .

الثانى ان كل كمال فيه فانما استفاده من ربه وخالقه فاذا كان هو مبدعا للكمال وخالقا له كان من المعلوم بالاضطرار ان معطى الكمال وخالقه ومبدعه أولى بأن يكون متصفا به من المستفيد المبدع المعطى وقد قال الله تعالى «ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه اينما يوجهه لا يأت بخير . هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » .

وهذا المثل وان كان يفيد الدعاء إلى عبادة الله وحده دون عبادة ما سواه ونفى عبادة الأوثان لوجود هذا الفرقان . فاذا علم انتفاء التساوى بين الكامل والناقص وعلم ان الرب أكمل من خلقه وجب أن يكون أكمل منهم وأحق منهم بكل كمال بطريق الأولى والأحرى .

(الطريق الرابع فى اثبات السمع والبصر والكلام) ان نفى هذه الصفات نقائص مطلقا سواء نفيت عن حى أو جماد وما انتفت عنه هذه الصفات لا يجوز أن يحدث عنه شىء ولا يخلقه ولا يجيب سائلا ولا يعبد ولايدعى كما قال الخليل (ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ) وقال إبراهيم لقومه (هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) وقال تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين) وقال تعالى (فقال هذا إلهكم وإله موسى فنسى أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) .

وهذا لأنه من المستقر فى الفطر ان ما لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم لا يكون ربا معبودا كما أن ما لا يغنى شيأ ولا يهدى ولايملك ضرا ولا نفعا لا يكون ربا معبودا ومن المعلوم ان خالق العالم هو الذى ينفع عباده بالرزق وغيره ويهديهم وهو الذى يملك أن يضرهم بأنواع الضرر فان هذه الأمور من جملة الحوادث التى يحدثها رب العالمين فلو قدر انه ليس محدثا لها كانت حادثة بغير محدث أو كان محدثها غيره ، وإذا كان محدثها غيره فالقول فى احداث ذلك الغير كالقول فى سائر الحوادث فلا بد أن تنتهى إلى قديم لا محدث ولذلك من المستقر فى العقول ان مالا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم ناقص عن صفات الكمال لأنه لا يسمع كلام أحد ولا يبصر أحدا ولا يأمر بأمر ولا ينهى عن شىء ولا يخبر بشىء فان لم يكن كالحى الأعمى الأصم كان بمنزلة ما هو شر منه وهو الجماد الذى ليس فيه قبول أن يسمع ويبصر ويتكلم ونفى قبول هذه الصفات أبلغ فى النقص والعجز وأقرب إلى اتصاف المعدوم ممن يقبلها واتصف باضدادها إذ الإنسان الأعمى أكمل من الحجر والإنسان الأبكم أكمل من التراب ونحو ذلك مما لا يوصف بشىء من هذه الصفات وإذا

كان نفى هذه الصفات معلوما بالفطرة انه من أعظم النقائص والعيوب وأقرب شبها بالمعدوم كان من المعلوم بالفطرة ان الخالق أبعد عن هذه النقائص والعيوب من كل ما ينفى عنه وان اتصافه بهذه العيوب من أعظم الممتنعات . وهذه الطريق ليست الثانية ولا الثالثة فان الثانية مبنية على أنه حى فلا بد من اتصافه بها أو بضدها . والثالثة مبنية على انها صفات كمال فيجب اتصاف الرب بها وأما هذه فمبنية على أن نفى هذه الصفات نقائص ومعايب ومذام يمتنع وصف الرب بها . والله سبحانه وتعالى أعلم .

(فصل)

(ثم قال المصنف والدليل على نبوة الأنبياء المعجزات والدليل على نبوة محمد ﷺ القرآن المعجز نظمه ومعناه) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذه الطريقة هى من أتم الطرق عند أهل الكلام والنظر حيث يقررون نبوة الأنبياء بالمعجزات ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح لتقرير نبوة الأنبياء لكن كثير من هؤلاء بل كل من بنى إيمانه عليها يظن أن لا نعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات .ثم لهم فى تقرير دلالة المعجزة على الصدق طرق متنوعة وفى بعضها من التنازع والاضطراب ما سننبه عليه. والتزم كثير من هؤلاء انكار خرق العادات لغير الأنبياء حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر ونحو ذلك .

وللنظار هنا طرق متعددة منهم من لا يجعل المعجزة دليلا بل يجعل الدليل استواء ما يدعو إليه وصحته وسلامته من التناقض كما يقوله طائفة من النظار . ومنهم من يوجب تصديقه بدون هذا وهذا . ومنهم من يجعل المعجزة دليلا ويجعل أدلة أخرى غير المعجزة وهذا أصح الطرق ومن لم يجعل طريقها إلا المعجزة اضطر لهذه الأمور التى فيها تكذيب لحق أو تصديق لباطل ولهذا كان السلف والأئمة يذمون الكلام المبتدع فان أصحابه يخطئون . إما فى مسائلهم وإما فى دلائلهم فكثيراً ما يثبتون دين المسلمين فى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله على أصول ضعيفة بل فاسدة ويلتزمون لذلك لوازم يخالفون بها السمع الصحيح والعقل الصريح وهذا حال الجهمية من المعتزلة وغيرهم حيث أثبتوا حدوث العالم بحدوث الأجسام وأثبتوا ذلك بحدوث صفاتها التى هى الأعراض فاضطرهم ذلك إلى القول بحدوث كل موصوف فنفوا عن الله الصفات وقالوا بأن القرآن

مخلوق وأنه لا يرى في الآخرة وقالوا إنه لا مباين ولا محايث وأمثال ذلك من مقالات النفاة التي تستلزم التعطيل كما قد بسطناه في غير هذا الموضع . وليس الأمر كذلك بل معرفتها بغير المعجزات ممكنة فان المقصود إنما هو معرفة صدق مدعى النبوة أو كذبه فانه إذا قال إنى رسول الله فهذا الكلام إما أن يكون صدقا وإما أن يكون كذبا . وان شئت قلت هذا خبر فإما أن يكون مطابقا للمخبر وإما أن يكون مخالفا له سواء كانت مخالفته له على وجه العمد أو الخطأ إذ قد يظن الرجل في نفسه أو غيره أنه رسول الله غير متعمد للكذب بل خطأ وضلال مثل كثير ممن يتمثل له الشيطان ويقول إنى ربك ويخاطبه بأشياء وقد يقول له أحللت لك ماحرمت على غيرك وأنت عبدى ورسولى وأنت أفضل أهل الأرض . وأمثال هذه الأكاذيب فان مثل هذا قد وقع لكثيرمن الناس . فاذا كان مدعى الرسالة لم يكن صادقا فلا بد أن يكون كاذبا عمدا أو ضلالا فالتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما هو دون دعوى النبوة فكيف بدعوى النبوة .

ومعلوم أن مدعى الرسالة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم وإما أن يكون من أنقص الخلق وأرذلهم ولهذا قال أحد أكابر ثقيف للنبي صلى الله عليه وسلم لما بلغهم الرسالة ودعاهم إلى الاسلام : والله لا أقول لك كلمة واحدة ان كنت صادقا فأنت أجل في عينى من أن أرد عليك وان كنت كاذبا فأنت أحقر من أن أرد عليك فكيف يشتبه أفضل الخلق وأكملهم بأنقص الخلق وأرذلهم . وما أحسن قول حسان .

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تأتيك بالخبر

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز

وما من أحد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر لمن له أدنى تمييز فان الرسول لابد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور ولا بد أن يفعل أمورا .

والكذاب يظهر فى نفس ما يأمر به ويخبر عنه ، وما يفعله مايبين به كذبه من وجوه كثيرة ، والصادق يظهر فى نفس ما يأمر به وما يخبر عنه ويفعله مايظهر به صدقه من وجوه كثيرة بل كل شخصين ادعيا أمراً من الأمور أحدهما صادق فى دعواه والآخر كاذب فلا بد أن يبين صدق هذا وكذب هذا من وجوه كثيرة ، إذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور كما فى الصحيحين عن ابن مسعود عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « عليكم بالصدق فان الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب فان الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

ولهذا قال تعالى : (قل هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون) بين سبحانه أنه ليس بكاهن تنزل عليه الشياطين ولا شاعر حيث كانوا يقولون ساحر وشاعر . فبين أن الشياطين تنزل على الكاذب الفاجر يلقون إليهم السمع وأكثرهم كاذبون فهؤلاء الكهان ونحوهم وإن كانوا يخبرون أحيانا بشىء من الغيبيات ويكون صدقا فمعهم من الكذب والفجور مايبين أن الذى يخبرون به ليس عن ملك وليسوا بأنبياء .

ولهذا لما قال النبى صلى الله عليه وسلم لابن صياد : قد خبأت لك خبيئا . قال هو الدخ ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم « إخسأ فلن تعدو قدرك » يعنى إنما أنت كاهن كما قال للنبى صلى الله عليه وسلم : يأتينى صادق وكاذب ، وقال أرى عرشا على الماء ، وذلك هو عرش الشيطان كما ثبت مثل ذلك فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وبين الله تعالى أن الشعراء يتبعهم الغاوون . والغاوى الذى يتبع هواه وشهوته ، وإن كان ذلك مضرا له فى العاقبة قال تعالى : (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون) فهذه صفة الشعراء كما أن تلك صفة من تنزل عليه الشياطين ، فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله علم علما يقينا أنه ليس بشاعر ولا كاهن ولا كاذب . والناس

يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة حتى فى المدعين للصناعات والمقالات كالفلاحة والنساجة والكتابة وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك ، فما من أحد يدعى العلم بصناعة أو مقالة إلا والتفريق فى ذلك بين الصادق والكاذب له وجوه كثيرة ، وكذلك من أظهر قصدا وعملا كمن يظهر الديانة والأمانة والنصيحة والمحبة وأمثال ذلك من الأخلاق فانه لابد أن يتبين صدقه وكذبه من وجوه متعددة .

والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها وهى أشرف العلوم وأشرف الأعمال ، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب ولا يتبين صدق الصادق ، وكذب الكاذب من وجوه كثيرة لا سيما والعالم لايخلو من آثار نبى من لدن آدم إلى زماننا وقد علم جنس ماجاءت به الأنبياء والمرسلون وما كانوا يدعون إليه ويأمرون به ولم تزل آثار المرسلين فى الأرض ولم يزل عند الناس من آثار الرسل مايعرفون به جنس ماجاءت به الرسل ويفرقون به بين الرسل وغير الرسل .

فلو قدر أن رجلا جاء فى زمان إمكان بعث الرسل وأمر بالشرك وعبادة الأوثان ، وإباحة الفواحش والظلم والكذب ، ولم يأمر بعبادة الله ولا بالإيمان باليوم الآخر ، هل كان مثل هذا يحتاج أن يطالب بمعجزة أو يشك فى كذبه أنه نبى ، ولو قدر أنه أتى بما يظن أنه معجزة لعلم أنه من جنس المخاريق أو الفتن والمحنة ، ولهذا لما كان الدجال يدعى الإلهية لم يكن ما يأتى به دالا على صدقه للعلم بأن دعواه ممتنعة فى نفسها وإنه كذاب وكذلك من نشأ فى بنى إسرائيل معروفا بينهم بالصدق والبر والتقوى بحيث قد خبر خبرة باطنة يعلم منها تمام عقله ودينه ، ثم أخبر بأن الله نبأه وأرسله إليهم فان هذا لا يكون أولى بالرد من أن يخبرنا الرجل الذى لا يشك فى عقله ودينه وصدقه إنه رأى رؤيا .

وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه تنازع الناس فى أن خبر الواحد هل يجوز أن يقترن به من القرائن والضمائم مايفيد معه العلم ولا ريب أن المحققين من كل طائفة على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه الضرورى بخبر المخبر ، بل القرائن وحدها قد تفيد العلم الضرورى كما يعرف الرجل رضاء الرجل وغضبه

وحبه وبغضه وفرحه وحزنه ، وغير ذلك مما فى نفسه بأمور تظهر على وجهه قد لا يمكنه التعبير عنها كما قال تعالى (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم) ثم قال (ولتعرفنهم فى لحن القول) فاقسم أنه لا بد أن يعرف المنافقين فى لحن القول وعلق معرفتهم بالسيما على المشيئة لأن ظهور مافى نفس الإنسان من كلامه أبين من ظهوره على صفحات وجهه وقد : قيل ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه . فاذا كان مثل هذا يعلم به مافى نفس الإنسان من غير إخبار فاذا اقترن بذلك أخباره كان أولى بحصول العلم ولا يقول عاقل من العقلاء :إن مجرد خبر الواحد أو خبر كل واحد يفيد العلم بل ولا خبر كل خمسة أو عشرة ، بل قد يخبر الف أو أكثر من ألف ويكونون كاذبين . إذ كانوا متواطئين ، وإذا كان صدق المخبر أو كذبه يعلم بما يقترن به من القرائن بل فى لحن قوله وصفحات وجهه ويحصل بذلك علم ضرورى لا يمكن المرء أن يدفعه عن نفسه فكيف بدعوى المدعى انه رسول الله ؟ كيف يخفى صدقه وكذبه أم كيف لا يتميز الصادق فى ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة لا تعد ولا تحصى ؟ وإذا كان الكاذب إنما يأتى من وجهين إما أن يتعمد الكذب وإما أن يلبس عليه كمن يأتيه الشيطان فمن المعلوم الذى لا ريب فيه ان من الناس من يعلم منه انه لا يتعمد الكذب بل كثير ممن خبره الناس وجربوه من شيوخهم ومعامليهم يعلمون منهم علما قاطعا انهم لا يتعمدون الكذب وان كانوا يعلموا أن ذلك ممكن فليس كل ما علم امكانه جوز وقوعه فانا نعلم أن الله قادر على قلب الجبال ياقوتا والبحار دما ونعلم انه لا يفعل ذلك ونعلم من حال البشر من حيث الجملة انه يجوز أن يكون أحدهم يهوديا ونصرانيا ونحو ذلك . ونعلم من حال البشر من حيث الجملة انه يجوز أن يكون أحدهم يهوديا ونصرانيا ونحو ذلك ونعلم مع هذا ان هذا لم يقع بل ولا يقع من الأشخاص وان من أخبرنا بوقوعه منهم كذبناه قطعا .

ونحن لا ننكر أن الرجل قد يتغير ويصير متعمد الكذب بعد أن لم يكن كذلك لكن إذا استحال وتغير ظهر ذلك لمن يخبره ويطلع على أموره .

ولهذا لما كانت خديجة رضى الله عنها تعلم من النبى ﷺ انه الصادق البار قال لها لما

جاءه الوحى «إنى قد خشيت على عقلى» فقالت: كلا والله لا يخزيك الله انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتكسب المدوم وتعين على نوائب الحق. فهو لم يخف من تعمد الكذب فانه يعلم من نفسه صلى الله عليه وسلم انه لم يكذب لكن خاف، فى أول الأمر أن يكون قد عرض له عارض سوء وهو المقام الثانى فذكرت خديجة ماينفى هذا وهو ما كان مجبولا عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال وهو الصدق، المستلزم للعدل والاحسان إلى الخلق ومن جمع فيه الصدق والعدل والاحسان لم يكن مما يخزيه الله، وصلة الرحم وقرى الضيف وحمل الكل واعطاء المدوم والاعانة على نوائب الحق هى من أعظم أنواع البر والاحسان وقد علم من سنة الله ان من جبله الله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة فانه لا يخزيه. وأيضا فالنبوة فى الآدميين هى من عهد آدم عليه السلام فانه كان نبيا وكان بنوه يعلمون نبوته وأحواله بالاضطرار.

وقد علم جنس ما يدعو إليه الرسل وجنس أحوالهم فالمدعى للرسالة فى زمن الامكان إذا أتى بما ظهر به مخالفته للرسل علم انه ليس منهم.

وإذا أتى بما هو من خصائص الرسل علم انه منهم لا سيا إذا علم انه لا بد من رسول منتظر. وعلم أن لذلك الرسول صفات متعددة تميزه عمن سواه فهذا قد يبلغ بصاحبه إلى العلم الضرورى بأن هذا هو الرسول المنتظر ولهذا قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون).

(والمسلك الأول) النوعى هو مما استدل به النجاشى على نبوته فانه لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرؤه عليه قال: ان هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. وكذلك قبله ورقة بن نوفل لما أخبره النبى ﷺ بما رآه وكان ورقة قد تنصر وكان يكتب الانجيل بالعبرانية، فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ما يقول فأخبره النبى ﷺ بخبره فقال: هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى وان قومك سيخرجونك فقال النبى ﷺ أو مخرجى هم؟ فقال نعم لم يأت أحد بمثل ما جئت به الاعودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ثم لم ينشب ورقة أن توفى.

(والمسلك الثانى الشخصى) استدل به هرقل ملك الروم فإن النبى ﷺ لما كتب

إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام طلب هرقل من كان هنا من العرب وكان أبو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى غزة فطلبهم وسألهم عن أحوال النبي ﷺ فسأل أبا سفيان وأمر الباقين ان كذب أن يكذبوه فصار بجدهم موافقين له في الاخبار . فسألهم هل كان في آبائه ملك ؟ فقالوا لا .. وهل قال هذا القول أحد قبله قالوا لا .. وسألهم أهو ذو نسب فيكم ؟ قالوا نعم . وسألهم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فقالوا لا ما جربنا عليه كذبا وسألهم هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم فذكروا ان الضعفاء اتبعوه . وسألهم هل يزيدون أم ينقصون ؟ فذكروا انهم يزيدون . وسألهم هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه فقالوا لا . وسألهم هل قاتلتموه قالوا نعم . وسألهم عن الحرب بينهم وبينه فقالوا يدال علينا المرة وندال عليه الأخرى . وسألهم هل يغدر فذكروا أنه لايغدر . وسألهم بماذا يأمركم فقالوا يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيء وينهانا عما كان يعبد أباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة ، فهذه أكثر من عشر مسائل .

ثم بين لهم ما في هذه المسائل من الدلالة وانه سألهم عن أسباب الكذب وعلاماته فرآها منتفية . وسألهم عن علامات الصدق فوجدها ثابتة . فسألهم هل كان في آبائه ملك فقالوا لا . قال قلت فلو كان في آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك هل قال هذا القول فيكم أحد قبله ، فقلت لا . فقلت لو قال هذا القول أحد قبله لقلت رجل ائتم بقول قيل قبله .ولا ريب ان اتباع الرجل لعادة آبائه واقتدائه بمن كان قبله كثيرا ما يكون في الآدميين بخلاف الابتداء بقول لم يعرف في تلك الأمة قبله ، وطلب أمر لا يناسب حال أهل بيته ، فان هذا قليل في العادة لكنه قد يقع .

ولهذا أردفه بقوله : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فقالوا لا ، قال فقد علمت انه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله ، وذلك ان مثل هذا يكون كذبا محضا يكذبه لغير عادة جرت ، وهذا لا يفعله إلا من يكون من شأنه أن يكذب ، فاذا لم يكن من خلقه الكذب قط بل لم يعرف منه إلا الصدق وهو يتورع أن يكذب على الناس كان تورعه عن أن يكذب على الله اولى وأحرى [illegible]

قد يخرج عن عادته فى نفسه إلى عادة بنى جنسه . فاذا انتفى هذا وهذا كان هذا أبعد عن الـكذب وأقرب إلى الصدق .

ثم أردف ذلك بالسؤال عن علامات الصدق فقال : وسألتكم : أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم ؟ فقلتم ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل . قال فهذه علامات من علامات الرسل وهو اتباع الضعفاء له ابتداء ، قال الله تعالى حكاية عن قوم نوح : « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » وقالوا « ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى » وقال تعالى فى قصة صالح : « وقال الملأ الذين استكبروا للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون » وقال تعالى فى قصة شعيب : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين * قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين »

ثم قال هرقل: وسألتكم أيزيدون أم ينقصون فقلتم بل يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتكم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه فقلتم لا ، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحـد ، فسألهم عن زيادة أتباعه ودوامهم على اتباعه ، فاخبروه أنهم يزيدون ويدومون ، وهذا من علامات الصدق والحق ، فان الـكذب والباطل لابد أن ينكشف فى آخر الأمر ، فيرجع عنه أصحابه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه .

ولهذا أخبرت الأنبياء المتقدمون أن المتنبىء الـكذاب لا يدوم إلا مدة يسيرة ، وهذه من بعض حجج ملوك النصارى الذين يقال إنهم من ولد قيصر ، هذا أو غيرهم حيث رأى رجلا يسب النبى ﷺ من رؤس النصارى ويرميه بالـكذب ، فجمع علماء النصارى وسألهم عن المتنبىء الـكذاب كم تبقى نبوته؟ فاخبروه بما عندهم من النقل عن الأنبياء : إن الـكذاب المفترى لا يبقى إلا كذا وكذا سنة لمدة قريبة ، إما ثلاثين سنة أو نحوها ،

فقال لهم هذا دين محمد له أكثر من خمسمائة سنة أو ستمائة سنة وهو ظاهر مقبول متبوع فكيف يكون هذا كذابا ، ثم ضرب عنق ذلك الرجل .

وسألهم هرقل عن محاربته ومسالمته فاخبروه أنه فى الحرب تارة يغلب كما غلب يوم بدر ، وتارة يغلب كما غلب يوم أحد وإنه إذا عاهد لايغدر ، فقال لهم : وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه ، فقلتم إنها دول يدال علينا المرة وندال عليه الأخرى ، وكذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لها ، قال : وسألتكم هل يغدر فقلتم إنه لايغدر ،وكذلك الرسل لا تغدر ، فهو لما كان عنده من علمه بمادة الرسل وسنة الله فيهم أنه تارة ينصرهم وتارة يبتليهم وأنهم لا يغدرون ، علم أن هذا من علامات الرسل فان سنة الله فى الأنبياء والمؤمنين أنه يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا درجة الشكر والصبر كما فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « والذى نفسى بيده لايقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له .

وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن أن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له ، والله تعالى قد بين فى القرآن مافى إدالة العدوعليهم يوم أحد من الحكمة فقال : ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين * إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) .

فمن الحكم تمييز المؤمن عن غيره ، فانهم إذا كانوا دائما منصورين لم يظهر لهم وليهم وعدوهم إذ الجميع يظهرون الموالاة فاذا غلبوا ظهر عدوهم قال تعالى : (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو دافعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان * يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون * الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما ماتوا وما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين)وقال تعالى: (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) إلى قوله (ومن الناس من يقول آمنا بالله

فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين . وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) وقال تعالى : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) وأمثال ذلك .ومن الحكم أن يتخذ منكم شهداء فان منزلة الشهادة منزلة علية فى الجنة، ولا بد من الموت فموت العبد شهيداً أكمل له وأعظم لأجره وثوابه ويكفر عنه بالشهادة ذنوبه وظلمه لنفسه والله لايحب الظالمين .

ومن ذلك أن يمحص الله الذين آمنوا فيخلصهم من الذنوب فانهم إذا انتصروا دائما حصل للنفوس من الطغيان وضعف الإيمان ما يوجب لها العقوبة والهوان ، قال تعالى : (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) وقال تعالى : (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) وفى الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تقيمها الرياح تقومها تارة وتميلها أخرى ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لاتزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة .

وسئل صلى الله عليه وسلم أى الناس أشد بلاء ؟ فقال : الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان فى دينه رقة خفف عنه وإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ولا يزال البلاء بالمؤمن فى نفسه وأهله وماله ، حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة .

وقد قال تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » وقال تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) . وفى الأثر فيما روى عن الله تعالى « ياابن آدم البلاء يجمع بينى وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك » ، وفى الأثر أيضا « انهم إذا قالوا للمريض اللهم ارحمه يقول الله كيف أرحمه من شىء به أرحمه » ، وقد شهدنا ان العسكر إذا انكسر خشع لله وذل وتاب إلى الله من الذنوب وطلب النصر من الله وبرىء من حوله وقوته متوكلا

على الله ولهذا ذكرهم الله بحالهم يوم بدر وبحالهم يوم حنين فقال «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون» وقال تعالى: (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ وضاقت عليكم الأرض بما رحبت، ثم وليتم مدبرين * ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين).

وشواهد هذا الأصل كثيرة. وهو أمر يجده الناس بقلوبهم ويخشونه ويعرفونه من أنفسهم ومن غيرهم وهو من المعارف الضرورية الحاصلة بالتجربة لمن جربها والاخبار المتواترة لمن سمعها. ثم ذكر حكمة أخرى فقال: (ويمحق الكافرين) وذلك ان الله سبحانه إنما يعاقب الناس بأعمالهم، والكافر إذا كانت له حسنات أطعمه الله بحسناته فى الدنيا، فاذا لم تبق له حسنة عاقبه بكفره والكفار إذا أديلوا يحصل لهم من الطغيان والعدوان وشدة الكفر والتكذيب ما يستحقون به المحق ففى إدالتهم ما يمحقهم الله به وأما الغدر فان الرسل لا تغدر أصلا إذ الغدر قرين الكذب كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ انه قال «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان» وفى الصحيحين أيضا عن النبى ﷺ «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا اؤتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر». (قلت) الغدر ونحوه داخل فى الكذب كما قال تعالى «ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون».

وقال تعالى: (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون).

فالغدر يتضمن كذبا فى المستقبل والرسل صلوات الله عليهم منزهون عن ذلك

فكان هذا من العلامات . قال وسألتك بما يأمركم فذكرت انه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم وهذه صفة نبي وقد كنت أعلم ان نبيا يبعث ولم أكن أظن أنه منكم ولوددت أني أخلص إليه ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه وإن يكن ما يقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين وكان المخاطب بذلك أبو سفيان بن حرب وهو حينئذ كافر من أشد الناس بغضا وعداوة للنبي ﷺ قال أبو سفيان فقلت لأصحابي ونحن خروج لقد أمر أمر ابن أبي كبشة انه يخافه ملك بني الأصفر وما زلت موقنا بأن أمر رسول الله ﷺ سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام ، وأنا كاره . (قلت) فمثل هذا السؤال والبحث أفاد هذا العاقل اللبيب علما جازما بان هذا هو النبي الذى ينتظره .

وقد اعترض على هذا بعض من لم يدرك غور كلامه وسؤاله كالرازى ونحوه ، وقال انه بمثل هذا لا تعلم النبوة ، وإنما تعلم بالمعجزة ، وليس الأمر على ما قال ، بل كل عاقل سليم الفطرة إذا سمع هذا السؤال والبحث علم انه من أدل الأمور على عقل السائل وخبرته واستنباطه ما يتميز به هل هو صادق أو كاذب ، وأنه بهذه الأمور تميز له ذلك ، ومما ينبغي أن يعرف ان ما يحصل فى القلب لمجموع أمور قد يستقل بعضها به ، بل كل مايحصل للانسان من شبع ورى وسكر وفرح وغم بأمور مجتمعة لايحصل ببعضها لكن بعضها قد يحصل بعض العلم .

وكذلك العلم بمجرد الاخبار وبما جربه من المجربات وبما فى نفس الإنسان من الأمور فان الخبر الواحد يحصل فى القلب نوع ظن ثم الآخر يقويه إلى أن ينتهى إلى العلم حتى يتزايد فيقوى وكذلك ما يجربه الإنسان من الأمور وما يراه من أحوال الشخص .

وكذلك ما يستدل به على كذبه وصدقه . وأيضا فان الله سبحانه وتعالى أبقى فى العالم الآثار الدالة على مافعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة وما فعله بمكذبيهم من العقوبة وذلك أيضا معلوم بالتواتر كتواتر الطوفان واغراق فرعون وجنوده .

والله تعالى كثيرا ما يذكر ذلك فى القرآن كقوله « وان يكذبوك فقد كذبت

قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير . وكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ». وقال تعالى: «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص * ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) وقال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب) إلى قوله تعالى (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق . ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب) إلى قوله سبحانه (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) إلى قوله تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله فاذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون) إلى قوله تعالى (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان كاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون)

ولما ذكر فى سورة الشعراء قصص الأنبياء نبيا بعد نبى كقصة موسى وابراهيم ونوح ومن بعده يقول فى آخر كل قصة (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين • وإن ربك لهو العزيز الرحيم) كقوله تعالى (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون • قال كلا إن معى ربى سيهدين • فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم • وأزلفنا ثم الآخرين • وأنجينا موسى ومن معه

أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم)

وكذلك قال فى آخر كل قصة إلى أن قال فى قصة شعيب (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وقال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) وقال تعالى فى قوم شعيب (فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين . وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحه ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم مايدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وقال تعالى (ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون)

فهو سبحانه يذكر ماظهر للموحدين من مساكنهم التى كانت حول أهل مكة فان عامة من قص الله نبأه من الرسل وأممهم بعثوا حول مكة كهود باليمن وصالح بالحجر من ناحية الشام وابراهيم وموسى وعيسى ويونس ولوط وأنبياء بنى إسرائيل بأرض الشام ومصر والجزيرة وما يليها من العراق .

وقال تعالى لما قص قصة قوم لوط (فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن فى ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لسبيل مقيم . إن فى ذلك لآية للمؤمنين . وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم وإنهما

لبإمام مبين) وقال تعالى (وإن لوطا لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزاً فى الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون) (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) .

وقال تعالى (ألم ترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول) . وقال تعالى (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) وقال تعالى (قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) وقال تعالى (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا ياأولى الأبصار) .

وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون . حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب . ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

ومثل هذا فى القرآن متعدد فى غير موضع يذكر الله تعالى قصص رسله ومن آمن بهم وما حصل لهم من النصر والسعادة وحسن العاقبة وقصص من كفر بهم وكذبهم وما حصل لهم من البلاء والعذاب وسوء العاقبة وهذا من أعظم الأدلة والبراهين على صدق الرسل وبرهم وكذب من خالفهم وفجوره ثم إنه سبحانه بين أن ذلك يعلم بالبصر أو السمع أو بهما . فالبصر والمشاهدة لمن رآهم أو رأى آثارهم الدالة عليهم كمن شاهد

أصحاب الفيل وما أحاط بهم ومن شاهد آثارهم بأرض الشام واليمن والحجاز وغير ذلك كآثار أصحاب الحجر وقوم لوط ونحو ذلك .

والسمع فبالأخبار التي تفيد العلم كتواتر الأخبار بما جرى في قصة موسى وفرعون ، وغرق فرعون في القلزم ، وكذلك تواتر الأخبار بقصة الخليل مع النمروذ وتواتر الأخبار بقصة نوح وإغراق أهل الأرض وأمثال ذلك من الأخبار المتواترة عند أهل الملل وغير أهل الملل مع أن في بعض قصص من تواترت به هذه الأخبار مايحصل العلم بخبرهم . واشتراك البصر والسمع كما يشاهد بعض الآثار من تواتر الاخبار ، ومما يبين الحال كما نشاهد السفن ويعلم بالخبر أن ابتداءها كان سفينة نوح كما قال تعالى (أو لم يروا أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله مايركبون) وقوله تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) وكذلك نشاهد أرض الحجور وما فيها من البيوت المنقورة في الجبال ونعلم بالخبر تفصيل الحال وأمثال ذلك.

« وبالجملة » فالعلم بأنه كان في الأرض من يقول بأنهم رسل الله وإن أقواما اتبعوهم وأن أقواما خالفوهم ، وأن الله نصر الرسل والمؤمنين وجعل العاقبة لهم ، وعاقب أعداءهم ، هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها ، ونقل هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار ملوك الفرس والعرب في جاهليتها ، وأخبار اليونان وعلماء الطب والنجوم والفلسفة اليونانية كبقراط وجالينوس وبطليموس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعه ، فكل عاقل يعلم أن نقل أخبار الأنبياء وأتباعهم ينقلها من أهل الملل من لايحصى عدده إلا الله ويدونونها في الكتب وأهلها من أعظم الناس تديناً بوجوب الصدق وتحريم الكذب، ففي المادة المشتركة بينهم وبين سائر بني آدم مايمنع اتفاقهم وتواطأهم على الكذب ، بل مايمنع اتفاقهم على كتمان ماتتوفر الهمم والدواعي على نقله ، وفي عادتهم الخاصة ودينهم الخاص برهان آخر أخص من الأول وأكمل ، وهذا معلوم على سبيل التفصيل من حال أمتنا فانا نعلم علما ضروريا بالنقل المتواتر من عادة سلف الأمة ودينهم الموجب للصدق والبيان المانع من الكذب والكتمان مايوجب علما ضروريا لنا بما تواتر لنا عنهم وبانتفاء أمور لو كانت موجودة لنقلوها ، وأهل الكتابين قانا عندهم من التواتر بجمل الامور مايحصل

به المقصود فى هذا الموضع ، وإن كان قد يجيء كذب أو كتمان فى بعض التفاصيل من أهل الكتابين قبلنا ، وفى بعض أمتنا فهذا هو أقل بكثير مما يقع من الكذب والكتمان بأخبار الفرس واليونان والهند وغيرهم ممن ينقل أخبار ملوكهم وعلمائهم ونحو ذلك ، وما من عاقل يسمع الخبر عن هؤلاء وعن هؤلاء ، كما هو موجود فى هذا الزمان فى الكتب والألسنة الا ويحصل له من العلوم الضرورية بأحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم أعظم مما يحصل من العلوم بأحوال ملوك الفرس والروم وعلمائهم وأوليائهم وأعدائهم . وهذا بين ولله الحمد .

ولولا أن هذا الجواب إنما كان القصد به الكلام على هذه العقيدة المختصرة لكان البسط لى فى هذا الموضع أولى من ذلك . فان هذه المقامات تحتمل بسطا عظيما لكن نبهنا على مقدمات نافعة فان أكثر أهل الكلام مقصرون فى حجج الاستدلال على تقرير مايجب تقريره من التوحيد والنبوة تقصيرا كثيراً جدا كما أنهم كثيراً ما يخطئون فيما يذكرونه من المسائل ومن لا يعرف الحقائق يظن أن ماذكروه هو الغاية فى أصول الدين. والنهاية فى دلائله ومسائله فيورثه ذلك مخالفة الكتاب والسنة بل وصريح العقل فى مواضع ويورثه استضعافا لكثير من أصولهم وشكا فيما ذكروه من أصول الدين واسترابة بل قد يورثه ترجيحا لأقوال من يخالف الرسل من متفلسفة وصابئين ومشركين ونحوهم حتى يبقى فى الباطن منافقا زنديقا ، وفى الظاهر متكلما يذب عن النبوات .

ولهذا قال أحمد وغيره ممن قال من السلف : علماء الكلام زنادقة ، وما ارتدى أحد بالكلام إلا كان فى قلبه غل على أهل الاسلام لأنهم بنوا أمرهم على أصول فاسدة أوقعتهم فى الضلال . وليس هذا موضع بسط هذا . وقد بسطناه فى غير هذا الموضع .

(والمقصود هنا) أن طرق العلم بالرسالة كثيرة جداً متنوعة ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر أحوال الانبياء وأوليائهم وأعدائهم علمنا علما يقينا أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة (منها) أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم أخباراً كثيرة فى أمور كثيرة وهى كلها صادقة لم يقع فى شيء منها تخلف ولا غلط بخلاف من يخبر به من ليس متبعا لهم ممن تنزل عليه الشياطين أو يستدل على ذلك بالأحوال الفلكية وغيره .

(وهؤلاء) لا بد أن يكونوا كثيرا بل الغالب من أخبارهم الكذب وان صدقوا أحيانا (ومن ذلك) أن ما أحدثه الله تعالى من نصرهم واهلاك عدوهم إذا عرف الوجه الذى حصل عليه كحصول الغرق لفرعون وقومه بعد أن دخل البحر خلف موسى وقومه كان هذا مما يورث علما ضروريا ان الله تعالى أحدث هذا نصرا لموسى عليه السلام وقومه ونجاة لهم وعقوبة لفرعون وقومه ونكالا لهم وكذلك أمر نوح والخليل عليهما السلام وكذلك قصة الفيل وغير ذلك .

(ومن الطرق أيضا) أن من تأمل ما جاء به الرسل عليهم السلام فيما أخبرت به وما أمرت به علم بالضرورة أن مثل هذا لا يصدر إلا عن أعلم الناس وأصدقهم وأبرهم وأن مثل هذا يمتنع صدوره عن كاذب متعمد للكذب مفتر على الله يخبر عنه بالكذب الصريح أو مخطىء جاهل ضال يظن أن الله تعالى أرسله ولم يرسله وذلك لأن فيما أخبروا به وما أمروا به من الأحكام والاتقان وكشف الحقائق وهدى الخلائق وبيان ما يعلمه العقل جملة ويعجز عن معرفته تفصيلا ما يبين أنهم من العلم والمعرفة والخبرة فى الغاية التى باينوا بها أعلم الخلق ممن سواهم فيمتنع أن يصدر مثل ذلك عن جاهل ضال وفيها من الرحمة والمصلحة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم ما يبين أن ذلك صدر عن راحم بار يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق وإذا كان ذلك يدل على كمال علمهم وكمال حسن قصدهم ، فمن تم علمه وتم حسن قصده امتنع أن يكون كاذبا على الله يدعى عليه هذه الدعوى العظيمة التى لا يكون أفجر من صاحبها إذا كان كاذبا متعمدا ولا أجهل منه ان كان مخطئا .

(وهذه الطريق) تسلك جملة فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتفصيلا فى حق واحد واحد بعينه فيستدل المستدل بما يعلمه من الحق والخير جملة على علم صاحبه وصدقه ثم يستدل بعلمه وصدقه على ما لم يعلمه تفصيلا والعلم بجنس الحق والباطل والخير والشر والصدق والكذب معلوم بالفطرة والعقل الصريح بل جمل ذلك مما اتفق عليه بنو آدم ، ولذلك يسمى ذلك معروفا ومنكرا ، فاذا علم أنه فيما علم الناس أنه حق وأنه خير هو أ[...] منهم به وأنصح الخلق فيه وأصدقهم فيما يقول علم بذلك أنه صادق عالم ناصح لا كاذب ولا جاهل ولا غاش .

(وهذه الطريق) يسلكها كل أحد بحسبه ولا يحتاج فى هذه الطريق إلى أن يعلم أولا خواص النبوة وحقيقتها وكيفيتها بل أن يعلم أنه صادق بار فيما يخبر به ويأمر به ثم من خبره يعلم حقيقة النبوة والرسالة .

(وقد سلك آخرون) من المتكلمين والمتفلسفة والمتصوفة وغيرهم طريقا أخرى تشبه هذه من وجه دون وجه وهو أن يعلم النبوة أولا وأنها موجودة فى بنى آدم وأنهم محتاجون إليها ويعلم صفاتها ثم يعلم عين النبى ﷺ . ثم المتكلمون من المعتزلة وغيرهم يوجبون النبوة على الله تعالى على طريقتهم فى ايجاب ما يوجبونه عليه والمتفلسفة قد يوجبون ذلك على طريقتهم فيما يجب وجوده فى العالم وغيره يوجب ذلك لما علم من عادته فى حكمته ورحمته واعطائه الخلق ما يحتاجون إليه .

(وبالجملة) فيعلمون نوعها فى العالم ثم يعلمون الواحد من الجنس بثبوت حقيقة النوع فيه وهذه الطريقة يسلكها كثير من المتكلمة والمتصوفة والمتفلسفة والعامة وغيرهم ، لكن المتفلسفة كابن سينا وأمثاله أدركوا من النبوة بقدر ما أعطتهم موادهم الفلسفية التى علموا بها أن النبى يكون له كمال القوة العلمية وكمال قوة السمع والبصر وكمال قوة النفس بحيث يعلم ويسمع ويبصر مايقصر غيره عنه ويفعل فى العالم بهمته مايعجز غيره عنه وهؤلاء يجعلون نفس النبوة ثلاثة أمور .

(أحدها) أن تكون له قوة علمية بل نسبة ينال بها العلم من غير تعلم .

(والثانى) أن تكون له قوة خيالية يتخيل بها الحقائق العقلية موجودة خالية مؤتلفة من أجناس منام النائم فيرى فى نفسه ضوأ وذلك هو الرسالة عندهم ويسمع وذلك هو كلام الله عندهم .

(الثالث) أن تكون لنفسه قوة على أن تؤثر فى العالم وهذه الأقوال الثلاثة تحصل لخلق كثير هم دون رتبة الصالحين فضلا عن النبوة ولهذا كانت النبوة عندهم مكتسبة فصار كثير منهم يطلب أن يصير نبيا كما جرى للسهروردى المقتول ولابن سبعين . ولهذا كان ابن سبعين يقول لقد زدت فى حديث قال لا نبى بعد نبى عربى . وهؤلاء يجعلون النبوة إنما هى من جنس واحد وقوة النفس فى العلم والقدرة لكن يقول بينهما من

الفصل بارادة النبي الخير وارادة الساحر الشر ، ويقولون الملك والشيطان قوى لكن قوة الملك قوة صالحة وقوة الشيطان قوة فاسدة . وأما من يقول الملائكة والجن هم جنس واحد لا فرق بينها فى الصفات فهؤلاء يقولون ان هذا القدر يحصل نوع منه لغيرهم من الأولياء ، لكن يحصل لهم ما هو دون ذلك . وهذا على طريقة عقلاء المتفلسفة الذين يفضلون النبي على الفيلسوف والولى كابن سينا وأمثاله .

(وأما غلاتهم) كالفارابى وأمثاله الذين قد يفضلون الفيلسوف على النبي كما يفضل أشباههم كابن عربى الطائى صاحب الفتوحات المكية وفصوص الحكم وغيرهما فانهم يفضلون الولى على النبي .

وكان يدعى انه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى النبي ، وان الملك على أصلهم هو الخيال الذى فى نفس النبي ، والنبي بزعمهم يأخذ عن ذلك الخيال ، والخيال يأخذ عن العقل ، ثم زعم هذا انه يأخذ عن العقل الذى فى هذا الخيال . فلهذا قال انه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك ما يوحى به إلى النبي ، فهؤلاء شاركوهم فى أصل طريقهم لكن عظم ضلالهم وجهلهم بقدر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، مع أن أصل معرفة هؤلاء بقدر النبوة معرفة ناقصة بتراء بل من عرف ما جاءت به الأنبياء وما يذكرونه فى قدر النبوة علم انهم آمنوا ببعض ما جاءت به الرسل وكفروا ببعض ، فكما أن اليهود والنصارى آمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض ، فهؤلاء آمنوا ببعض صفات النبوة وكفروا ببعض . ولهذا قد يكون فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى وقد يكون فى اليهود والنصارى من هو أكفر منهم بحسب ما آمن به كل من هؤلاء بما جاءت به الرسل وما كفروا به .

(وأبو حامد كثيرا ما يسلك هذه الطريق فى كتبه) لكنه لا يوافق المتفلسفة على كل ما يقولونه بل يكفرهم ببعض ويضللهم فى موضع وان كان فى الكتب المضافة إليه ما قد يوافق بعض أصولهم بل فى الكتب التى يقال انها مضنون بها على غير أهلها ما هو فلسفة محضة مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى وان كانت قد عبر عنها بعبارات إسلامية لكن هذه الكتب فى الناس من يقول انها مكذوبة على أبي حامد ومنهم من

يقول بل رجع عنها . ولا ريب أنه صرح فى مواضع ببعض ما قاله فى هذه الكتب وأخبر فى المنقذ من الضلال وغيره من كتبه بما فى ذلك من الضلال . وذكر كيف كان طلبه للعلوم أولا . حتى قال أقبلت بجد بليغ أتأمل فى المحسوسات والضروريات وأنظر هل يمكننى أن أشكك نفسى فيها فانتهى بى طول التسلسل إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات أيضا .

وأخذ يتبع الشك فيها وذكر بعض شبه السوفسطائية فى الحسيات (إلى أن قال) فلما خطر لى هذه الخواطر وانقدحت فى النفس حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر إذ لم يمكن دفعه إلا بدليل ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية . وإذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل فاعضل هذا الداء ودام قريبا من شهرين انا فيها على مذهب السفسطة بحكم الحال . لا بحكم المنطق والمقال . حتى شفى الله تعالى عنى ذلك المرض والاعلال .

وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال . ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمين ويقين . ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدور وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، قال فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة (إلى أن قال) :

والمقصود من هذه الحكاية أن يعلم كمال الجد فى الطلب حتى انتهى إلى طلب ما لا يطلب لأن الأوليات ليست مطلوبة فانها حاضرة والحاضر إذا طلب بعد واختفى (قال) ولما كفانى الله تعالى هذا المرض انحصرت أصناف الطالبين عندى فى أربع فرق (المتكلمون) وهم يدعون انهم أهل الرأى والنظر (والباطنية) وهم يدعون انهم أصحاب التعليم والمخصصون بالاقتباس من الامام المعصوم (والفلاسفة) وهم يزعمون أنهم أصحاب المنطق والبرهان (والصوفية) وهم يدعون انهم خاصة الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة فقلت فى نفسى الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة فهؤلاء السالكون سبيل طالب الحق فان شذ الحق عنهم فلا يبقى فى درك الحق مطمع (إلى أن قال) فابتدأت لسلوك هذه الطرق واستقصاء ما عند هؤلاء الفرق مبتدئاً بعلم الكلام . ومثنياً بطريق

الفلسفة . ومثلنا بتعليمات الباطنيـة . ومرينا بطريق الصوفية قال ثم إنى ابتدأت بعلم الـكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودى وإنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش المبتدعة فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله ﷺ عقيدة هى الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمقدماته القرآن والاخبار ثم ألقى الشيطان فى وساوس المبتدعة أمورا مخالفة للسنة فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة أهل الحق على أهلها .

فأنشأ الله تعالى طائفة من التكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بـكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة على خلاف السنة المأثورة (إلى أن قال) وكان أكثر حرصهم فى استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازمهم ومسلماتهم (إلى أن قال) فلم يكن الـكلام فى حقى كافيا . ولا لدائى الذى أشكوه شافيا (إلى أن قال) فلم يحصل منه ما يمحو بالـكلية ظلمات الحيرة فى اختلافات الخلق . ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيرى بل لا أشك فى حصـــول ذلك لطائفة ولـكن حصولا مشوبا بالتقليد فى بعض الأمور التى ليست من الأوليات (إلى أن) ثم انى ابتدأت بعد الفراغ من علم الـكلام بعلم الفسلفة وعلمت يقينا انه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لايقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم فى أصل العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على مالم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة (إلى أن قال) لم أزل حتى اطلعت على مافيه من خداع وتلبيس وتحقيق وتخييل اطلاعا لم أشك فيه فاستمع الآن حكايته وحكاية حاصل علومهم فانى رأيتهم أصنافا . ورأيت علومهم أقساما .

وهم على كثرة أصنافهم تلزمهم وصمة الـكفر والالحاد وان كان بين القدماء منهم والأقدمين وبين الأواخر منهم والأوائل تفاوت عظيم فى البعد عن الحق والقرب منه .

(ثم قال) اعلم انهم على كثرة فرقهم ينقسمون إلى ثلاثة أقســام (الدهريون) (والطبائعيون) (والالهيون) .

(الصنف الأول) الدهريون وهم طائفة من الأقدميين جحدوا الصانع المدبر العالم

القادر وزعموا ان العالم لم يزل موجودا كذلك ولم يزل الحيوان من نطفة والنطفة من حيوان كذلك كان وكذلك يكون أبدا وهؤلاء الزنادقة .

(الصنف الثانى) الطبيعيون وهم قوم أكثر بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات (إلى أن قال) إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوام قوى الحيوان به فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضا وانها تبطل ببطلان مزاجه فتنعدم ثم إذا انعدمت فلا تعقل اعادة المعدوم كما زعموا فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة وأنكروا الجنة والنار والقيامة والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب . فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا فى الشهوات انهماك الأنعام .

وهؤلاء أيضا زنادقة لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الأخر وان آمنوا بالله تعالى وصفاته .

(والصنف الثالث) الإلهيون وهم المتأخرون مثل سقراط وهو أستاذ أفلاطون وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس وأرسطاطاليس هو الذى رتب لهم المنطق وهذب لهم العلوم وخمر لهم ما لم يكن مخمراً من قبل : وأوضح لهم ما كان أحجى من علومهم وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية وأوردوا فى الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم . وكفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم . ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبله من الالهيين رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم الا انه استبقى أيضا من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها فوجب تكفيرهم وتكفير متبعيهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابى وأمثالهما . على أنه لم يقم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين ومانقله غيرهما ليس يخلو عن تخبيط وتخليط يتشوش فيه.قلب المطالع حتى لا يفهم ومن لا يفهم كيف يرد أو يقبل ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس بحسب نقل هذين الرجلين ينحصر فى أقسام . قسم يجب التكفير به ، وقسم يجب التبديع به . وقسم لا يجب انكاره أصلا فلنفصله .

ثم ذكر انها ستة أقسام رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية وسياسية وخلقية .وتكلم على ذلك بما ليس هذا موضعه . وقد بينا الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع (إلى أن قال) ثم انى لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهيمه وتزييف ما تزيف منه علمت أن ذلك أيضا غير واف بكمال الغرض فان العقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات . ثم ذكر مذهب الباطنية وتلبيسهم وانه ليس معهم شىء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء . ثم هم مع عجزهم عن اقامة البرهان عن تعيين الامام المعصوم صدقناهم فى الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم المعصوم وانه هو الذى عينوه .

ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم وعرضنا عليهم اشكالات فلم يفهموها فضلا عن القيام بحلها فلما عجزوا أحالوا على الامام الغائب وقالوا لا بد من السفر إليه . والعجب انهم ضيعوا عمرهم فى طلب المعلم والتبجح فى الظفر به ولم يتعلموا منه شيأ أصلا كالمتضمخ بالنجاسة يتعب فى طلب الماء فاذا وجد ما يستعمله بقى مضمخا بالنجاسة . ومنهم من ادعى شيأ من علمهم وكان حاصل ما ذكره من ركيك فلسفة فيثاغورس وهو رجل من قدماء الأوائل ومذهبه أول مذاهب الفلاسفة وقد رد عليه ارسطاطاليس بل استدرك كلامه واسترذله وهو المحكى فى كتاب رسائل اخوان الصفا وهو على التحقيق حشو الفلسفة .

فالعجب ممن يتعب طول العمر فى طلب العلم ثم يقنع لمثل ذلك العلم الركيك المستغث ويظن انه ظفر بأقصى مقاصد العلوم فهؤلاء أيضا جربناهم وسبرنا باطنهم وظاهرهم ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم ومجادلتهم فى انكارهم الحاجة إلى التعليم ، بكلام قوى مفحم .حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد .وقال هات علمه وافدنا من تعليمه . وقف فقال الآن إذا سلمت لى هذا فاطلبه فانما غرضى هذا القدر فقط إذ علم انه لو زاد على ذلك لافتضح ولعجز عن حل أدنى المشكلات بل عجز عن فهمه فضلا عن جوابه (قال ثم انى لما فرغت) من هذه أقبلت بهمتى على طريق الصوفية وعلمت أن طريقهم إنما يتم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات

النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله وكان العلم أيسر على من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المنثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم وغير ذلك من كلام المشائخ حتى اطلعت على كثير من مقاصدهم العلمية وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع وظهر لي أن أخص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحا شبعان وبين أن يعرف حد السكر وانه عبارة عن حالة تحصل عن استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة إلى معادن الفكر وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وأركانه وهو سكران وما معه من علمه شيء والطبيب يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شيء والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأدويتها وهو فاقد الصحة .

فكذلك الفرق بين من يعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين من يكون حالة الزهد عزوف النفس عن الدنيا . فعلمت يقينا انهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال وان ما يمكن تحصيله بطريق العلم قد حصلته .

ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالتعلم والسماع بل بالذوق والسلوك وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها . والمسالك التي سلكتها في تفتيشي عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر .

وهذه الأصول الثلاثة كانت رسخت في نفسي بلا دليل محرر بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع في سعادة الآخره إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا والتجافي عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى وان ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال .

(وذكر حاله) في خروجه عن ذلك ومجيئه إلى الشام ثم الحجاز (إلى أن قال)

وانكشف لى فى اثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذى أذكره لينتفع به أنى علمت يقينا ان الصوفية هم السالكون لطرق الله تعالى الخاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشريعة من العلماء ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا ، فان جميع حركاتهم وسكناتهم فى باطنهم وظاهرهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، فليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به (إلى أن قال) ومما بان لى بالضرورة من ممارسة طريقتهم حقيقة النبوة وخاصتها ، ثم تكلم فى حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها .

(فقال اعلم) أن جوهر الإنسان من أول الفطرة خلق خاليا ساذجا لا خبر معه من عوالم الله تعالى ، والعوالم كثيرة لايحصيها إلا الله كما قال سبحانه (وما يعلم جنود ربك إلا هو) ثم ذكر مايدركه بالحواس ثم بالتمييز ثم يترقى فى طور آخر فيخلق له العقل ، فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات وأمورا لا توجد فى الأطوار التى قبله ووراء العقل طور آخر ينفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون فى المستقبل ، وأمور أخرى العقل معزول عنها لعزل قوة الحس عن مدركات التمييز ، وكما أن المميز لو عرض عليه مدركات العقل لأباه واستبعده .

فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة فاستبعدوها وذلك عين الجهل ، إذلا مستند له إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد فى حقه فظن أنه غير موجود فى نفسه والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان والأشكال وحكى له ابتداء لم يفهمها ولم يقربها . وقد قرب الله منها ذلك إلى خلقه بأن أعطاهم أنموذجا من خاصة النبوة وهو النائم إذ النائم لم يدرك ماسيكون فى الغيب إما صريحا وإما فى كرة مثال يكشف عنه التعبير .

وهذا لو لم يجر به الإنسان من نفسه ، وقيل له إن من الناس من يسقط مغشيا عليه كالميت ويزول إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب لا نكره ولأقام البرهان على استحالته (وقال) القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لايدرك الشيء مع وجودها وحضورها ، فبأن لا يدرك مع ركودها أولى .

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة ، فكما أن العقل طور من أطوار الآدمى يحصل فيه عين أخرى يبصر بها أنواعا من المعقولات الحواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضا عبارة عن طور يحصل فيه عين أخرى لها نور يظهر فى نورها الغيب وأمور لا يدركها العقل . والشك فى النبوة إما أن يقع فى إمكانها أو فى وجودها أو وقوعها أو فى حصولها لشخص معين .

ودليل إمكانها وجودها ، ودليل وجودها وجود معارف فى العالم لا يتصور أن تنال بالعقل كعلم الطب والنجوم ، فان من بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهى وتوفيق من جهة الله تعالى ولا سبيل إليه بالتجربة فمن الأحكام النجومية مالا يقع إلا فى كل ألف سنة مرة فكيف ينال ذلك بالتجربة وكذلك خواص الأدوية فتبين بهذا البرهان أن فى الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التى لا يدركها العقل وهو المراد بالنبوة لا أن النبوة عينها فقط بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة وله خواص كثيرة سواها ، وما ذكرناه فقطرة من بحرها ، إنما ذكرناها لأن معك أنموذجا منها وهى مدركاتك فى النوم ، ومعك علوم من جنسها فى الطب والنجوم .

فأما معجزات الأنبياء فلا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلا ، وأما ماعداها من خواص النبوة فانما يدركه بالذوق من سلك طريق التصوف لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ، ولولاه ماصدقت به فان كان للنبى خاصة ليس لك منها أنموذج فلا تفهمها أصلا فكيف تصدق بها وإنما التصديق بعد التفهيم وذلك الأنموذج يحصل فى أول طريق التصوف فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه فهذه الخاصة الواحدة تكفيك للايمان بأصل النبوة ، فان وقع لك الشك فى شخص معين أنه نبى أم لا فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع فانك إذا عرفت الطب والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم إن لم تشاهدهم .

فمعرفة كون الشافعى فقيها وكون جالينوس طبيبا معروف بالحقيقة لا بالتقليد بأن

تتعلم شيئا من الطب والفقه ، وتطالع كتبهما وتصانيفهما فيحصل لك علم ضروري بحالهما وكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثر النظر في القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ في أعلى درجات النبوة وأعضد ذلك بتجربة ماقاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب وكيف صدق في كذا وكذا . فاذا جربت ذلك في ألف وألفين وآلاف حصل لك علم ضروري لاتمارى فيه . فمن هذا القبيل طلب اليقين بالنبوة لا من قلب العصا ثعبانا وشق القمر . فان ذلك إذا نظرت إليه وحده ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن حد الحصر ربما ظننت أنه سحر وأنه تخييل ، وأنه من الله تعالى إضلال ، فانه يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

ويرد عليك أسئلة المعجزات فاذا كان مستند إيمانك كلاما منظوما في وجه دلالة المعجزة ينخرم إيمانك بكلام مرتب من وجه الاشكال والشبه عليها فليكن مثل هذه الخوارق إحدى القرائن والدلائل في جملة نظرك حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين كالذى يخبره جماعة بخبر متواتر لايمكنه أن يقول اليقين مستفاد من قول واحد معين بل من حيث لا يدرى ولا يخرج عن جملة ذلك ، ولا تعين الآحاد فهذا هو الإيمان القوى العلمى (وأما الذوق) فهو كالمشاهدة والأخذ باليد ولا يوجد إلا في طريق الصوفية .

(قال ثم إنى واظبت) على العزلة والخلوة قريبا من عشر سنين وبان لى في أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لا أحصيها وبان لى من حقيقة الذوق أن للانسان بدنا وقلبا وأعنى بالقلب حقيقة روحه التي هى محل معرفة الله تعالى دون اللحم الذى يشاركه فيه الميت والبهيمة وإن البدن له صحة بها سعادته ، ومرض فيه هلاكه ، وإن القلب كذلك له صحة وسلامة ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . وله مرض فيه هلاكه . إن لم يتداركه كما قال تعالى (في قلوبهم مرض)

وإن الجهل بالله سم مهلك وإن معصية الله تعالى بمتابعة الهوى داؤه الممرض وإن معرفة الله تعالى ترياقه المحيي وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافى ، وأنه لا سبيل إلى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته إلا بأدوية كما لا سبيل إلى معالجة البدن إلا بذلك وكما

ان أدوية البدن تؤثر فى كسب الصحة بخاصية فيها لا تدركها العقلاء ببضاعة العقل بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها عن الأنبياء الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء فكذلك بان لى على الضرورة ان أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص لا ببضاعة العقل . وكما أن الأدوية تركب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار وبعضها ضعف لبعض فى الوزن فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر من قبل الخواص فكذلك العبادات التى هى أدوية القلوب مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار حتى ان السجود ضعف الركوع وصلاة الصبح نصف صلاة الظهر ولا يخلو عن سر من الأسرار هو من قبيل الخواص التى لا يطلع عليه إلا بنور النبوة .

ولقد تحامق وتجاهل جدا من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة وظن أنها ذكرت على الاتفاق لا عن سر إلهى فيها يقتضيها بطريق الخاصية وكما أن فى الأدوية أصولا هى أركانها وزوائد هى متماتها لكل واحد منها خصوص تأثير فى أعمال أصولها كذلك السنن والنوافل لتكميل آثار أركان العبادات . وعلى الجملة فالأنبياء أطباء أمراض القلوب .

وأما فائدة العقل وتصرفه ان عرفنا ذلك وشهد بصدق النبوة وبعجز نفسه عن درك مايدرك بعين النبوة وأخذنا بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين .

فإلى ههنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة فى مدة الخلوة والعزلة .
ثم رأينا فتور الاعتقاد فى أصل النبوة ثم فى حقيقة النبوة ، ثم فى العمل بما شرحته النبوة وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ونظرت إلى أسباب فتور الخلق وضعف إيمانهم بها فإذا هو أربعة: سبب من الخائضين فى علم الفلسفة وسبب من الخائضين فى طريق التصوف وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم وسبب من معاملة المتوسمين من العلماء فيما بين الناس فانى تتبعت مدة آحاد الخلق اسأل من يقصر منهم فى متابعة الشرع واسأله شبهته

وأبحث عن عقيدته وسره ، وأقول له مالك تقصر فيها ؟ فان كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا فهذه حماقة فانك لا تبيع الاثنين بواحد فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة ؟

وإن كنت لا تؤمن فأنت كافر فدبر لنفسك فى طلب الايمان وانظر ما سبب كفرك الخفى الذى هو مذهبك باطنا وهو سبب جراءتك ظاهرا . وان كنت لا تصرح به تجملا بالايمان وتشرفا بذكر الشرع فقائل يقول هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك وفلان من المشهورين من الفضلاء لا يصلى وفلان يشرب الخمر وفلان يأكل الأموال من الأوقاف وأموال اليتامى وفلان يأكل أدرار السلطان ولا يحترز من الحرام وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة وهلم جرا إلى أمثاله ، وقائل ثان يدعى علم التصوف فيقول إنى بلغت مبلغا ترقيت عن الحاجة إلى العبادة وقائل ثالث تعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الاباحة وهم الذين ضلوا عن طريق التصوف وقائل رابع لقى أهل التعليم ويقول الحق مشكل والطريق إليه عسير منسد والاختلاف فيه كثير .

وليس بعض المذاهب أولى من بعض وأدلة العقول متعارضة فلاثقة برأى أهل الرأى والداعى إلى التعليم متحكم لا حجة له .

فكيف ندع اليقين بالشك وقائل خامس يقول لست أفعل هذا تقليدا ولكنى قرأت علم الفلسفة وأدركت حقيقة النبوة وان حاصلها يرجع إلى المصلحة والحكمة وان المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال فى الشهوات فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل فى حجر التكليف وإنما أنا من الحكماء اتبع الحكمة وأنا بصير بها مستغنى فيها عن التقليد .

هذا منتهى إيمان من قرأ فلسفة الإلهيين منهم ويعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبى نصر الفارابى وهؤلاء المتجملون منهم بالاسلام وربما يرى الواحد منهم يقرأ القرآن ويحضر الجماعات والصلوات ويعظم الشريعة بلسانه ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر وأنواعا من الفسق والفجور واذا قيل له ان كانت النبوة غير صحيحة فلم تصلى ؟ فربما يقول رياضة الجسد وعادة البلد وحفظ المال و الولد وربما قال الشريعة صحيحة والنبوة حق فيقال له فلم

تشرب الخمر ، فيقول إنما نهى عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء وأنا بحكمتى محترز عن ذلك وإنى أقصد به تشحيذ خاطرى حتى ان ابن سينا ذكر فى وصية له كتب فيها انه عاهد الله تعالى على كذا وكذا وان يعظم الأوضاع الشرعية ولا يقصر فى العبادات الدينية ولا يشرب الخمر تلهيا بل تداويا وتشفيا وكان منتهى حالته فى صفاء الايمان والتزام العبادات أن يستثنى شرب الخمر لغرض التشفى فهذا إيمان من يدعى الايمان منهم وقد انخدع إلى ذكر ما رد به على أهل التعليم وأهل الاباحة .

(قال وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة حتى أنكر أصل النبوة) فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة بدليل وجود خواص الأدوية والنجوم وغيرها وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك وأوردنا الدليل من خواص النجوم والطب لأنه من نفس علمهم ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات مثلا من نفس علمه برهان النبوة . وأما من أثبت النبوة بلسانه وسوى أوضاع الشرع على الحكمة فهو على التحقيق كافر بالنبوة وإنما هو مؤمن بحكيم له طالع مخصوص يقتضى طالعه أن يكون متبوعا وليس هذا من النبوة فى شىء بل الايمان بالنبوة أن يقر باثبات طور وراء طور العقل تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة والعقل معزول عنها كعزل السمع عن ادراك الألوان والبصر عن ادراك الأصوات وجميع الحواس عن ادراك المعقولات فان لم يجوز هذا فقد أقمنا البرهان على امكانه بل على وجوده .

وأخذ يستدل بالخواص الموجودة فى الطبيعيات على امكان خواص ثابتة فى الشرعيات وأن تلك إذا لم تعرف بقياس العقل فكذلك الأخرى (قال وإنما تدرك هذه الخواص) بنور النبوة قال : والعجب انا لو غيرنا العبارة إلى عبارة المنجمين لصدقوا باختلاف هذه الأوقات فنقول أليس يختلف الحكم والطالع بأن تكون الشمس فى وسط السماء أو فى الطالع أو فى الغارب حتى بنوا على هذا فى تسييراتهم اختلاف الصلاح وتفاوت الأعمار والآجال .

فلا فرق بين الزوال وبين كون الشمس فى وسط السماء ولا بين المغرب وبين كون الشمس فى الغارب فلم يكن لتصديقه سبب الا أن ذلك سمعه بعبارة منجم جرب كذبه

مائة مرة ولا يزال يعاود تصديقه حتى لو قال له المنجم إذا كانت الشمس فى وسط السماء ونظر إليه الكوكب الفلانى فلبست ثوبا جديدا فى ذلك الوقت قتلت فى ذلك الوقت فانه لا يلبس الثوب فى ذلك الوقت وربما يقاسى فيه البرد الشديد وربما سمعه من منجم قد جرب كذبه مرات فليت شعرى من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر إلى الاعتراف بأنها خواص معرفتها معجزة لبعض الأنبياء كيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبى صادق مؤيد بالمعجزات لم يعرف قط بالكذب ولم لا يتسع لامكان هذه الخواص فى اعداد الركعات ورمى الجمار وعدد أركان الحج وسائر تعبدات الشرع ولم نجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقا أصلا. فان قال قد جربت شيأ من النجوم وشيأ من الطب فوجدت بعضه صادقا فانقدح فى نفسى تصديقه وسقط عن قلبى استبعاده ونفرته .

وهذا لم أجربه فبم أعلم وجوده وتحققه ، وان أقررت بامكانه فأقول انك لا تقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت أخبار المجربين وقلدتهم فاسمع أقوال الأنبياء فقد جربوه وشاهدوا الحق فى جميع ما ورد به الشرع أو اسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك على انى أقول وان لم تجرب فيقتضى عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعا .

فانا لو فرضنا رجلا بلغ وعقل ولم يجرب ومرض وله والد مشفق حاذق بالطب يسمع دعواه فى معرفة الطب منذ عقل فعجن له والده دواء وقال هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك فماذا يقتضيه عقله وان كان الدواء كريها مر المذاق أن يتناول أو يكذب ويقول أنا لا أعرف مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء ولم أجربه فلا شك أنك تستحمقه إن فعل ذلك فكذلك يستحمقك أهل البصائر فى توقفك. فان قلت فبم أعرف شفقة النبى ومعرفته بهذا الطب فأقول وبم عرفت شفقة أبيك فان ذلك أمر ليس محسوسا بل عرفتها بقرائن أحواله وشواهد أعماله فى موارده ومصادره علما ضروريا لا يمارى فيه. ومن نظر فى أقوال رسول الله ﷺ وما ورد من الاخبار فى اهتمامه بارشاد الخلق وتلطفه فى حق الناس بأنواع اللين واللطف إلى تحسين الأخلاق واصلاح ذات البين وبالجملة إلى ما يصلح به دينهم ودنياهم حصل له علم ضرورى بأن شفقته على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال وإلى عجائب

وإلى عجائب الغيب التي أخبر عنها في القرآن على لسانه وفي الأخبار وإلى ما ذكره في آخر الزمان وظهر ذلك كما ذكره علما ضروريا انه بلغ الطور الذي وراء العقل وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب والخواص والأمور التي لا يدركها العقل وهذا هو منهاج يحصل العلم الضروري بصدق النبي صلى الله عليه وسلم وتأمل في القرآن وطالع الاخبار إلى أن تعرف ذلك بالعيان وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا الزمان .

(قلت) فهذه الطريق التي ذكرها أبو حامد وغيره تفضي أيضا إلى العلم من النبوة والتصديق منها بأكثر من القدر الذي تقر به المتفلسفة . وما ذكره من المشاهدات والمكشوفات التي تحصل للصوفية وأنهم يشهدون تحقيق ما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام ونفع ما أمر به فهذا أيضا حق في كثير مما أخبر به وأمر به ثم إذا علم ذلك صار حجة على صدقه فيما لم يعلمه كمن سلك طريقا من العلم بفن من الفنون إذا رأى كلام متكلم في ذلك العلم ورآه يحقق ما عنده ويأتي بزيادات لا يستطيعها . فانه يعلم بما رآه من مزيد تحقيقه لما شاركه في أصل معرفته انه أعلم منه بما وراء ذلك كمن نظر في الطب إذا رأى كلام بقراط ومن نظر في النحو إذا رأى كلام الخليل وسيبويه ومن نظر في العلوم الدينية إذا رأى كلامه أئمة السلف وكذلك من سلك مسلك الزهد والعبادة إذا بلغه سير زهاد السلف وعباداتهم ومن ولي الناس وساسهم إذا رأى سيرة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وعمر بن عبد العزيز ونحوهما .

فهذا كله مما يبين له عظمة قدر هؤلاء وأنهم كانوا أئمة في هذه الأمور وفيما يصلح ويجب من ذلك ويعلم كل أحد الفرق بين سيرة العمرين وسيرة الحجاج والمختار بن أبي عبيد ونحوهما بل يعلم الفرق بين سيرة أبي أمية وبني العباس وبين سيرة بني بويه وبني عبيد وأمثال ذلك كذلك يعلم الفرق بين نبينا محمد وموسى وعيسى عليهم السلام وبين مسيلمة والأسود العنسي وأمثالهما بأدنى تأمل وهذه الطريق ينقسم الناس فيها إلى علم وخاص بسبب علمهم بالخير والشر والصدق والكذب ونحو ذلك وهذه تفيد العلم القطعي بأن الأنبياء أكمل الخلق وأفضلهم وأنه لا يصلح لأحد أن يعارضهم برأيه

ولا يخالفهم بهواه لكن لا يفيد العلم بحقيقة النبوة إلا أن يعترف أن النبي أعلم منه فلا يمكنه أن يقول هو أعلم منه فكل من حصل له من المخاطبات والمشاهدات ما يحصل للأولياء فانه يعلم ان الذى للأنبياء فوق الذى له من ذلك كعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فانه قد ثبت فى الصحيح أنه ﷺ قال انه قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فان يكن فى أمتى أحد فعمر . وقال ﷺ ان الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه . وفى الترمذى عنه ﷺ انه قال «لو لم ابعث فيكم لبعث فيكم عمر» وكان عمر بهذا يعلم ان ما يأتى النبي ﷺ من الوحى والملائكة وما يخبر به من الغيب وما يأمر به وينهى عنه أمر زائد على قدره ومجاوز لطاقته بل يجد بينه وبين ذلك من التفاوت مايعجز القلب واللسان عن معرفته وتبيانه بل كان عمر بما حصل له من المكاشفة والمخاطبة يعلم ان أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما أكمل منه معرفة ويقينا وأتم صدقا وأخلاقا وأعلم منه بقدر الرسول ﷺ فكان خضوع عمر هذا الذى هو أفضل الأولياء المحدثين الملهمين المخاطبين لأبى بكر الصديق كخضوع من رأى غيره من مشاركيه فى فنه أكمل منه كخضوع الاخفش لسيبويه وزفر لأبى حنيفة وابن وهب لمالك ونحو ذلك أو خضوع فقهاء المدينة لسعيد بن المسيب وعلماء البصرة للحسن البصرى وفقهاء مكة لعطاء بن أبى رباح .

وإذا كان هذا مثل عمر مع أبى بكر لأن أبا بكر صديق يأخذ ما يأخذه عن الرسول المعصوم عليه الصلاة والسلام الذى قد عصم أن يستقر فيما جاء به خطأ فهو اخبرته بحال صديق النبي بهذه الثابة وكل من كان عالما بالصحابة يعلم أن عمر رضى الله تعالى عنه كان متأدبا معظما بقلبه لأبى بكر رضى الله عنه مشاهداً انه أعلى منه إيمانا ويقينا فكيف يكون حال عمر وغيره مع النبي ﷺ .

وإذا كان هذا حال أفضل المحدثين المخاطبين فكيف حال سائرهم ولا ريب ان الرجل كلما عظمت ولايته وعظم نصيبه من انكشاف الحقائق له كان تعظيمه للنبوة أعظم والناس فى هذه الطريق متفاوتون بحسب درجاتهم لكن طريق الصوفية لا ينهض بانكشاف جميع ما جاء به الرسول ﷺ بل ولا بأكثره بل عامة ما يخبر به الرسول ﷺ لا يمكن أبو بكر وعمر فضلا عن غيرهما أن يعلمه بدون خبره وان كان عند المخبرين

علم بجمل ذلك أو أصله لكن ما يخبر به من التفصيل لا يعلم بدون خبره أصلا ومايوجد فى كلام أبى حامد وغيره من أن الكشف يحصل ذلك .وقول القائل ان الأولياء شاهدوا الحق فى جميع ما ورد به الشرع ليس بسديد بل لا يزال الأولياء مع الأنبياء فى إيمان بالغيب ولا يتصور ان الولى يعطى ما أعطيه النبى من المشاهدة والمخاطبة وأفضل الأولياء أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ونحوهم .

وليس فى هؤلاء من شاهد ما شاهده النبى ﷺ ليلة المعراج ولا شاهد الملائكة الذين كانوا ينزلون بالوحى على النبى ﷺ ولا سمع أحد منهم كلام الله الذى كلم به نبيه ليلة المعراج ولا سمع عامة الأنبياء فضلا عن الأولياء كلام الله كما سمعه موسى بن عمران ولا كلم الله تكليما لداود وسليمان بل ولا إبراهيم ولا عيسى فضلا عن أن يكون ذلك يحصل لأحد من الأولياء والايمان بكل ماجاء به الأنتياء واجب فانهم معصومون ولايجب الايمان بكل ما يقوله الولى بل ولا يجوز فانه ما من أحد من الناس إلا يؤخذ من كلامه ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن سب نبيا من الأنبياء قتل وكان كافرا مرتدا بخلاف الولى .

قال تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) وقال تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) .

فان قيل ففى قرءاة ابن عباس « ولا محدث » قيل هذه القراءة ليست متواترة ولامعلومة الصحة ولا يجوز الاحتجاج بها فى أصول الدين وان كانت صحيحة فالمعنى ان المحدث كان فيمن كان قبلنا وكانوا يحتاجون إليه وكان ينسخ ما يلقيه الشيطان إليه كذلك وأمة محمد ﷺ لا تحتاج إلى غير محمد ﷺ . ولهذا كانت الأمم قبلنا لا يكفيهم نبى واحد بل يحيلهم هذا النبى فى بعض الأمور على النبى الآخر وكانوا يحتاجون إلى عدد من الأنبياء ويحتاجون

إلى المحدث . وأمة محمد أغناهم الله بمحمد ﷺ وعن غيره من الأنبياء والرسل فكيف لا يغنيهم عن المحدث ولهذا قال ﷺ «انه قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فان يكن فى أمتى أحد فعمر» فعلق ذلك بأن ولا يجزم به لأنه علم استغناء أمته عن محدث كما استغنت عن غيره من الأنبياء سواء كان فيها محدث أولا أو كان ذلك لكمالها برسولها الذى هو أكمل الرسل وأجلهم وهؤلاء كبعض فى أمته عن الأمم قبلهم .

(وقد وقع فى كلام أبى حامد وغيره) نحو من هذا فى مواضع أخر حتى ذكر فيما يتأول وما لا يتأول ان ذلك لا يعلم إلا بتوفيق إلهى يشاهد به الحقائق على ما هى عليه ثم ينظر فى السمع والألفاظ الواردة فيه فما وافق مشهوده أقره وما خالفه تأوله ، وذكر فى موضع آخر ان الواحد من الأولياء قد يسمع كلام الله سبحانه كما سمعه موسى بن عمران وأمثال هذه الأمور ولهذا تبين له فى آخر عمره ان طريق الصوفية لا تحصل مقصوده فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية وأخذ يشتغل بالبخارى ومسلم ومات فى أثناء ذلك على أحسن أحواله وكان كارها ما وقع فى كتبه من نحو هذه الأمور مما أنكره الناس عليه حتى قال المازرى وغيره ما معناه: ان كلامه يؤثر فى الايمان بالنبوة فينقص قدرها أو نحو هذا ، وكذلك ما ذكره من أن النبوة انفتاح قوة أخرى فوق العقل .

ولا ريب أن هذا مما يكون للنبى وليست النبوة قوة تدرك بها الأمور وإنما يشبه هذا أصول الفلاسفة الذين يزعمون ان الفيض دائم من العقل الفعال وإنما يحصل فى القلوب بسبب استعداد الأشخاص فأى عبد كان استعداده أتم كان الفيض عليه أتم من غير أن يكون من الملأ الأعلى سبب يخص شخصا دون شخص بالخطاب والتكليم .

وليس هذا مذهب المسلمين بل ولا اليهود ولا النصارى بل هؤلاء كلهم إلا من ألحد منهم متفقون على أن الله سبحانه خص موسى بالتكليم دون هارون وغيره وانه يخص بالنبوة من يشاء من عباده لا انه بمجرد استعداده يفيض عليه العلوم من غير تخصيص إلهى وهنا صار الناس ثلاثة أصناف صنف يقولون ليست النبوة إلا مجرد أنباء الله تعالى للعبد وهو تعلق كلامه كما يقولون ان الأحكام الشرعية ليست إلا مجرد خطاب

الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين من غير أن يكون للفعل فى نفسه صفة أقتضت تخصيصه بالحكم .

وكذلك يقول هؤلاء ليس للنبي فى نفسه صفة اقتضت تخصيصه بالنبوة وهذا يقوله طوائف من متكلمة أهل الاثبات القدريين أصحاب جهم وأبى الحسن وغيرهما الذين يخالفون المعتزلة والفلاسفة فيما يقولونه فى فعل الرب وحكمه إذ المتفلسفة يقولون بالطبع والعلة الموجبة والمعتزلة يقولون بالاختيار المتضمن لشريعة عقلية ألزموه بها فى التعديل والتجويز ونحو ذلك والمنتسبون إلى السنة والجماعة من الكلابية والأشعرية والكرامية وسائر المنتسبين إلى السنة والجماعة يردون عليهم الأصول التى فارقوا بها أهل السنة والجماعة بالتكذيب من القدر والصفات وتخليد أهل الكبائر كما يردون على المتفلسفة ما فارقوا به المسلمين لكن لهؤلاء فى مسائل الحكمة والمصالح وتعليل الأفعال والأحكام وهل للافعال صفات يدرك بها حسنها وقبحها نزاع ليس هذا موضع تفصيله وإنما نذكره مجملا ..

ومعلوم أن الأنباء والارسال من باب كلام الله تعالى وكذلك الامر والنهى هو من باب كلام الله تعالى والأمر متعلق بالفعل والارسال والانباء متعلق بالرسول والنبى وللناس فى هذا وهذا ثلاثة أقوال .

(أحدها) انه ليس ذلك إلا مجرد كلام الله المتعلق بذلك أو تعلق الخطاب بذلك وهو من الصفات النسبية الاضافية عندهم قالوا لأنه ليس لتعلق القول من القول صفة ثبوتية وهذا قول هؤلاء .

(والقول الثانى) ان ذلك يعود إلى صفة قائمة بالنبى وبالفعل .

(والقول الثالث) ان ذلك يتضمن الامرين فالحكم الشرعى يتضمن خطاب الشارع وصفة قائمة بالفعل والنبوة تتضمن خطاب الرب لتضمن صفة قائمة بالنبى أيضا وهذا معنى قول السلف والأئمة وجمهور المسلمين والفلاسفة والمعتزلة أيضا يثبتون أيضا صفة حسن الفعل وقبحه إلى صفة فيه توجب الحمد والذم وخطاب الشارع كاشف لها لا مثبت لها والمتفلسفة عندهم يعود ذلك إلى صفة فى الفعل توجب كمال النفس أو نقصها ولذلك

يقولون ان النبوة هى كمال النفس الناطقة تستعد به لأن تفيض عليها المعارف من العقل الفعال من غير أن يكون هناك خطاب حقيقى لله تعالى ولكن كلام الله سبحانه عندهم هو ما يحدث فى نفس النبي من أصوات يسمعها فى نفسه لا خارجا عن نفسه والملائكة عبارة عن أشكال نورانية يراها تكون فى نفسه لا خارجا عن نفسه كما يرى النائم فى منامه صوراً يخاطبها وكلاما يسمعه وذلك فى نفسه ولهذا جعل أبو حامد هذا طريقا لهم إلى اثبات النبوة كما سلك ابن سينا وغيره ولا ريب ان كل ما يقربه من مقر من الحق فان أهل الايمان يقرون به لكن يعلمون أشياء فوق ذلك لا يعلمها أهل الباطل فما علمته المتفلسفة من هذه الأمور لا ينكرها أهل الايمان لكن ينكرون عليهم اقتصارهم فى التصديق عليها .

وقد بسطت الكلام على هذه المسألة فى جواب المسألة الخراسانية التى سئلت فيها عن ما يتعلق بالقرآن العظيم وكلام الله سبحانه وتعالى وذكرت مراتب تكليم الله تعالى لخلقه وأنها درجات وان المتفلسفة أقروا ببعض الدرجات دون بعض بل لعلهم لم يتجاوزوا أدنى الدرجات وهى درجات الالهام وما يناسبه وما أعطوا هذه الدرجة حقها وأما المعتزلة فهم خير منهم فانهم يقرون بأن لله تعالى كلاما منفصلا خارجا عن نفس الرسول كما أن له ملائكة منفصلين عن نفس الرسول وليست هى العقول والنفوس التى تزعمها المتفلسفة والقرامطة بل يقرون بما أخبر به القرآن من أصناف الملائكة وأوصافهم لكنهم مع هذا لا يقرون بأن لله كلاما قائما به حقيقة مذهبهم أن الله سبحانه لا يتكلم إنما يخلق كلامه فى غيره ولما ابتدعت الجهمية هذه المقالة كانوا يقولون ان الله تعالى لا يتكلم أو يتكلم مجازا .

لكن المعتزلة امتنعت من هذا الاطلاق وقالوا انه متكلم أو يتكلم حقيقة لكنهم فسروا ذلك بأنه خلق كلاما فى غيره فلم ينازعوا قدماء الجهمية فى حقيقة المذهب وإنما نازعوهم فى اللفظ .

والسلف والأئمة لما عرفوا حقيقة مذهبهم عرفوا أن هذا كفر وأن هذا فى الحقيقة تعطيل للرسالة وانه يمتنع أن يكون متكلم بكلام لا يقوم به بل بغيره كما يمتنع أن يكون

عالما بعلم لا يقوم به بل بغيره وأن يكون قادرا بقدرة لا تقوم به بل بغيره ، وانه لو كان كذلك لكان ما يخلقه من الكلام فى مخلوقاته كلاما له .

وقد قال تعالى (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء) وقال عز وجل (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) بل قد ثبت أن الله خالق كل شيء فيجب أن يكون على قولهم كل كلام فى الوجود كلامه وقد أفصح بذلك الاتحادية الذين يقولون الوجود واحد كابن عربى صاحب الفصوص ونحوه وقالوا .

وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

ومذهبهم منتهى مذهب الجهمية وهو فى الحقيقة تعطيل الخالق والقول بأن هذا الوجود هو الوجود الواجب كما ذكر ذلك أبو حامد عن دهرية الفلاسفة فإن قول هؤلاء هو قول أولئك ، وهو قول فرعون الذى أظهره لكن فرعون وغيره من الدهرية لا يقولون هذا الوجود هو الله ، وهؤلاء بجهلهم يقولون ان الوجود هو الله وقد أضلوا طوائف من الشيوخ الذين لهم عبادة وزهادة حتى أنه كان ببيت المقدس رجل من أعبد الناس وأزهدهم وكان طول ليله يقول الوجود واحد وهو الله ولا أرى الواحد ولا أرى الله وهؤلاء سلكوا فى كثير من أصولهم ما ذكره أبو حامد وبنوا على ما فى كتابه المضنون به وغيره من أصول الفلاسفة المكسوة عبادة الصوفية فالأمور التى أنكرها عليه علماء المسلمين ما عليها هؤلاء حتى جعل ابن سبعين الناس خمس طبقات أدناها الفقيه ثم المتكلم الأشعرى ثم الفيلسوف ثم الصوفى ثم الخامس هو المحقق وهؤلاء يجعلون ما أشار إليه أبو حامد من الكشف هو ما حصل لهم وانه لتعبده بالشريعة لم يصل إلى القول بوحدة الوجود وهم ينتقصونه بما يحمده عليه المسلمون من الأقوال التى اعتصم فيها بالكتاب والسنة وبالأقوال التى يعلم صحتها بصريح العقل . ويرون ان ذلك هو الذى حجبه عن أن يشهد حقيقتهم التى هى وحدة الوجود وإنما طمعوا فيه هذا الطمع لما وجدوه فى الكلام المضاف إليه مما يوافق أصول الجهمية المتفلسفة ونحوهم .

(والمقصود هنا) ان المعتزلة خير من المتفلسفة حيث يثبتون لله تعالى كلاما منفصلا

ويقولون ان الرسالة والنبوة تتضمن نزول كلام الله تعالى منفصل عن النبي صلى الله عليه وسلم ينزل عليه كما يقول ذلك سائر المسلمين . ثم قد يقول من يقول من المعتزلة ان النبوة جزاء على عمل متقدم وان النبي لما قام بواجبات عقلية أكرمه الله تعالى عليها بالنبوة مع كون النبي متميزا بصفات خصه الله تعالى بها وهذا القول موافق فى الجملة قول أكثر الناس وهو ان النبوة والرسالة تتضمن كلام الله سبحانه الذى ينزل على رسوله ونبيه وانه مع ذلك مختص بصفات اختصه الله تعالى بها دون غيره من الأنبياء وانه لا يكون النبي والرسول كسائر الناس فى العقل والخلق وغير ذلك ، بل هو متميز عن الناس بذلك والنبوة فضل الله يؤتيه من يشاء لكن مع ذلك الله أعلم حيث يجعل رسالته .

(وما ذكره أبو حامد) فيه من تقرير النبوة فى الجملة على الأصول التى يسلمها المتفلسفة ويعرفونها ما ينتفع به من كان متفلسفا محضا فان ذلك يوجب أن يدخل فى الإسلام نوع دخول وكلام أبى حامد فى هذا ونحوه يصلح أن يكون برزخا بين المتفلسفة وبين أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى فالمتفلسفة تنتفع به حيث يصير عندهم من الايمان والعلم ما لا يحصل لهم بمجرد الفلسفة .

وأما من كان مسلما يريد أن يستكمل العلم والإيمان فان ذلك يضره من وجه ويرده عن كثير من كمال الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وان كان ينفعه من حيث يحول بينه وبين الفلسفة المحضة إلا أن يكون حسن الظن بالفلسفة دون أصول الإسلام فانه يخرجه إلى الالحاد المحض كما أصاب ابن عربى الطائى وابن سبعين وأمثالها وقد أخبر هو بما حصل له من السفسطة وانه انحصرت فرق الطالبين عنده فى أربع فرق المتكلمين والباطنية والفلاسفة والصوفية .

ومعلوم أن هذه الفرق كلها حادثة بعد عصر الصحابة بل وبعد عصر التابعين بل إنما ظهرت وانتشرت بعد القرون الثلاثة الصحابة والتابعين وتابعيهم . ثم الفلاسفة والباطنيه هم كفار كفرهم ظاهر عند المسلمين كما ذكر هو وغيره وكفرهم ظاهر عند أقل من له علم وإيمان من المسلمين إذا عرفوا حقيقة قولهم لكن لا يعرف كفرهم من لم

يعرف حقيقة قولهم وقد يكون قد تشبث ببعض أقوالهم من لم يعلم انه كفر فيكون معذورا لجهله ولكن فى المتكلمين والصوفية ممن له علم وإيمان طوائف كثيرون بل فى من بعد من الصوفية مثل الفضيل بن عياض وأبى سليمان الدارانى وإبراهيم بن أدهم ومعروف الكرخى وأمثالهم ممن هو خيار المسلمين وساداتهم عند المسلمين وفى عصرهم حدث اسم الصوفية وظهر الكلام أيضا .

وكلام السلف والأئمة فى ذم البدع الكلامية فى العلم والبدع المحدثة فى طريقة الزهد والعباده مشهور كثير مستفيض ولم يتنازع أهل العلم والايمان فيما استفاض عن النبى ﷺ من قوله « خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم » وكل من له لسان صدق من مشهور بعلم أو دين معترف بأن خير هذه الأمة هم الصحابة .

وان المتبع لهم أفضل من غير المتبع لهم ولم يكن فى زمنهم أحد من هذه الصنوف الأربعة ولا تجد اماما فى العلم والدين كمالك والأوزاعى والثورى وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل واسحاق بن راهوايه ومثل الفضيل وأبى سليمان ومعروف الكرخى وأمثالهم إلا وهم مصرحون بأن أفضل علمهم ما كانوا فيه مقتدين بعلم الصحابة وأفضل عملهم ما كانوا فيه مقتدين بعمل الصحابة وهم يرون ان الصحابة فوقهم فى جميع أبواب الفضائل والمناقب والذين اتبعوهم من أهل الآثار النبوية وهم أهل الحديث والسنة العالمون بطريقهم المتبعون لها وهم أهل العلم بالكتاب والسنة فى كل عصر ومصر .

فهؤلاء الذين هم أفضل الخلق من الأولين والآخرين لم يذكرهم أبو حامد وذلك لأن هؤلاء لا يعرف طريقهم إلا من كان خبيرا بمعانى القرآن خبيرا بسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خبيرا بآثار الصحابة فقيها فى ذلك عاملا بذلك وهؤلاء هم أفضل الخلق من المنتسبين إلى العلم والعبادة * وأبو حامد لم ينشأ بين من كان يعرف طريقة هؤلاء ولا تلقى عن هذه الطبقة ولا كان خبيرا بطريقة الصحابة والتابعين بل كان يقول عن نفسه أنا مزجى البضاعة فى الحديث ولهذا يوجد فى كتبه من الأحاديث الموضوعة والحكايات الموضوعة ما لا يعتمد عليه من له علم بالآثار ولكن نفعه الله تعالى بما وجده فى كتب الصوفية والفقهاء من ذلك وبما وجد فى كتب أبى طالب ورسالة القشيرى

وغير ذلك وبما وجده في كتب أصحاب الشافعي ونحو ذلك تخيار ما يأتي به ما يأخذه من هؤلاء وهؤلاء .

ومعلوم أن طريقة أئمة الصوفية وأئمة الفقهاء أكمل من طريقة أبي القاسم القشيري ومن طريقة أبي طالب والحارث ومن طريقة أبي المعالي وأمثاله وأولئك الأئمة كانوا أعلم بطريقة الصحابة وأتبع لها من أتباعهم فالقاضي أبو بكر الباقلاني وأمثاله أعلم بالأصول والسنة وأتبع لها من أبي المعالي وأمثاله والأشعري والقلانسي ونحوهما أعلى طبقة في ذلك من القاضي أبي بكر . وعبد الله بن سعيد بن كلاب والحارث المحاسبي أعلى طبقة في ذلك من هؤلاء . ومالك والأوزاعي وحماد بن زيد والليث بن سعد وأمثالهم أعلى طبقة من هؤلاء والتابعون أعلى من هؤلاء . والصحابة أعلى من التابعين .

وكذلك أبو طالب المكي يأخذ عن شيخه ابن سالم وابن سالم يأخذ عن سهل بن عبد الله التستري وسهل أعلى درجة عند الناس من أبي طالب ثم الفضل وأبو سليمان وأمثالهما أعلى درجة من سهل وأمثاله وأيوب السختياني وعبد الله بن عون ويونس بن عبيد وغيرهم من أصحاب الحسن أعلى طبقة من هؤلاء وأويس القرني وعامر بن عبد قيس وأبو مسلم الخولاني وأمثالهم أعلى طبقة من هؤلاء وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي وأبو الدرداء وأمثالهم أعلى طبقة من هؤلاء .

(ومعلوم) ان كل من سلك إلى الله جل وعز علما وعملا بطريق ليست مشروعة موافقة للكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها فلا بد أن يقع في بدعة قولية أو عملية فان السائر إذا سار على غير الطريق المهيع فلا بد أن يسلك بينات الطريق وإن كان مايفعله الرجل من ذلك قد يكون مجتهدا فيه مخطئا مغفورا له خطؤه وقد يكون ذنبا وقد يكون فسقا وقد يكون كفرا بخلاف الطريقة المشروعة في العلم والعمل فانها أقوم الطرق ليس فيها عوج كما قال تعالى (أن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم) وقال عبد الله بن مسعود : خط رسول الله ﷺ خطا وخط خطوطا عن يمينه وشماله ثم قال لا هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل

فتفرق بكم عن سبيله) وقال الزهرى كان من مضى من علمائنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة ولهذا قيل (مثل السنة مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق) وهو يروى عن مالك ومن سلك الطريق الشرعية النبوية لم يحتج فى اثباتها إلى أن يشك فى إيمانه الذى كان عليه قبل البلوغ ثم يحدث نظرا يعلم به وجود الصانع ولم يحتج إلى أن يبقى شاكا مرتابا فى كل شىء وإنما كان مثل هذا يعرض لمثل الجهم بن صفوان وأمثاله فانهم ذكروا انه بقى أربعين يوما لا يصلى حتى يثبت ان له ربا يعبده فهذه الحالة كثيرا ما تعرض للجهمية وأهل الكلام الذين ذمهم السلف والأئمة . وأما المؤمن المحض فيعرض له الوسواس فتعرض له الشكوك والشبهات وهو يدفعها عن قلبه . فان هذا لا بد منه كما ثبت فى الصحيح ان الصحابة قالوا يارسول الله ان أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به فقال «أفقد وجدتموه؟ قالوا نعم قال ذلك صريح الإيمان (وفى السنن من وجه آخر) انهم قالوا ان أحدنا ليجد فى نفسه ما يتعاظم أن يتكلم به فقال « الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة» قال غير واحد من العلماء معناه ان ما تجدونه فى قلوبكم من كراهة الوساوس والنفرة عنه وبغضه ودفعه هو صريح الإيمان .

وهذا من الزبد الذى قال الله تعالى فيه (فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) وهذا مذكور فى غير هذا الوضع وكلام السلف والأئمة فيما أحدث من الكلام وما أحدث من الزهد مبسوط فى غير هذا الموضع .

(والمقصود هنا) أن يعرف مراتب الناس فى العلم بالنبوة ومعرفة قدرها وتعدد الطرق فى ذلك وان عامة الطرق التى سلكها الناس فى ذلك هى طرق مفيدة نافعة لكن تختلف مقادير فوائدها ومنافعها وفيها ما يضر من وجه كما ينفع من وجه وفيها ما ينتفع به من كان عديم الايمان أو ضعيف الايمان فيحصل به له بعض الايمان أو يقوى إيمانه وان كان ذلك يضر من كان قوى الايمان ويكون رجوعه إليه ردة فى حقه بمنزلة

من كان معتصما بحبل قوى وعروة وثقى لا انفصام لها فاعتاض عن ذلك بحبل ضعيف يكاد ينقطع به وهذا باب يطول وصف حال الناس فيه .

وأما ما ذكره أبو حامد من أن هذه طريقة التي سلكها تفيد العلم الضرورى بالنبوة دون طريقة المعجزات فالإنسان خبير بما حصل له من العلم الضرورى وغيره وليس هو خبير بما حصل لغيره من ذلك وكثير من أهل النظر والكلام يقولون نقيض هذا . يقولون لا يحصل العلم بالنبوة إلا بطريقة المعجزات دون غيرها كما قال ذلك أكثر أهل الكلام ومن اتبعهم كالقاضى أبى بكر والقاضى أبى يعلى وأبى المعالى والمازرى وأمثال هؤلاء والتحقيق ما عليه أكثر الناس ان العلم بالنبوة يحصل بطرق متعددة ـ المعجزات وغير المعجزات ويحصل له العلم الضرورى بها كما ذكره أبو حامد بل يحصل له العلم الضرورى بالنبوة على الجمل كما ذكره وعامة من حصر العلم بهذا أو غيره فى طريق معينة وزعم أنه لا يحصل بغيرها فانه يكون مخطئا وهذا كثير ما سلكه كثير من أهل الكلام فى اثبات العلم بالصانع أو اثبات حدوث العالم أو اثبات التوحيد أو العلم بالنبوة أو غير ذلك يسلك أحدهم طريقا يزعم أنه لا يحصل العلم إلا بها وقد تكون طريقا فاسدة وربما قدح خصومه فى طريقه الصحيحة وادعوا أنها فاسدة .

وكثيرا ما يكون سبب العلم الحاصل فى القلب غير الحجة الجدلية التى يناظر بها غيره فان الانسان يحصل له العلم بكثير من المعلومات بطرق وأسباب قد لا يستحضرها ولا يحصيها ولو استحضرها لا توافقه عبارته على بيانها ومع هذا فاذا طلب منه بيان الدليل الدال على ذلك قد لا يعلم دليلا يدل به غيره إذا لم يكن ذلك الغير شاركه فى سبب العلم وقد لا يمكنه التعبير عن الدليل ـ ان تصوره ـ فالدليل الذى يعلم به الناظر شىء والحجة التى يحتج بها المناظر شىء آخر وكثيرا ما يتفقان كما يفترقان .

وليس هذا موضع بسط ذلك وإنما المقصود التنبيه على تعدد طرق العلم بالنبوة وغيرها وكلام أكثر الناس فى هذا الباب ونحوه على درجات متفاوتة فيحمد كلام الرجل بالنسبة إلى من دونه وان كان مذموما بالنسبة إلى من فوقه إذ الإيمان يتفاضل وكل له من الايمان بقدر ما حصل له منه .

ولهذا كان أبو حامد مع ما يوجد في كلامه من الرد على الفلاسفة وتكفيره لهم وتعظيم النبوة وغير ذلك ومع ما يوجد فيه أشياء صحيحة حسنة بل عظيمة القدر نافعة يوجد في بعض كلامه مادة فلسفية وأمور أضيفت إليه توافق أصول الفلاسفة الفاسدة المخالفة للنبوة بل المخالفة لصريح العقل حتى تكلم فيه جماعات من علماء خراسان والعراق والمغرب كرفيقه أبي اسحاق المرغيناني وأبي الوفاء بن عقيل والقشيري والطرطوشي وابن رشد والمازري وجماعات من الأولين حتى ذكر ذلك الشيخ أبو عمرو بن الصلاح فيما جمعه من طبقات أصحاب الشافعي وقرره الشيخ أبو زكريا النووي (قال في هذا الكتاب فصل) في بيان أشياء مهمة أنكرت على الامام الغزالي في مصنفاته ولم يرتضيها أهل مذهبه وغيرهم من الشذوذ في تصرفاته . منها قوله في مقدمة المنطق في أول المستصفى .

«هذه مقدمة العلوم كلها ومن لا يحيط بها فلا ثقة له بعلومه أصلا . قال الشيخ أبو عمرو وسمعت الشيخ العماد بن يونس يحكي عن يوسف الدمشقي مدرس النظامية ببغداد وكان من النظار المعروفين انه كان ينكر هذا الكلام ويقول : فابو بكر وعمر وفلان وفلان . يعني أن أولئك السادة عظمت حظوظهم من الثلج واليقين ولم يحيطوا بهذه المقدمة وأسبابها. قال الشيخ أبو عمرو قد ذكرت بهذا ما حكى صاحب كتاب الامتاع والمؤانسة يعني أبا حيان التوحيدي أن الوزير ابن الفرات احتفل مجلسه ببغداد بأصناف من الفضلاء من المتكلمين وغيرهم وفي المجلس متى الفيلسوف النصراني فقال الوزير أريد أن ينتدب منكم إنسان لمناظرة متى في قوله :انه لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والحجة من الشبهة والشك من اليقين إلا بما حويناه من المنطق واستفدناه من واضعه على مراتبه فانتدب له أبو سعيد السيرافي وكان فاضلا في علوم غير النجوم وكلمه في ذلك حتى أفحمه وفضحه قال أبو محمد :وليس هذا موضع التطويل بذكره .

قال الشيخ أبو عمرو : وغير خاف استغناء العقلاء والعلماء قبل واضع المنطق أرسطاطاليس وبعده مع معارفهم الجمة عن تعلم المنطق وإنما المنطق عندهم بزعمهم آلة قانونية صناعية تعصم الذهن من الخطأ وكل ذي ذهن صحيح منطق بالطبع قال فكيف غفل الغزالي عن حال شيخه إمام الحرمين ومن قبله من كل إمام هو له مقدم ولحله

فى تحقيق الحقائق رافع ومعظم ثم لم يرفع أحد منهم بالمنطق رأسا ولا بنى عليه فى شىء من تصرفاته أسا .

ولقد أتى بخلطة المنطق بأصول الفقه بدعة عظم شؤمها على المتفقهة حتى كثر فيهم بعد ذلك المتفلسفة والله المستعان . قال ولأبى عبد الله المازرى الفقيه المتكلم الأصولى وكان اماماً محققاً بارعاً فى مذهبى مالك والأشعرى وله تصانيف فى فنون. منها شرح الارشاد والبرهان لامام الحرمين رسالة يذكر فيها حال الغزالى وحال كتابه الاحياء أصدرها فى حال حيدة الغزالى جوابا لما كوتب به من الغرب والشرق فى سؤاله عن ذلك عند اختلافهم فى ذلك فذكر فيها ما إختصاره أن الغزالى كان قد خاض فى علوم وصنف فيها واشتهر بالامامة فى إقليمه حتى تضاءل له النازعون واستبحر فى الفقه وفى وأصول الفقه وهو بالفقه أعرف .

وأما أصول الدين فليس بالمستبحر فيها شغله عن ذلك قراءته علوم الفلسفة وأكسبته قراءة الفلسفة جراءة على المعانى وتسهيلا للهجوم على الحقائق لأن الفلاسفة تمر مع خواطرها وليس لها شرع يزعها ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها فلذلك خامره ضرب من الادلال على المعانى فاسترسل فيها استرسال من لا يبالى بغيره .(قال) وقد عرفنى بعض أصحابه انه كان له عكوف على قراءة رسائل اخوان الصفا . وهذه الرسائل هى احدى وخمسون كل رسالة مستقلة بنفسها وقد ظن فى مؤلفها ظنون وفى الجملة هو يمنى واضع الرسائل رجل فيلسوف قد خاض فى علوم الشرع فمزج ما بين العلمين وحسن الفلسفة فى قلوب أهل الشرع بآيات وأحاديث يذكرها عندها .

ثم انه كان فى هذا الزمان المتأخر فيلسوف يعرف بابن سينا ملأ الدنيا تآليف فى علوم الفلسفة وكان ينتمى إلى الشرع ويتحلى بحلية المسلمين وأداته قوته فى علم الفلسفة إلى أن تلطف جهده فى رد أصول العقائد إلى علم الفلسفة وتم له من ذلك ما لم يتم لغيره من الفلاسفة . قال ووجدت هذا الغزالى يعول عليه فى أكثر ما يشير إليه فى علوم الفلسفة حتى انه فى بعض الاحايين ينقل نص كلامه من غير تغيير وأحيانا يغيره وينقله إلى الشرعيات أكثر مما نقل ابن سينا لكونه أعلم بأسرار الشرع منه . فعلى ابن سينا ومؤلف رسائل

اخوان الصفا عول الغزالى فى علم الفلسفة (قال وأما مذهب المتصوفة) فلست أدرى على من عول فيها ولا من ينتسب إليه فى علمها قال : وعندى انه على أبى حيان التوحيدى الصوفى عول على مذاهب الصوفية .

وقد علمت أن أبا حيان هذا ألف ديوانا عظيما فى هذا الفن ولم يصل إلينا منه شىء ثم ذكر ان فى الاحيــاء فتاوى مبناها على ما لا حقيقة له مثل ما استحسن فى قص الأظافر أن يبدأ بالسبابة لأن لها الفضل على بقية الأصابع لـكونها المسبحة ثم بالوسطى لأنها ناحية اليمين ثم باليسرى على هيئة دائرة وكأن الأصابع عنده دائرة فاذا أدار أصابعه مر عليها مرور الدائرة ثم يختم بابهام اليمنى هكذا حدثنى به من أثق به عن الـكتاب. قال فانظر إلى هذا كيف أفاده قراء الهندسة وعلم الدوائر وأحكامها أن نقله إلى الشرع فأفتى به المسلمين قال وحمل إلى بعض الأصحاب من هذا الاملاء الجزء الأول فوجدته يذكر فيه ان من مات بعد بلوغه ولم يعلم أن البارى قديم مات مسلما اجماعا، ومن تساهل فى حكاية الاجماع فى مثله هذا الذى الأقرب أن يكون فيه الاجماع بعكس ماقال لحقيق أن لا يوثق بكل ماينقل وان يظن به التساهل فى رواية ما لم يثبت عنده صحته . قال ثم تـكلم المـازرى فى محاسن الاحياء ومذامه ومنافعه ومضاره بكلام طويل ختمه بأن من لم يكن عنده من البسـطة فى العلم ما يعتصم به من غوائل هذا الـكتاب فان قراءته لا تجوز له وإن كان فيه ما ينتفع به .

ومن كان عنده من العلم ما يأمن به على نفسه من غوائل هذا الـكتاب ويعلم ما فيه من الرموز فيجتنب مقتضى ظواهرها ويكل أمر مؤلفها إلى الله تعالى وان كانت كلها تقبل التأويل فقراءته له سائغة وينتفع به اللهم إلا أن يكون قارؤه ممن يقتدى به ويغتر به فانه ينهى عن قراءته وعن مدحه والثناء عليـه . قال ولولا أن علمنا ان املاءنا هذا إنما يقرؤه الخاصة ومن عنده علم يأمن به على نفسه لم نتبع محاسن هذا الـكتاب بالثناء ولم نتعرض لذكرها ولـكنا نحن أمنا من التغرير ولئلا يظن أبعضنا من يتعصب للرجل انا جانبنـا الانصاف فى الـكلام على كتابه ويكون اعتقاده هذا فينا سببا لئلا يقبل نصيحتنا (قال الشيخ أبو عمرو) وهذا آخر مانقلناه عن المازرى قلت ماذكره المازرى فى مادة أبى حامد من الصوفية فهو كما قال المازرى عن نفسه : لم يدر على من عول فيها ولم يكن للمازرى

من الاعتناء بكتب الصوفية وأخبارهم ومذاهبهم ماله من الاعتناء بطريقة الكلام ومايتبعه من الفلسفة ونحوها .

فلذلك لم يعرف ذلك ولم تكن مادة أبى حامد من كلام أبى حيان التوحيدى وحده بل ولا غالب كلامه منه فان أبا حيان تغلب عليه الخطابة والفصاحة وهو مركب من فنون أدبية وفلسفية وكلامية وغير ذلك . وان كان قد شهد عليه بالزندقة غير واحد وقرنوه بابن الراوندى كما ذكر ذلك ابن عقيل وغيره وإنما كان غالب استمداد أبى حامد من كتاب أبى طالب المكى الذى سماه قوت القلوب ومن كتب الحارث المحاسبي وغيرها ومن رسالة القشيرى ومن منثورات وصلت إليه من كلام المشايخ وما نقله فى الاحياء عن الأئمة فى ذم الكلام فانه نقله من كتاب أبى عمر وابن عبد البر فى فضل العلم وأهله ومانقله فيه من الأدعية والاذكار ونقله من كتاب الذكر لابن خزيمة ولهذا كانت أحاديث هذا الباب جيدة وقد جالس من اتفق له من مشايخ الطرق لكنه يأخذ من كلام الصوفية فى الغالب مايتعلق بالأعمال والأخلاق والزهد والرياضة والعبادة وهى التى يسميها علوم المعاملة .

وأما التى يسميها علوم المكاشفة ويرمز إليها فى الاحياء وغيره ففيها يستمد من كلام المتفلسفة وغيرهم كما فى مشكاة الأنوار والمضنون به على غير أهله وغير ذلك وبسبب خلطه التصوف بالفلسفة كما خلط الأصول بالفلسفة صار ينسب إلى التصوف من ليس هو موافقا للمشائخ المقبولين الذين لهم فى الأمة لسان صدق رضى الله تعالى عنهم بل يكون مباينا لهم فى أصول الايمان كالايمان بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر ويجعلون هذه مذاهب الصوفية كما يذكر ذلك ابن الطفيل صاحب رسالة حى بن يقظان وأبو الوليد ابن رشد الحفيد وصاحب خلع النعل وابن العربى صاحب الفتوحات وفصوص الحكم وابن سبعين وأمثال هؤلاء ممن يتظاهر بمذاهب مشايخ الصوفية وأهل الطريق وهو فى التحقيق منافق زنديق ينتهى إلى القول بالحلول والاتحاد واتباع القرامطة أهل الالحاد ومذهب الاباحية الدافعين للأمر والنهى والوعد والوعيد ملاحظين لحقيقة القدر التى لا يفرق فيها بين الأنبياء والمرسلين وبين كل جبار عنيد وقائلين مع ذلك بنوع من

الحقائق البدعية . غير عارفين بالحقائق الدينية الشرعية . ولا سالكين مسلك أولياء الله الذين هم بعد الانبياء خير البرية . فهم فى نهاية تحقيقهم يسقطون الأمر والنهى والطاعة والعبادة . مشاقين للرسول متبعين غير سبيل المؤمنين . ويفارقون سبيل أولياء الله المتقين إلى سبيل أولياء الشياطين . ثم يقولون بالحلول والاتحاد . وهو غاية الكفر ونهاية الالحاد . ولهذا فى كلام المشايخ العارفين كأبى القاسم الجنيد وأمثاله من بيان أن التوحيد هو إفراد الحدوث عن القدم ونحو ذلك . ومن بيان وجوب اتباع الأمر والنهى ولزوم العبادة إلى الموت ما يبين به أن أولئك السادة المهتدين حذروا من طريق هؤلاء الملحدين . ولهذا نجد هؤلاء كابن عربى وابن سبعين وأمثالها يردون على مثل الجنيد وأمثاله من أئمة المشايخ ويدعون أنهم ظفروا فى التحقيق بنهاية الرسوخ . وإنما ظفروا بتحقيق الالحاد ، والدخول فى الحلول والاتحاد وما زال شيوخ الصوفية المؤمنون يحذرون من مثل هؤلاء الملبسين كما حذر أئمة الفقهاء من سبيل أهل البدعة والنفاق من أهل الفلسفة والكلام ونحوهم . حتى ذكر ذلك أبو نعيم الحافظ فى أول حلية الأولياء وأبو القاسم القشيرى فى رسالته دع من هو أجل منهما وأعلم منهما بطريق الصوفية وأقل غلطا وأبعد عن الاعتماد على المنقولات الضعيفة والمنقولات المبتدعة . قال أبو نعيم فى أول الحلية .

(أما بعد) أحسن الله تعالى توفيقك فقد استعنت بالله عز وجل وأجبتك إلى ما ابتغيت من جمع كتاب يتضمن أسامى جماعة وبعض أحاديثهم وكلامهم من أعلام المحققين من المتصوفة وأئمتهم وترتيب طبقاتهم من النساك ومحجتهم من قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم ممن عرف الأدلة والحقائق ، وباشر الأحوال والطرائق وساكن الرياض والحدائق . وفارق العوارض والعلائق ، وتبرأ من المنقطعين والمتعمقين ، ومن أهل الدعاوى من المسوفين . ومن الكسالى والمثبطين المتشبهين بهم فى اللباس والمقال . والمخالفين لهم فى العقيدة والفعال وذلك لما بلغك من بسط ألسنتنا وألسنة أهل الفقه والأثر فى كل الأقطار والأمصار فى المنتسبين إليهم من الفسقة الفجار ، والمباحية والحلولية الكفار . وليس ما حل بالكذبة من الوقيعة والانكار . بقادح فى منقبة البررة الاخيار ، وواضع من درجة الصفوة الاطهار . .

بل فى اظهار البراءة من الكذابين . والنكير على الحشوية البطالين نزاهة الصادقين ، ورفعة المحققين .

ولو لم ينكشف عن مخازى البطلين ومساويهم ديانة للزمنا إبانتها وإشاعتها حمية وصيانة إذ لاسلافنا فى التصوف العلم المنشور والصيت والذكر المشهور . فقد كان جدى محمد بن يوسف رحمه الله تعالى أحد من يشر الله تعالى به ذكر بعض المنقطعين إليه وكيف يستجيز نقيصة أولياء الله تعالى ومؤذيهم مؤذن بمحاربة ربه (ثم أسند) حديث أبى هريرة الذى رواه البخارى فى صحيحه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال (إن الله تعالى قال من آذى لى وليا وفى الرواية الأخرى من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبد بشىء أفضل من آداء ماافترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصربه ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنافاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بدله منه) .

(قلت) قد ذم أهل العلم والإيمان من أئمة العلم والدين من جميع الطوائف من خرج عما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى الأقوال والأعمال باطنا أو ظاهرا ومدحهم هو لمن وافق ما جاء به الرسول ﷺ ومن كان موافقا من وجه ومخالفا من وجه كالعاصى الذى يعلم أنه عاص فهو ممدوح من جهة موافقته مذموم من جهة مخالفته .

وهذا مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة ومن سلك سبيلهم فى مسائل الأسماء والأحكام، والخلاف فيها أول خلاف حدث فى مسائل الأصول حيث كفرت الخوارج بالذنب وجعلوا صاحب الكبيرة كافرا مخلداً فى النار ووافقتهم المعتزلة على زوال جميع إيمانه وإسلامه وعلى خلوده فى النار لكن نازعوهم فى الاسم فلم يسموه كافرا ، بل قالوا هو فاسق لامؤمن ولا مسلم ولا كافر ننزله منزلة بين المنزلتين ، فهم وإن كانوا فى الاسم إلى السنة أقرب فهم فى الحكم فى الآخرة مع الخوارج .

وأصل هؤلاء أنهم ظنوا أن الشخص الواحد لا يكون مستحقا للثواب والعقاب والوعد والوعيد والحمد والذم بل إما لهذا وإما لهذا فأحبطوا جميع حسناته بالكبيرة التى

فعلها ، وقالوا :الايمان هو الطاعة فيزول بزوال بعض الطاعة. ثم تنازعوا هل يخلفه الكفر على القولين ووافقتهم المرجئة والجهمية على أن الإيمان يزول كله بزوال شيء منه ، وأنه لايتبعض ولا يتفاضل فلا يزيد ولا ينقص وقالوا إن إيمان الفساق كإيمان الأنبياء والمؤمنين لكن فقهاء المرجئة قالوا: إنه الاعتقاد والقول وقالوا إنه لابد من أن يدخل النار من فساق الملة من شاء الله تعالى كما قالت الجماعة فكان خلاف كثير من كلامهم للجماعة إنما هو فى الاسم لا فى الحكم وقد بسطنا الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع ، وبينا الفرق بين دلالة الاسم مفردا ودلالته مقرونا بغيره كاسم الفقير والمسكين فانه إذا أفرد أحدهما يتناول معنى الآخر كقوله تعالى (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله) فانه يدخل فيهم المساكين وقوله تعالى (أو إطعام عشرة مساكين) فانه يدخل فيهم الفقراء ، وأما إذا قرن بينهما كقوله تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) فهما صنفان وكذلك قوله تعالى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) يدخل فى المعروف كل واجب وفى المنكر كل قبيح ، والقبائح هى السيئات وهى المحظورات كالشرك والكذب والظلم والفواحش.

فاذا قال (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقال (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) نخص بعض أنواع المنكر بالذكر وعطف أحدهما على الآخر صارت دلالة اللفظ عليه نصا مقصوداً بطريق المطابقة بعد أن كانت بطريق العموم والتضمن سواء قيل إنه داخل فى اللفظ العام أيضا فيكون مذكوراً مرتين أو قيل إنه باقترانه بالاسم العام تبين أنه لم يدخل فى الاسم العام لتغيير الدلالة بالافراد والتجرد وبالافتراق والاجتماع كما قدمنا وهكذا اسم الإيمان فانه تارة يذكر مفرداً مجرداً لا يقرن بالعمل الواجب فيدخل فيه العمل الواجب تضمنا ولزوما ، وتارة يقرن بالعمل فيكون العمل حينئذ مذكورا بالمطابقة والنص ولفظ الإيمان يكون مسلوب الدلالة عليه حال الاقتران أو دالا عليه كما فى قوله تعالى : (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة) وقوله سبحانه لموسى عليه السلام : (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) وقوله تعالى (اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة) ونظائر ذلك كثيرة فالأعمال داخلة فى الايمان تضمنا ولزوما فى مثل قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته

زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا) .

وفي مثل قوله سبحانه (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) وقوله عز وجل : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) .

وأمثال ذلك من الكتاب والسنة . ومن استقرأ ذلك علم أن الاسم الشرعى كالإيمان والصلاة والوضوء والصيام لا ينفيه الشارع عن شيء إلا لانتفاء ماهو واجب فيه لا لانتفاء ماهو مستحب فيه وأما قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) ونحو ذلك فالعمل مخصوص بالذكر ، إما توكيد وإما لأن الاقتران لا يغير دلالة الاسم ، فهذا موقف يزول فيه كثير من النزاع اللفظى فى ذلك ، وأيضا فان الإيمان يتنوع بتنوع ماأمر الله تعالى به العبد فحين بعث الرسول لم يكن الايمان الواجب ولا الاقرار ولا العمل مثل الإيمان الواجب فى آخر الدعوة فانه لم يكن يجب إذ ذاك الإقرار بما أنزله الله تعالى بعد ذلك من الإيجاب والتحريم والخبر ولا العمل بموجب ذلك ، بل كان الإيمان الذى أوجبه الله تعالى يزيد شيئا فشيئا كما كان القرآن ينزل شيئا فشيئا ، والدين يظهر شيئا فشيئا حتى أنزل الله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) .

وكذلك العبد أول مايبلغه خطاب الرسول عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام إنما يجب عليه الشهادتان فاذا مات قبل أن يدخل عليه وقت صلاة لم يجب عليه شيء غير الإقرار ومات مؤمنا كامل الإيمان الذى وجب عليه وإن كان إيمان غيره الذى دخلت عليه الأوقات أكمل منه فهذا إيمانه ناقص كنقص دين النساء حيث قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم «إنكن ناقصات عقل ودين ، أما نقصان عقلكن فشهادة امرأتين بشهادة رجل واحد ، وأما نقصان دينكن فان إحداكن إذا حاضت لم تصل» ومعلوم أن الصلاة حينئذ ليست واجبة عليها ، وهذا نقص لا تلام عليه المرأة ، لكن من عمل كاملا كان أفضل منها بخلاف من نقص شيئا مما وجب عليه . فصار النقص فى الدين والايمان نوعين

نوعا لا يذم العبد عليه لكونه لم يجب عليه لعجزه عنه حسا أو شرعا ، وإما لكونه مستحبا ليس بواجب ، ونوعا يذم عليه وهو ترك الواجبات .

فقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لجارية معاوية بن الحكم السلمي لما قال لها «أين الله ؟ قالت في السماء قال من أنا ؟ قالت أنت رسول الله قال اعتقها فانها مؤمنة» ليس فيه حجة على أن من وجبت عليه العبادات فتركها وارتكب المحظورات يستحق الاسم المطلق كما استحقته هذه التي لم يظهر منها بعد ترك مأمور ولا فعل محظور ومن عرف هذا تبين أن قول النبي ﷺ لهذه انها مؤمنة لا ينافي قوله « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » فان ذلك نفى عنه الاسم لانتفاء بعض ما يجب عليه من ترك هذه الكبائر وتلك لم تترك واجبا تستحق بتركه أن تكون هكذا ويتبع هذا أن من آمن بما جاء به الرسل مجملا ثم بلغه مفصلا فأقر به مفصلا وعمل به كان قد زاد ما عنده من الدين والايمان بحسب ذلك .

ومن أذنب ثم تاب أو غفل ثم ذكر أو فرط ثم أقبل فانه يزيد دينه وإيمانه بحسب ذلك كما قال من قال من الصحابة كعمير بن حبيب الخطمي وغيره : الايمان يزيد وينقص ، قيل له فما زيادته ونقصانه قال إذا حمدنا الله وذكرناه وسبحناه فذلك زيادته وإذا غفلنا ونسينا وأضعنا فذلك نقصانه فذكر زيادته بالطاعات وان كانت مستحبة ونقصانه بما أضاعه من واجب وغيره وأيضا فان تصديق القلب يتبعه عمل القلب فالقلب إذا صدق بما يستحقه الله تعالى من الالوهية وما يستحقه الرسول من الرسالة تبع ذلك لا محالة محبة الله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والصلام وتعظيم الله عز وجل ورسوله والطاعة لله ورسوله أمر لازم لهذا التصديق لا يفارقه إلا لعارض من كبر أو حسد أو نحو ذلك من الأمور التي توجب الاستكبار عن عبادة الله تعالى والبغض لرسوله عليه الصلاة والسلام ونحو ذلك من الأمور التي توجب الكفر ككفر إبليس وفرعون وقومه واليهود وكفار مكة وغير هؤلاء من المعاندين الجاحدين .

ثم هؤلاء إذا لم يتبعوا التصديق بموجبه من عمل القلب واللسان وغير ذلك فانه قد يطبع على قلوبهم حتى يزول عنها التصديق كما قال تعالى (وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذونني وقد تعلمون انى رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) فهؤلاء كانوا

عالين فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وقال موسى لفرعون (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) وقال تعالى (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب) إلى قوله سبحانه (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) وقال تعالى (واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) .

فبين سبحانه ان مجيء الآيات لا يوجب الايمان بقوله تعالى (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) أى فتكون هذه الأمور الثلاثة (أن لا يؤمنوا وأن نقلب أفئدتهم وأبصارهم وان نذرهم فى طغيانهم يعمهون) أى وما يدريكم أن الآيات إذا جاءت تحصل هذه الأمور الثلاثة ، وبهذا المعنى تبين أن قراءة الفتح أحسن

وان من قال ان المفتوحة بمعنى لعل فظن أن قوله : (ونقلب أفئدتهم) كلام مبتدأ لم يفهم معنى الآية وإذا جعل ونقلب أفئدتهم داخلا فى خبر أن تبين معنى الآية فان كثيرا من الناس يؤمنون ولا تقلب قلوبهم لكن قد يحصل تقليب أفئدتهم وأبصارهم وقد لا يحصل أى فما يدريكم أنهم لا يؤمنون والمراد وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بل نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة والمعنى وما يدريكم ان الأمر بخلاف ما تظنونه من إيمانهم عند مجيء الآيات (ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) فيعاقبون على ترك الايمان أول مرة بعد وجوبه عليهم إما لكونهم عرفوا الحق وما أقروا به أو تمكنوا من معرفته فلم يطلبوا معرفته ومثل هذا كثير .

(والمقصود هنا) أن ترك ما يجب من العمل بالعلم الذى هو مقتضى التصديق والعلم قد يفضى إلى سلب التصديق والعلم كما قيل : العلم يهتف بالعمل . فان أجابه وإلا ارتحل وكما قيل كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به فما فى القلب من التصديق بما جاء به الرسول إذا لم يتبعه موجبه ومقتضاه من العمل قد يزول إذ وجود العلة يقتضى وجود المعلول وعدم المعلول يقتضى عدم العلة فكما أن العلم والتصديق سبب للارادة والعمل فعدم

الارادة والعمل سبب لعدم العلم والتصديق ثم ان كانت العلة تامة فعدم المعلول دليل يقتضى عدمها وان كانت سببا قد يتخلف معلولها كان له بخلفه أمارة على عدم المعلول قد يتخلف مدلولها وأيضا فالتصديق الجازم فى القلب يتبعه موجبه بحسب الامكان كالارادة الجازمة فى القلب فكما أن الارادة الجازمة فى القلب إذا اقترنت بها القدرة حصل بها المراد أو المقدور من المراد لا محالة كانت القدرة حاصلة ولم يقع الفعل كان الحاصل هى لا إرادة جازمة وهذا هو الذى عفى عنه .

فكذلك التصديق الجازم إذا حصل فى القلب تبعه عمل من عمل القلب لا محالة لا يتصور أن ينفك عنه بل يتبعه الممكن من عمل الخوارج فتى لم يتبعه شيء من عمل القلب علم أنه ليس بتصديق جازم فلا يكون إيمانا لكن التصديق الجازم قد لا يتبعه عمل القلب بتمامه لعارض من الاهواء كالكبر والحسد ونحو ذلك من اهواء النفس لكن الأصل أن التصديق يتبعه الحب وإذا تخلف الحب كان لضعف التصديق الموجب له ولهذا قال الصحابة : كل من يعصى الله فهو جاهل وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار جهلا ولهذا كان التكلم بالكفر من غير اكراه كفرا فى نفس الأمر عند الجماعة وأئمة الفقهاء حتى المرجئة خلافا للجهمية ومن اتبعهم ومن هذا الباب سب الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وبغضه وسب القرآن وبغضه وكذلك سب الله سبحانه وبغضه ونحو ذلك مما ليس من باب التصديق والحب والتعظيم والموالاة بل من باب التكذيب والبغض والمعاداة والاستخفاف .

ولما كان إيمان القلب له موجبات فى الظاهر كان الظاهر دليلا على إيمان القلب ثبوتا وانتفاء كقوله تعالى (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) الآية . وقوله جل وعز (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء) وأمثال ذلك .

(وبعد هذا) فنزاع المنازع فى أن الايمان فى اللغة هل هو اسم لمجرد التصديق دون مقتضاه أو اسم للأمرين يؤول إلى نزاع لفظى وقد يقال ان الدلالة تختلف بالأفراد والاقتران والناس منهم من يقول ان أصل الايمان فى اللغة التصديق .

ثم يقول والتصديق يكون باللسان ويكون بالجوارح ، والقول يسمى تصديقا ، والعمل يسمى تصديقا كقول النبي ﷺ : العينان تزنيـــان وزناهما النظر والأذن تزنى وزناها السمع واليد تزنى وزناها البطش والرجـل تزنى وزناها المشي ، والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يـكذبه .

(وقال الحسن البصرى) ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولـكن بما وقر فى القلب وصدقه العمل . ومنهم من يقول بل الإيمان هو الإقرار وليس هو مرادفا للتصديق ، فان التصديق يقال على كل خبر عن شهادة أو غيب . وأما الإيمان فهو أخص منه فانه قد قيل لخبر أخوة يوسف (وما أنت بمؤمن لنا) وقيل يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين إذ الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام تصديق به والإيمان له تصديق له فى ذلك الخبر ، وهـذا فى الخبر ويقال لمن قال الواحد نصف الاثنين والسماء فوق الأرض قد صدقت ، ولا يقـال آمنت له ، ويقال أصدق بهذا ، ولا يقال اؤمن به إذ لفظ الإيمان افعال من الا من فهو يقتضى طمأنينة وسكونا فيما من شأنه أن يستريب فيه القلب فيخفق ويضطرب وهذا ، إنما يكون فى الاخبار بالمغيبات لا بالمشاهدات .

(والـكلام) على هذا مبسوط فى غير هـذا الموضع ، وإنما المقصود أن فقهـاء المرجئة خلافهم مع الجماعة خلاف يسير وبعضه لفظى ولم يعرف بين الأئمة المشهورين بالفتيا خلاف إلا فى هذا فان ذلك قـول طائفة من فقهاء الـكوفيين كحماد بن أبي سليمان وصاحبـه أبى حنيفة وأصحاب أبى حنيفة . وأما قول الجهمية وهو أن الإيمان مجرد تصديق القلب دون اللسان فهذا لم يقله أحد من المشهورين بالإمامة ، ولا كان قديما فيضاف هذا إلى المرجئة ، وإنما وافق الجهمية عليه طائفة من المتأخرين من أصحاب الأشعرى .

وأما ابن كلاب فـكلامه يوافق كلام المرجئة لا الجهمية وآخر الأقوال حـدوثا فى ذلك قول الـكرامية إن الأيمان اسم للقول باللسان وإن لم يكن معه اعتقاد القلب وهـذا القول أفسد الأقوال لـكن أصحابه لا يخالفون فى الحـكم فانهم يقولون إن هذا الإيمـان باللسان دون القلب هو إيمان المنافقين ، وأنه لا ينفع فى الآخرة وإنمـا أوقع هؤلاء كلهم ما أوقع الخوارج والمعتزلة فى ظنهم أن الإيمان لا يتبعض بل إذا ذهب بعضه ذهب كله .

ومذهب أهل السنة والجماعة أنه يتبعض وأنه ينقص ولا يزول جميعه كما قال النبي ﷺ : (يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان) .

فالأقوال فى ذلك ثلاثة : الخوارج والمعتزلة نازعوا فى الاسم والحكم فلم يقولوا بالتبعيض لا فى الإسم ولا فى الحكم فرفعوا عن صاحب الكبيرة بالكلية اسم الإيمان وأوجبوا له الخلود فى النيران ، وأما الجهمية والمرجئة فنازعوا فى الاسم لا فى الحكم ، فقالوا يجوز أن يكون مثابا معاقبا محموداً مذموما لكن لا يجوز أن يكون معه بعض الإيمان دون بعض وكثير من المرجئة والجهمية من يقف فى الوعيد فلا يجزم بنفوذ الوعيد فى حق أحد من أرباب الكبائر كما قال ذلك من قاله من مرجئة الشيعة والأشعرية كالقاضى أبى بكر وغيره ويذكر عن غلاتهم أنهم نفوا الوعيد بالكلية لكن لا أعلم معينا معروفا أذكر عنه هذا القول ، ولكن حكى هذا عن مقاتل بن سليمان والأشبه أنه كذب عليه .

(وأما أئمة السنة والجماعة) فعلى إثبات التبعيض فى الاسم والحكم فيكون مع الرجل بعض الإيمان لا كله ويثبت له من حكم أهل الإيمان وثوابهم بحسب مامعه كما يثبت له من العقاب بحسب ماعليه وولاية الله تعالى بحسب إيمان العبد وتقواه ، فيكون مع العبد من ولاية الله تعالى بحسب مامعه من الإيمان والتقوى فان أولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

وعلى هذا فالمتأول الذى أخطأ فى تأويله فى المسائل الخبرية والأمرية وإن كان فى قوله بدعة يخالف بها نصا أو إجماعا قديما وهو لا يعلم أنه يخالف ذلك بل قد أخطأ فيه كما يخطىء المفتى والقاضى فى كثير من مسائل الفتيا والقضاء باجتهاده يكون أيضا مثابا من جهة اجتهاده الموافق لطاعة الله تعالى غير مثاب من جهة ماأخطأ فيه وإن كان معفوا عنه ثم قد يحصل فيه تفريط فى الواجب أو اتباع لهوى يكون ذنبا منه ، وقد يقوى فيكون كبيرة وقد تقوم عليه الحجة التى بعث الله عز وجل بها رسله ويعاندها مشاقا للرسول من بعد ماتبين له الهدى متبعا غير سبيل المؤمنين فيكون مرتداً منافقا أو مرتداً ردة

ظاهرة فالكلام فى الأشخاص لا بد فيه من هذا التفصيل ، وأما الكلام فى أنواع الأقوال والأعمال باطنا وظاهرا من الاعتقادات والإرادات وغير ذلك فالواجب فيما تنوزع فيه ذلك أن يرد إلى الله والرسول ، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق وما خالفهما فهو باطل وما وما وافقهما من وجه دون وجه فهو ما اشتمل على حق وباطل فهذا هو .

(والمقصود هنا) أن أهل العلم والإيمان فى تصديقهم لما يصدقون به وتكذيبهم لما يكذبون به وحمدهم لما يحمدونه وذمهم لما يذمونه متفقون على هذا الأصل فلهذا يوجد أئمة أهل العلم والدين من المنتسبين إلى الفقه والزهد يذمون البدع المخالفة للكتاب والسنة فى الاعتقادات والأعمال من أهل الكلام والرأى والزهد والتصوف ونحوهم ، وإن كان فى أولئك من هو مجتهد له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور له .

وقد ثبت عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غير وجه أنه قال : (خير القرون القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) فكان القرن الأول من كمال العلم والإيمان على حال لم يصل إليها القرن الثانى وكذلك الثالث وكان ظهور البدع والنفاق بحسب البعد عن السنن والإيمان ، وكلما كانت البدعة أشد تأخر ظهورها ، وكلما كانت أخف كانت إلى الحدوث أقرب ، فلهذا حدث أولا بدعة الخوارج والشيعة ثم بدعة القدرية والمرجئة . وكان آخر ما حدث بدعة الجهمية حتى قال ابن المبارك ويوسف بن اسباط وطائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم أن الجهمية ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة بل هم زنادقة ، وهذا مع أن كثيراً من بدعهم دخل فيها قوم ليسوا زنادقة بل قبلوا كلام الزنادقة جهلا وخطأ قال الله تعالى : (لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم) فأخبر سبحانه أن فى المؤمنين من هو مستجيب للمنافقين فما يقع فيه بعض أهل الإيمان من أمور بعض المنافقين هو من هذا الباب .

(والمقصود هنا) أن يعلم أنه لم يزل فى أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأن أمته لا تبقى على ضلالة بل إذا وقع منكر من لبس حق بباطل أو غير ذلك ، فلابد أن يقيم الله تعالى من يميز ذلك فلابد من بيان ذلك ولا بد من إعطاء الناس حقوقهم ، كما قالت عائشة رضى الله تعالى عنها :أمرنا رسول الله صلى الله تعالى

عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم . رواه أبو داود وغيره ، وهذا الموضع لايحتمل من السعة وكلام الناس فى مثل هذه الامور التى وقعت ممن وقعت منه بل المقصود التنبيه على جمل ذلك لأن هذا محتاج إليه فى هذه الأوقات فكتب الزهد والتصوف فيها من جنس مافى كتب الفقه والرأى وفى كلاهما منقولات صحيحة وضعيفة بل وموضوعة ، ومقالات صحيحة وضعيفة بل وباطلة . وأما كتب الكلام ففيهما من الباطل أعظم من ذلك بكثير بل فيها أنواع من الزندقة والنفاق .

وأما كتب الفلسفة فالباطل غالب عليها بل الكفر الصريح كثير فيهـا وكتاب الإحياء له حكم نظائره ففيه أحاديث كثيرة صحيحة وأحاديث كثيرة ضعيفة أو موضوعة ، فان مادة مصنفه فى الحديث والآثار وكلام السلف وتفسيرهم للقرآن مادة ضعيفة وأجود ماله من المواد المادة الصوفية ، ولو سلك فيها مسلك الصوفية أهل العلم بالآثار النبوية واحترز عن تصوف المتفلسفة الصابئين لحصل مطلوبه ونال مقصوده لكنه فى آخر عمره سلك هذا السبيل ،وأحسن مافى كتابه أو من أحسن مافيه ماأخذه من كتاب أبى طالب فى مقامات العارفين . ونحو ذلك فان أباطالب أخبر بذوق الصوفية حالا وأعلم بكلامهم وآثارهم سماعا وأكثر مباشرة لشيوخهم الأكابر .

(والمقصود هنا) أن طرق العلم بصدق النبى عليه أفضل الصلاة والسلام بل وتفاوت الطرق فى معرفة قدر النبوة والنبى متعددة تعددا كثيراً إذ النبى يخبر عن الله سبحانه أنه قال ذلك إما إخبارا من الله تعالى وإما أمراً أو نهيا ولكل من حال المخبر والمخبر عنه والمخبر به بل ومن حال المخبرين ـ مصدقهم ومكذبهم ـ دلالة على المطلوب سوى ما ينفصل عن ذلك من الخوارق وأخبار الأولين والهواتف والكهان وغير ذلك . فالمخبر مطلقا يعلم صدقه وكذبه بأمور كثيرة لا يحصل العلم بآحادها كما يحصل العلم بخبر الأخبـار المتواترة بل بخبر الخبر الواحد الذى احتف بخبره قرائن أفادت العلم .

ومن هذا الباب علم الإنسان بعدالة الشـاهد والمحدث والمفتى حتى يزكيهم ويفتى بخبرهم ويحكم بشهادتهم وحتى لايحتاج الحاكم فى عدالة كل شـاهد إلى تزكيته فانه لو احتاج كل مزكى إلى مزكى لزم التسلسل بل يعلم صدق الشخص تارة باختباره ومباشرته ،

وتارة باستفاضة صدقه بين الناس ولهذا قال العلماء : إن التعديل لا يحتاج إلى بيان السبب فان كون الشخص عدلا صادقا لا يكذب لا يتبين بذكر شيء معين بخلاف الجرح فانه لا يقبل إلا مفسرا عند جمهور العلماء لوجهين :

(أحدهما) أن سبب الجرح ينضبط . (الثانى) أنه قد يظن ما ليس بجرح جرحا . وأما كونه صادقا متحريا للصدق لا يكذب فهذا لا يعرف بشيء واحد حتى يخبر به وإنما يعرف ذلك من خلقه وعادته بطول المباشرة له والخبرة له ثم إذا استفاض ذلك عند عامة من يعرفه كان ذلك طريقا للعلم لمن لم يباشره كما يعرف الانسان عدل عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وظلم الحجاج .

ولهذا قال الفقهاء : إن العدالة والفسق يثبتان بالاستفاضة وقالوا فى الجرح المفسر يجرحه بما رآه أو سمعه أو استفاض عنه ، وصدق الانسان فى العادة مستلزم لخصال البر كما أن كذبه مستلزم لخصال الفجور كما ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (عليكم بالصدق فان الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فان الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) وكما أن الخبر المتواتر يعلم لكونه خبر من يمتنع فى العادة اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب ، والخبر المنكر الكذب يعلم لكونه لم يخبر به من يمتنع فى العادة اتفاقهم على الكتمان فخلق الشخص وعادته فى الصدق والكذب يمتنع فى العادة أن يخفى على الناس فلا يوجد أحد يظهر تحرى الصدق وهو يكذب إذا أراد إلا ولا بد أن يتبين كذبه فان الانسان حيوان ناطق فالكلام له وصف لازم ذاتى لا يفارقه ،والكلام اما خبر واما انشاء والخبر أكثر من الانشاء وأصل له كما أن العلم أعم من الإرادة وأصل لها . والمعلوم أعظم من المراد ، فالعلم يتناول الموجود والمعدوم والواجب والممكن والممتنع وما كان وما سيكون وما يختاره العالم وما لا يختاره

وأما الارادة فتختص ببعض الأمور دون بعض والخبر يطابق العلم فكل ما يعلم يمكن الخبر به والانشاء يطابق الارادة ، فان الأمر اما محبوب يؤمر به أو مكروه ينهى

عنه ، وأما ما ليس بمحبوب ولا مكروه ، فلا يؤمر به ولا ينهى عنه وإذا كان كذلك فالانسان إذا كان متحريا للصدق عرف ذلك منه وإذا كان يكذب أحيانا لغرض من الأغراض لجلب ما يهواه أو دفع ما يبغضه أو غير ذلك ، فان ذلك لا بد أن يعرف منه وهذا أمر جرت به العادات كما جرت بنظائره فلا تجد أحدا بين طائفة من الطوائف طالت مباشرتهم له إلا وهم يعرفونه هل يكذب أو لا يكذب؟ .

ولهذا كان من سنة القضاة إذا شهد عندهم من لا يعرفونه كان لهم أصحاب مسائل يسألون عنه جيرانه ومعامليه ونحوهم ممن له به خبرة فمن خبر شخصا خبرة باطنة فانه يعلم من عادته علما يقينيا أنه لا يكذب لا سيما فى الأمور العظام . ومن خبر عبد الله ابن عمر وسعيد بن المسيب وسفيان الثورى ومالك بن أنس وشعبة بن الحجاج ويحيى ابن سعيد القطان وأحمد بن حنبل وأضعاف أضعافهم حصل عنده علم ضرورى من أعظم العلوم الضرورية أن الواحد من هؤلاء لا يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ ومن تواترت عنه أخبارهم من أهل زماننا وغيرهم حصل له هذا العلم الضرورى ولكن قد يجوز على أحدهم الغلط الذى يليق به ، ثم خبر الفاسق والكافر بل ومن عرف بالكذب قد تقترن به قرائن تفيد علما ضروريا ان المخبر صادق فى ذلك الخبر فكيف ممن عرف منه الصدق فى الأشياء فمن كان خبيرا بحال النبى ﷺ مثل زوجته خديجة وصديقه أبى بكر إذا أخبره النبى صلى الله عليه وسلم بما رآه أو سمعه حصل له علم ضرورى بأنه صادق فى ذلك ليس هو كاذبا فى ذلك ثم إن النبى لا بد أن يحصل له علم ضرورى بأن ما اتاه صادق أو كاذب فيصير إخباره عما علمه بالضرورة كأخبار أهل التواتر عما علموه بالضرورة .

وأيضا فالتنبى الكذاب كمسيلمة والعنسى ونحوهما يظهر لمخاطبه من كذبه فى أثناء الأمور أعظم مما يظهر من كذب غيره فانه إذا كان الاخبار عن الأمور المشاهدة لا بد أن يظهر فيه كذب الكاذب فما الظن بمن يخبر عن الأمور الغائبة التى تطلب منه ومن لوازم النبى التى لا بد منها الاخبار عن الغيب الذى أنبأه الله تعالى به فان من لم يخبر عن غيب لا يكون نبيا فاذا أخبرهم المتنبىء عن الأمور الغائبة عن حواسهم من الحاضرات والمستقبلات والماضيات فلا بد أن يكذب فيها ويظهر لهم كذبه وان كان قد يصدق

أحيانا فى شيء كما يظهر كذب الكهان والمنجمين ونحوهم وكذب المدعين للدين والولاية والمشيخة بالباطل فان الواحد من هؤلاء وان صدق فى بعض الوقائع فلا بد أن يكذب فى غيرها بل يكون كذبه أغلب من صدقه بل تتناقض أخباره وأوامره وهذا أمر جرت به سنة الله التى لن تجد لها تبديلا ، قال تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وأما النبى الصادق المصدوق فهو فيما يخبر به عن الغيوب توجد أخباره صادقة مطابقة وكلما زادت أخباره ظهر صدقه وكلما قويت مباشرته وامتحانه ظهر صدقه كالذهب الخالص الذى كلما سبك خلص وظهر جوهره بخلاف المغشوش فانه عند المحنة ينكشف ويظهر أن باطنه خلاف ظاهره . ولهذا جاء فى النبوات المتقدمة أن الكذاب لا يدوم أمره أكثر من مدة قليلة اما ثلاثين سنة واما أقل فلا يوجد مدعى النبوة كذابا الا ولا بد أن ينكشف ستره ويظهر أمره والأنبياء الصادقون لا يزال يظهر صدقهم بل الذين يظهرون العلم ببعض الفنون والخبرة ببعض الصناعات والصلاح والدين والزهد لا بد أن يتميز هذا من هذا وينكشف فالصادقون يدوم أمرهم والكذابون ينقطع أمرهم هذا أمر جرت به العادة وسنة الله التى لن تجد لها تبديلا .

وأما المخبر عنه وبه كالنبى يخبر عن الله تعالى بأنه أخبر بكذا أو أنه أمر بكذا فلا بد أن يكون خبره صدقا وأمره عدلا (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم) والأمور التى يخبر بها ويأمر بها تارة تنبه العقول على الأمثال والأدلة العقلية التى يعلم بها صحتها فيكون ما علمته العقول بدلالته وارشاده من الحق الذى أخبر به والخير الذى أمر به شاهد بأنه هاد ومرشد معلم للخير ليس بمضل ولا مغو ولا معلم للشر وهذه حال الصادق البر دون الكاذب الفاجر فان الكاذب الفاجر لا يتصور أن يكون ما يأمر به عدلا وما يخبر به حقا وإذا كان أحيانا يخبر ببعض الأمور الغائبة كشيطان يقرن به يلقى إليه ذلك أو غير ذلك فلا بد أن يكون كاذبا فاجرا كما قال تعالى : (قل هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) .

وهذا بيان ، لأن الذى يأتيه ملك لا شيطان ، فان الشيطان لا ينزل على الصادق البار ما دام صادقا بارا إذ لا يحصل مقصوده بذلك وإنما ينزل على من يناسبه فى التشطين

وهو الكاذب الأثيم ، والأثيم الفاجر ، وتارة يخبر النبي بأمور ويأمر بأمور لا يتبين للعقول صدقها ومنفعتها فى أول الأمر فاذا صدق الانسان خبره وأطاع أمره وجد فى ذلك من البيان للحقائق والمنفعة والفوائد ما يعلم به ان عنده من عظيم العلم والصدق والحكمة ما لا يعلمه إلا الله تعالى أعظم مما يتبين به صدق الطبيب إذا استعمل ما يصفه من الأدوية ، وصدق العقل المشير إذا استعمل ما يراه من الآراء وأمثال ذلك وحينئذ فيحصل للنفوس علم ضرورى بكمال عقله وصدقه فاذا أخبر بعد ذلك عن أمور ضرورية يراها أو يسمعها حصل للنفوس علم ضرورى بأنه صادق لا يتعمد الكذب وانه متيقن لما أخبر به ليس فيه خطأ ولا غلط أعظم مما يتبين به صدق من أخبر عما رآه من الرؤيا أو عما رآه من العجائب وأمثال ذلك فان الخبر إنما تأتيه الآفة من تعمد الكذب أو الخطأ بأن يظن الأمر على خلاف ما هو عليه فان كان من العلوم الضرورية التى كلما دامت قويت وظهرت وزادت زال احتمال الخطأ وما كان يتحرى الصدق الذى يعلم معه بالضرورة وانتفاء تعمد الكذب هو وغيره من الأمور التى يعلم معها انتفاء تعمد الكذب ويزول معه احتمال تعمده وأما العلم بالعدل فيما يؤمر به وبالعدل الفاضل فيما يأمره .

فهذا يعلم تارة مما نبينه من الادلة العقلية ونضربه من الأمثال وهذا هو الغالب على ما يذكره الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أصول الدين علما وعملا . وتارة يظهر ذلك بالتجربة والامتحان وتارة يستدل بما علم على ما يعلم .

وأيضا فقد علم ان العالم ما زال فيه نبوة من آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ فالنبى الثانى يعلم صدقه بأمور منها اخبار النبى الأول به كما بشر بنبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام الأنبياء قبله ، وكذلك بشر بالمسيح الأنبياء قبله . وتارة يعلم صدقه بأن يأتى بمثل ما أتوا به من الخبر والأمر ؛ فان الكذاب الفاجر لا يتصور أن يكون فى اخباره وأوامره موافقا للأنبياء بل لا بد أن يخالفهم فى الأصول الكلية التى اتفق عليها الأنبياء كالتوحيد والنبوات والمعاد كما أن القاضى الجاهل أو الظالم لا بد أن يخالف سنة القضاة العالمين العادلين . وكذلك المفتى الجاهل أو الكاذب ، والطبيب الكاذب أو الجاهل فان كل هؤلاء لا بد أن يتبين كذبهم أو جهلهم بمخالفتهم لما مضت به سنة أهل العلم والصدق .

وان كان قد يخالف بعضهم بعضا فى أمور اجتهادية فانه يعلم الفرق بين ذلك وبين المخالفة فى الأصول الكلية التى لا يمكن انخرامها ولهذا يتميز للناس فى الأمراء والحكام والمفتين والمحدثين والأطباء وسائر الأصناف بين العالم الصادق وان خالف غيره من أهل العلم فى الصدق فى أشياء وبين من يكون جاهلا أو كاذبا ظالما ويفرقون بين هذا وهذا كما أنهم يعلمون من سيرة أبى بكر وعمر من العلم والعدل ما لا يرتابون فيه وان كان بينهما منازعات فى أمور اجتهادية كالتفضيل فى العطاء ونحو ذلك .

وأيضا فاذا أخبر اثنان عن قضية طويلة ذات أجزاء وشعب لم يتواطآ عليها ويمتنع فى العادة اتفاقهما فيها على تعمد الكذب والخطأ علمنا صدقهما مثل أن يشهد رجلان واقعة من وقائع الحروب ، أو يشهدا الجمعة أو العيد أو موت ملك أو تغير دولة ونحو ذلك أو يشهدا خطبة خطيب أو كتابا لبعض الولاة أو يطالعا كتابا من الكتب أو يحفظاه ونعلم انهما لم يتواطآ ثم يجيء أحدهما فيخبر بذلك كله مفصلا شيأ فشيأ من غير تواطىء فيعلم أنهما صادقان ويخبر الآخر بمثل ما أخبر به الأول مفصـــلا شيأ فشيأ من غير تواطىء فيعلم انهما صادقان حتى لو كان رجلان يحفظان بعض قصائد العرب كقصيدة امرىء القيس أو غيرها وهناك من لا يحفظها وهناك شخصان لا يعرف أحدهما الآخر فقال الذى لا يحفظها لأحدهما أنشدنيها فأنشدها ثم طلب الآخر وقال له أنشـــدنيها فأنشدها كما أنشد الأول علم المستمع انها هى هى بل وكذلك كتب الفقه والحديث واللغة والطب وغير ذلك ، ولو بعث بعض الملوك رسلا إلى أمرائه ونوابه فى أمرمن الأمور ثم أخبر أحد الرسولين بأنه أمر بأمر ذكره وفصله وأخبر الآخر بمثل ذلك للقوم الذين أرسل إليهم من غير علم منه بإرسال الآخر لعلم قطعا أن ذلك الأمر هو الذى أمر به المرسل وإنهما صادقان فانه يعلم علما ضروريا أنه يمتنع فى الكذب والخطأ أن يتفق فى مثل هذا .

ومعلوم أن موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين كانوا قبـــل نبينا محمد ﷺ قد أخبروا عن الله سبحانه وتعالى من توحيده وأسمائه وصفاته وملائكته وأمره ونهيه ووعده ووعيده وإرساله بما أخبروا به .

ومعلوم أيضا لمن علم حال سيدنا محمد ﷺ أنه كان رجلا أميا نشأ بين قوم أميين ، ولم يكن يقرأ كتابا ولا يكتب بخطه شيئا كما قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) وإن قومه الذين نشأ بينهم لم يكونوا يعلمون علوم الأنبياء بل كانوا من أشد الناس شركا وجهلا وتبديلا وتكذيبا بالمعاد .

وكانوا من أبعد الأمم عن توحيد الله سبحانه . ومن أعظم الأمم إشراكا بالله عز وجل . ثم إذا تدبرت القرآن والتوراة وجدتهما يتفقان فى عامة المقاصد الكلية من التوحيد والنبوات والأعمال الكلية وسائر الأسماء والصفات ومن كان له علم بهذا علم علما ضروريا ماقاله النجاشى: إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة وما قاله ورقة بن نوفل إن هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى قال تعالى (قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله) وقال تعالى (فان كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك) وقال تعالى (قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب)

وأمثال ذلك مما يذكر فيه شهادة الكتب المتقدمة بمثل ما أخبر به نبينا محمد ﷺ ، وهذه الأخبار منقولة عند أهل الكتاب بالتواتر كما نقل عندهم بالتواتر معجزات موسى وعيسى عليهما السلام ، وإن كان كثير مما يدعونه من أدق الأمور لم يتواتر عندهم لانقطاع التواتر فيهم فالفرق بين الجمل الكلية المشهورة التى هى أصل الشرائع التى يعلمها أهل الملل كلهم وبين الجزئيات الدقيقة التى لا يعلمها إلا خواص الناس ظاهر ولهذا كان وجوب الصلوات الخمس وشهر رمضان وحج البيت وتحريم الفواحش والكذب ، ونحو ذلك متواترا عند عامة المسلمين وأكثرهم لايعلمون تفاصيل الأحكام والسنن المتواترة عند الخاصة ، فاذا كان فى الكتب التى بأيدى أهل الكتاب وفيما ينقلونه بالتواتر مايوافق ماأخبر به نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان فى ذلك فوائد جليلة هى من بعض حكمه إقرارهم بالجزية :

(أحدها) أنه إذا علم اتفاق الرسل على مثل هذا علم صدقهم فيما أخبروا به عن الله تعالى حيث أخبر محمد عليه الصلاة والسلام بمثل ماأخبر به موسى من غير تواطىء ولا تشاعر .

(الثانى) أن ذلك دليل على اتفاق الرسل كلهم فى أصول الدين كما يعلم أن رسل الله قبله كانوا رجالا من البشر لم يكونوا ملائكة فلا يجمل سيدنا محمد ﷺ هو الذى جاء بها كما قال تعالى (قل ما كنت بدعا من الرسل) وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون . حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

(الثالث) أن هذه آية على نبوة نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حيث أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء من غير تعلم من بشر وهذه الأمور هى من الغيب قال تعالى (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) وقال تعالى (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) وقال تعالى (وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون . ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون . قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين . فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين . ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون . الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين »

وكثير من أهل الكتاب آمنوا بمثل هذه الطرق قال تعالى: (قل آمنوا به أولا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا ، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) وقال تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب) . وقال تعالى : (ويرى الذين أوتو العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) .

(ولا ريب) ان منكرى النبوات لهم شبه . منها انكار أن يكون رسول الله بشرا . ومنها دعوى أن الذى يأتيه شيطان لا ملك وغير ذلك وكل ذلك قد أجاب الله تعالى عنه فى القرآن العظيم وقرر ذلك بأبلغ تقرير لكن جواب هذا السؤال لا يتسع لبسط ذلك فى القرآن ، قال تعالى (الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجبا ان أوحينا إلى رجل منهم ان أنذر الناس) . وقال تعالى : (وما منع الناس ان يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) وقال تعالى : (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا إلا سحر مبين . وقالوا لو لا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) بين أن الرسول لو كان ملكا لكان فى صورة رجل إذا لا يستطيعون الأخذ عن الملك على صورته ولو كان فى صورة رجل لعاد اللبس وقالوا (ابعث الله بشرا رسولا) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) . فأمر سبحانه بمسألة أهل الذكر إذ ذلك مما تواتر عندهم ان الرسل كانوا رجالا . وقال تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية)

(وبالجملة) فتقرير النبوات من القرآن أعظم من أن يشرح فى هذا المقام إذ ذلك

هو عماد الدين وأصل الدعوة النبوية وينبوع كل خير وجماع كل هدى ، وأما حال المخبر عنه فان النبي والرسول يخبر عن الله تعالى بأنه أرسله ولا أعظم فرية ممن يكذب على الله جل وعز كما قال تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) ذكر هذا بعد قوله (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ، وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) .

فنقض سبحانه دعوى الجاحد النافى للنبوة بقوله : (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) . وذلك الكتاب ظهر فيه من الآيات والبينات وأتبعه كل الأنبياء والمؤمنين وحصل فيه ما لم يحصل فى غيره ، فكانت البراهين والدلائل على صدقه أكثر وأظهر من أن تذكر بخلاف الانجيل وغيره .

وأيضا فانه أصل ، والانجيل تبع له إلا فيما أحله المسيح وهذا كما يقول سبحانه (أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا) أى القرآن والتوراة وفى القراءة الأخرى قالوا ساحران أى محمد والقرآن وكذلك قوله : (انا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا) الآية وكذلك قوله : (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة) وكذلك قول الجن (انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم)

ولهذا كانت قصة موسى هى أعظم قصص الأنبياء المذكورين فى القرآن وهى أكبر من غيرها وتبسط أكثر من غيرها قال عبد الله بن مسعود كان رسول الله ﷺ عامة دهره يحدثنا عن بنى إسرائيل ، ولما قرر الصدق بين حال الكذابين بأنهم ثلاثة أصناف

إذ لا يخلو الكذاب من أن يضيف الكذب إلى الله تعالى ويقول انه أنزله أو يحذف فاعله ولا يضيفه إلى أحد أو أن يقول انه هو الذى وضعه معارضا فقال تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) وأما المخبر عنه فانه الله تعالى .

ولا ريب انه يعلم من أمور الرب سبحانه بما نصبه من الأدلة المباينة الحسية التى يعقل بها نفسها وبالأمثال المضروبة وهى الأقيسة العقلية ما يمتنع معه خفاء كذب الكاذب بل يمتنع معه خفاء صدق الصادق فالدجال مثلا قد علم بوجوه متعددة ضرورية انه ليس هو الله وانه كافر مفتر وإذا كانت دعواه معلوما كذبها ضرورة لم يكن ما يأتى به من الشبهات مصدقا لها إذ العصمة الضرورية لا تقدح فيها الطرق النظرية . فان الضروريات أصل النظريات فلو قدح بها فيها لزم إبطال الأصل بالفرع فيبطلان جميعا فانه يظهر أيضا من عجزه ما ينفى دعواه .

وكذلك من أباح الفواحش والمظالم والشرك والكذب مدعيا للنبوة يعلم بالاضطرار كذبه للعلم الضرورى بأن الله سبحانه لا يأمر بهذا سواء قيل ان العقل يعلم به حسن الأفعال وقبحها أو لا يعلم به فليس كلما أمكن فى العقل وقوعه ، وكان الله قادرا عليه يشك فى وقوعه بل نحن نعلم بالضرورة ان البحار لم تنقلب دما وان الجبال لم تنقلب يواقيت ، وأمثال ذلك من المعادن ، وان لم يسند ذلك إلى دليل معين وان كنا عالمين بأن الله تعالى قادر على قلب ذلك لكن العلم بالوقوع وعدمه شيء والعلم بامكان ذلك من قدرة الله سبحانه شيء وكل ذى فطرة سليمة يعلم بالاضطرار ان الله تعالى لا يأمر عباده بالكذب والظلم والشرك والفواحش وأمثال ذلك مما قد يأتى به كثير من الكذابين بل يعلم بفطرته السليمة ما يناسب حال الربوبية وهذا باب واسع ، ليس هذا موضع بسطه ولكن نذكر ما أشار إليه مصنف العقيدة .

(فصل)

فهذه الطرق سلكها أكثر أهل الكلام وغيرهم ولهم فى تقرير دلالة المعجزة على الصدق طرق . (أحدها) ان اظهار المعجزه على يدى المتنبي الكذاب قبيح والله سبحانه

منزه عن فعل القبيح ، وهذه الطرق سلكها المعتزلة وغيرهم ممن يقول بالتحسين والتقبيح وطعن فيها من ينكر ذلك ثم ان المعتزلة جعلوا هذه أصل دينهم والتزموا بها لوازم خالفوا بها نصوص الكتاب والسنة بل وصريح العقل في مواضع كثيرة وحقيقة أمرهم انهم لم يصدقوا الرسول إلا بتكذيب بعض ما جاء به وكأنهم قالوا لا يمكن تصديقه في البعض إلا بتكذيبه في البعض لكنهم لا يقولون انهم يكذبونه في شيء بل تارة يطعنون في النقل وتارة يتأولون المنقول ولكن يعلم بطلان ما ذكروه اما ضرورة واما نظرا وذلك أنهم قالوا إن السمع مبني على صدق الرسول وصدقه على ان الله تعالى منزه عن فعل القبيح فان تأييد الكذاب بالمعجزة قبيح والله منزه عنه قالوا والدليل على انه منزه عنه أن القبيح لا يفعله إلا جاهل بقبحه أو محتاج والله سبحانه منزه عن الجهل والحاجة والدليل على ذلك أن المحتاج لا يكون إلا جسما والله تعالى ليس بجسم .

(والدليل) على انه ليس بجسم هو ما دل على حدوث العالم ، والدليل على حدوث العالم انه أجسام وأعراض وكلاهما محدث والدليل على حدوث الأجسام انها لا تخلو عن الحوادث ومالا يخلو عن الحوادث فهو حادث والدليل على ذلك انها لا تنفك عن الحركة والسكون وهما حادثان لامتناع حوادث لا أول لها ثم التزموا لذلك حدوث كل موصوف بصفة لأن الصفات هي الأعراض والأعراض لا تقوم إلا بجسم وقد قام الدليل على حدوث الجسم فالتزموا لذلك أن لا يكون لله علم ولا قدرة وان لا يكون متكلما قام به الكلام بل يكون القرآن وغيره من كلامه تعالى مخلوقا خلقه في غيره ولا يجوز أن يرى لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا هو مباين للعالم ولا محايثه ولا داخل فيه ولا خارج عنه ثم قالوا أيضا لا يجوز أن يشاء خلاف ما أمر به ولا أن يخلق افعال عباده ولا يقدر أن يهدي ضلالا ولا يضل مهتديا لأنه لو كان قادرا على ذلك وقد أمر به ولم يعن عليه لكان قبيحا منه ، فركبوا عن هذا الأصل التكذيب بالصفات والتكذيب بالقدر وسموا أنفسهم أهل التوحيد والعدل وسموا من أثبت الصفات من سلف الأمة وائمتها مشبهة ومجسمة ومجبرة وحشوية وجعلوا مالكا وأصحابه والشافعي وأصحابه وأحمد وأصحابه وغيرهم من هؤلاء الحشوية إلى أمثال هذه الأمور التي بسطنا الكلام عليها في غير هذا الموضع وأصل ضلالهم في القدر انهم شبهوا المخلوق بالخالق سبحانه فهم مشبهة الأفعال .

وأما أصل ضلالهم في الصفات فظنهم ان الموصوف الذي تقوم به الصفات لا يكون إلا محدثاً . وقولهم من أبطل الباطل فإنهم يسلمون ان الله حي عليم قدير ومن المعلوم ان حيا بلا حياة وعليما بلا علم وقديرا بلا قدرة مثل متحرك بلا حركة وأبيض بلا بياض وأسود بلا سواد وطويل بلا طول وقصير بلا قصر ونحو ذلك من الأسماء المشتقة التي يدعى فيها نفي المعنى المشتق منه وهذا مكابرة للعقل والشرع واللغة .

الثاني انه أيضا من المعلوم ان الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل لا غيره فإذا خلق سبحانه كلاما في محل وجب أن يكون ذلك المحل هو المتكلم به فتكون الشجرة هي القائلة لموسى انني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ويكون كلما أنطقه الله تعالى من المخلوقات كلامه كلاما لله تعالى وبسط هذا له موضع غير هذا .

(والمقصود هنا) ما يتعلق بتقرير النبوة وقد يقال يمكن تقرير كونه سبحانه منزها عن تأييد الكذاب بالمعجزة من غير بناء على أصل المعتزلة بما علم من حكمة الله تعالى في مخلوقاته ورحمته ببريته وسنته في عباده . فان ذلك دليل على أنه لا يؤيد كذابا بمعجزة لا معارض لها .

ويمكن بسط هذه الطريقة وتقريرها بما ليس هذا موضعه في أنه كما علم بما في مصنوعاته من الأحكام والاتقان أنه عالم ، وبما أن فيها من التخصيص أنه مريد فيعلم بما فيها من النفع للخلائق أنه رحيم وبما فيها من الغايات المحمودة أنه حكيم ، والقرآن يبين آيات الله الدالة على قدرته ومشيئته وآياته الدالة على إنعامه ورحمته وحكمته ، ولعل هذا أكثر في القرآن كقوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) وقوله تعالى : (أفرأيتم ما تمنون . أءنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون : أفرأيتم ما تحرثون أءنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون : أنا لمغرمون بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذي تشربون أءنتم أنزلتموه من المزن أم

نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون : أفرأيتم النار التي تورون . أءنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم) وقوله سبحانه (ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا) وقوله عز وجل (فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم) وقوله جل وعز (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) وهو سبحانه في سورة الرحمن يقول في عقب كل آية (فبأي آلاء ربكما تكذبان) وهو يذكر فيها مايدل على خلقه وعلمه وقدرته ومشيئته وما يدل على انعامه ورحمته وحكمته .

وكذلك ذكر في مخاطبة الرسل للكفار كقوله سبحانه (قال فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لايضل ربي ولا ينسى . الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى)

ومثل هذا في القرآن كثير وما فطر فيه من المخلوقات دل على ذلك ، وفي نفس الإنسان عبرة تامة فان من نظر في خلق أعضائه وما فيها من المنافع له وما في تركيبها من الحكمة والمنفعة مثل كون ماء العين مالحاً ليحفظ شحمة العين من أن تذوب وماء الأذن مراً ليمنع الذباب من الولوج ، وماء الفم عذبا ليطيب ما يمضغ من الطعام ، وأمثال ذلك علم علما ضروريا أن خالق ذلك له من الرحمة والحكمة مايبهر العقول مع ما في ذلك من الدلالة على المشيئة ، ثم إذا استقرأ مايجده في نوع الإنسان من أن كل من عظم ظلمه للخلق وضراره لهم كانت عاقبته عاقبة سوء ، واتبع اللعنة والذم .

ومن عظم نفعه للخلق وإحسانه إليهم كانت عاقبته عاقبة خير ، وأمثال ذلك استدل

بما علم على مالم يعلم حتى يعلم أن الدولة ذات الظلم والجبن والبخل سريعة الانقضاء كما قال تعالى (مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا) وقال عز وجل (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) كذلك سنته فى الأنبياء الصادقين وأتباعهم من المؤمنين وفى الكذابين والمكذبين بالحق إن هؤلاء ينصرهم ويبقى لهم لسان صدق فى الآخرين وأولئك ينتقم منهم ويجعل عليهم اللعنة .

فبهذا وأمثاله يعلم انه لا يؤيد كذابا بالمعجزة لا معارض لها لأن فى ذلك من الفساد والضرر بالعباد ما تمنعه رحمته وفيه من سوء العاقبة ما تمنعه حكمته وفيه من نقض سنته المعروفة وعادته المطردة ما تعلم به مشيئته قال تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) وقال تعالى : (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا) وقال تعالى : (أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك) ثم قال (ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور) وقال تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) وقال تعالى : (وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) (قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد) .

(فصل)

وهذه الطريق لم يسلكها أبو الحسن الاشعرى وأصحابه ومن وافقه من علماء المذهب كالقاضى أبى يعلى وابن عقيل وابن الزاغونى والاستاذ أبى المعالى وصاحبه الانصارى ، والشهرستانى وأمثالهم وأبى الوليد الباجى والمازرى ونحوهم بناء على أنهم لايرون تنزيه الرب سبحانه عن فعل من الافعال لأنهم قد علموا أن له أن يفعل مايشاء وهم لايقولون بالتحسين والتقبيح العقليين حتى يقولوا إن الفعل الفلانى قبيح وهو منزه عن فعل

القبيح بل عندهم أن الظلم غير مقدور إذا الظلم التصرف فى ملك غيره فمهما فعل كان تصرفا فى ملكه فلم يكن ظلما ، بل يقولون إنه يجوز أن يأمر بكل شىء وينهى عن كل شىء ولا يجعلون للأفعال صفات باعتبارها يكون الحسن والقبح ، وانتهى ماأثبتوه من الصفات بالعقل إلى أنه حى عليم قدير مريد ، وأثبتوا مع ذلك أنه سميع بصير متكلم . فأما الرحمة والحكمة ونحو ذلك فلم يثبتوها بالعقل بل قد ينفون الحكمة التى هى الغايات والمقاصد فى أفعاله ويمنعون أن يفعل شيئا لأجل شىء كما قد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع .

(فان المقصود هنا) التنبيه على طرق الناس فى النبوة والكلام عليها بحسب العدل والإنصاف لأبسط الكلام فى كل ماتنازعوا فيه . ومسألة التحسين والتقبيح العقليين هى كما تنازع فيها عامة الطوائف ، فقال بكل من القولين طوائف من المالكية والشافعية والحنبلية ومن قال بالاثبات من الحنبلية أبو الحسن التميمى وأبو الخطاب ، ومن قال بالنفى أبو عبدالله ابن حامد وصاحبه القاضى أبو يعلى وأكثر أصحابه .

ومسألة حكم الأعيان قبل ورود الشرع هى فى الحقيقة من فروعها . وقد قال فيها بالحظر أو الإباحة أعيان من هذه الطوائف . وأما الحنفية فالغالب عليهم القول بالتحسين والتقبيح العقليين ، وذكروا ذلك نصا عن أبى حنيفة رحمه الله تعالى وأهل الحديث فيها أيضا على قولين ومن قال بالإثبات أبو النصر السجزى وصاحبه الشيخ أبو القاسم سعيد ابن على الزنجانى : فأما ما اختصت به القدرية فهذا لا يوافقهم عليه أحد من هؤلاء ولكن هؤلاء هم وجمهور الفقهاء بل وجمهور الأمة يرون أن للأفعال صفات يتعلق الأمر والنهى بها لأجلها . وملخص ذلك أن الله تعالى إذا أمر بأمر فانه حسن بالاتفاق وإذا نهى عن شىء فانه قبيح بالاتفاق ، لكن حسن الفعل وقبحه إما أن ينشأ من نفس الفعل والأمر والنهى كاشفان أو ينشأ من نفس تعلق الأمر والنهى به أو من المجموع .

فالأول هو قول المعتزلة ولهذا لا يجوزون نسخ العبادة قبل دخول وقتها لأنه يستلزم أن يكون الفعل الواحد حسنا قبيحا ، وهذا قول أبى الحسن التميمى من أصحاب أحمد وغيره من الفقهاء .

والثانى : قول الأشعرية ومن وافقهم من الظاهرية وفقهـــاء الطوائف ، وهؤلاء يجعلون علل الشرع مجرد أمارات ، ولا يثبتون بين العلل والأفعال مناسبة ، لكن هؤلاء الفقهاء متناقضون فى هذا الباب فتارة يقولون بذلك موافقة للأشعرية المتكلمين ، وهم فى أكثر تصرفاتهم يقولون بخلاف ذلك كما يوجد مثل هذا فى كلام فقهاء المالكية والشافعية والحنبلية .

وإما أن يكون ذلك ناشئا من الأمرين وهذا مذهب الأئمة وعليه تجرى تصرفات الفقهاء فى الشريعة ، فتارة يؤمر بالفعل لحكمة تنشأ من نفس الامر دون المأمور به ، وهذا هو الذى يجوز نسخه قبل التمكين كما نسخت الصلاة ليلة المعراج من خمسين إلى خمس وكما نسخ أمر ابراهيم بذبح ابنه عليهما السلام .

(وبالجملة فجمهور) الأئمة على أن الله تعالى منزه عن أشياء هو قادر عليها ولا يوافقون هؤلاء على أنه لا ينزه عن مقدور الظلم الذى نزه الله سبحانه عنه نفسه فى القرآن وحرمه على نفسه وهو قادر عليه وهو هضم الإنسان من حسناته أو حمل سيئات غيره عليه كما قال تعالى (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) وهؤلاء الجمهور لا يوافقون المعتزلة على قولهم أن الله تعالى لم يخلق أفعال العباد ولا شاء الكائنات بل يقولون إن الله خلق كل شىء وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لكنهم مع هذا يثبتون لفعله حكمة وينزهونه عن القبائح ، وهذا قول الكرامية وغيرهم من أهل الكلام وهو قول أكثر الصوفية وأكثر أهل الحديث وجمهور السلف والأئمة وجمهور المسلمين والنظار لكن ليس هذا موضع بسطه .

وهؤلاء يسلكون فى إثبات النبوة ما سلكه ابن عقيل وغيره فى مواضع أخر إذ أثبت حكم الله تعالى فيها حيث قال النبوات واسطة بين الله تعالى وبين خلقه فى الافعال والتروك المتضمنة لمصالح المكلفين والثقة بها طريقها ماسبق فى علومنا باستدلالنا على أن البارى حكيم لا يؤيد كذابا بالمعجزة ، ولا يمكن من معجزاته إلا من صدق فيما يخبر به عنه ، فلما علمنا ذلك وتحققناه ، حصلت لنا الثقة بمن تكاملت فيه شرائط النبوة ، وعلمنا أنه سفير فيما بيننا وبين الله تعالى ، وأنه رسوله فيما اخبرنا به عنه قبلناه من غير تكشف عليـــه

بعقولنا ولا نضرب له الأمثال بآرائنا وعاداتنا بل نعتقد انه جاء من عند حكمته فوق حكمتنا وتدبيره فوق تدبيرنا ولا يمتنع فى العقل ولا تمنع الحكمة من أن يجعل الأنبياء مذكرين للعقلاء وموقظين لهم ومرشدين إلى الاصلح الذى لا يدرك بالعقل ولا يبلغ كنهه بالرأى والفحص وما هذا إلا كما جعل بعض العقلاء حكيما واعظا مذكرا مؤدبا وبعضهم يحتاج إلى مذكر ومؤدب ولا أحد منع من ذلك فثبت حسن الرسالة بالعقل ولأن الله جل وعز فى الأفعال والتروك أسرارا من المصالح التى لا يعلمها العقلاء ولا يدركونها بعقولهم فاحتاجوا إلى النبوات .

(قلت والمقصود هنا) ان من لم ينزهه عن فعل مقدور له بل جوز أن يفعل كلما يمكن ولم يثبت لفعله حكمة غير تعلق الحكم بالمفعولات وتعلق المشيئة بها فانه احتاج فى دلالة المعجزة على الصدق إلى غير تلك الطريق فسلكوا طريقين سلك كل طائفة من أهل الكلام والفقه من أصحاب مالك والشافعى وأبى حنيفة وأحمد :

(أحدها) وهو قول أكثر شيوخهم المتقدمين ان وجه دلالة المعجزة على صدق مدعى النبوة امتناع تعجيز الاله عن نصب الدلالة على صدق الرسل فان تصديقهم ممكن وذلك معلوم بالضرورة والاستدلال ولادليل إلى التصديق الا خلق المعجزات وبظهورها على يد الكذاب يبطل دليل صدقهم فلا يبقى فى المقدور طريق يصدقون به فيلزم عجز الاله عن الممكن وذلك ممتنع . وقد عول على هذه الطريقة أبو الحسن الأشعرى وأصحابه كالأستاذين أبى اسحاق وأبى بكر بن فورك وكذلك القاضى أبو بكر فى مواضع من كتبه وكذلك القاضى أبو يعلى وأبو الحسن ابن الزاغونى.

(الطريق الثانى) هى التى اختارها أبو المعالى وأتباعه وقال انها الطريقة المرضية عند القاضى أبى بكر وهى التى أشار إليها أبو الحسن فى الامالى وهى طريقة أبى محمد الصابونى ونحوه من الحنفية ان المعجزات تدل من حيث نزلت منزلة التصديق بالقول والعلم بذلك يقع ضروريا بقرائن أحوال كالعلم بخجل الخجل ووجل الوجل وغضب الغضبان وحرارة المحر وفحوى كلام المخاطب المتكلم ولا يتوقف العلم بما هذا سبيله على نظر واستدلال فيتقبل عليه الاعتراض . قالوا ووجه ذلك ان الفعل الخارق للعادة إذا علم انه من قبل الله تعالى وانه

خارق للعادة وانه سبحانه فعله عند دعوى الرسالة والطلب وعند قول جار مجرى الطلب اما معينا وإما غير معين من المعجزات وانه متعلق بالدعوى ومطابق لها وان الله تعالى سامع لدعوى النبوة عليه وعالم بها فى مواضعة أهل لغة الرسول ثم فعل ما يدعيه الرسول انه ليس من فعله علم انه قاصد بذلك إلى تصديقه وان ما يفعله من الآيات فى مثل هذه الحال قائم مقام تصديقه له بالقول صدق أنا أرسلته على وجه يفهم الأمة التى يدعى فيها النبوة أنه قول صدق به من قبله بل التصديق له بالفعل أبعد من دخول الشبهة والاحتمال فيه وهو جار مجرى قول مدعى الرسالة على زيد ان كنت رسولك وصاحبك فاكتب بذلك رقعة أو اركب أو قم أو اقعد وما جرى مجرى ذلك من الافعال الظاهرة للحواس التى يعلم تصديقه بها إذا فعلها فإذا فعل زيد ذلك قام مقام قوله صدق هو رسولى وصاحبى الذى يعلم ضرورة قصده إلى تصديقه به وهذا واجب لا محالة قالوا وليس يمكن أن تدل المعجزات على صدق الرسل الا على هذه الطريقة فهى كذلك جارية مجرى أدلة الأقوال .

هذا حاصل كلام القاضى أبى بكر ابن الباقلانى فى أحد قوليه وأبى المعالى ونحوهما وضربوا لذلك مثلا فقالوا إذا تصدى ملك للناس وتصدر لتلج عليه رعيته وأتباعه وغيره واحتفل المجلس واحتشد وقد أرهق الناس شغل شاغل فلما أخذ كل مجلسه وترتب الناس على مراتبهم انتصب واحد من خواص الناس وقال معاشر الاشهاد قد حدث بكم أمر عظيم وأظلكم خطب جسيم وأنا رسول الملك اليكم ومؤتمنه لديكم ورقيبه عليكم ودعواى هذه بمرأى من الملك ومسمع فان كنت أيها الملك صادقا فى دعواى فخالف عادتك وجانب سجيتك وانتصب فى خدرك قائما ثم اقعد ففعل الملك ذلك على وفق دعواه وموافقة هواه فيتيقن الحاضرون علم الضرورة بتصديق الملك اياه وتنزيل الفعل الصادر منه منزلة القول المصرح بالتصديق .

فهذا العمدة فى ضرب المثال فان تعسف متعسف فى الصورة التى فرضنا الكلام فيها وزعم انه لا يحصل العلم بتصديق الملك لمن يدعى الرسالة كان ذلك جحدا منه لما علم اضطرارا فانا نعلم ببديهة العقول عندما قدمناه من القرائن حالا ومقالا ان أحدا

من الذين شهدوا وشاهدوا لا يستريب فى تصديق الملك لمدعى الرسالة ولا يعرض أحد منهم بعد ظهور الإمارات على تشكيك النفس وترديد القول ولا تحوجهم قضية الحال إلى سبر ونظر وإطالة فكر بل يستوى النظار الذين لا خبرة لهم فى النظر .

(فصل)

(قال المصنف) والدليل على نبوة الأنبياء المعجزات، والدليل على نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم القرآن المعجز نظمه ومعناه . (قلت) قد تبين أن النبوة تعلم بالمعجزات وبغيرها على أصح الأقوال ؛ وأما نبوة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام فانها تعرف بطرق كثيرة (منها) المعجزات ومعجزاته منها القرآن ، ومنها غير القرآن، والقرآن معجز بلفظه ونظمه ومعناه ، وإعجازه يعلم بطريقين جلى وتفصيلى ، أما الجلى فهو أنه قد علم بالتواتر أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ادعى النبوة وجاء بهذا القرآن ، وأن فى القرآن آيات التحدى والتعجيز كقوله تعالى (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فانى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون . أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) فتحداهم هنا أن يأتوا بمثله .

وقال فى موضع آخر : (فليأتوا بعشر سور مثله مفتريات) وقال فى موضع آخر : (فليأتوا بسورة من مثله) وأخبر مع ذلك أنهم لن يفعلوا فقال (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداؤكم من دون الله إن كنتم صادقين : فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار) بل أخبر أن جميع الإنس والجن إذا اجتمعوا لا يأتون بمثله فقال: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وقد علم أيضا بالتواتر أنه دعا قريشا خاصة والعرب عامة ، وأن جمهورهم فى أول الأمر كذبوه وآذوه وآذوا الصحابة وقالوا فيه أنواع القول مثل قولهم هو ساحر وشاعر وكاهن ومعلم ومجنون ، وأمثال ذلك وعلم أنهم كانوا يعارضونه ولم يأتوا بسورة من مثله وذلك يدل على عجزهم عن معارضته لأن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة .

ومعلوم أن اراداتهم كانت من أشد الارادات على تكذيبه وابطال حجته وانهم كانوا أحرص الناس على ذلك حتى قالوا فيه ما يعلم انه باطل بادنى نظر وفيلسوفهم الكبير الوحيد (فكر وقدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر) وليس هذا موضع ذكر جزئيات القصص إذ المقصود ذكر ما علم بالتواتر من انهم كانوا من اشد الناس حرصا ورغبة على اقامة حجة يكذبونه بها حتى كانوا من أشـــد الناس حرصا ورغبة على اقامة حجة يكذبونه بها حتى كانوا يتعلقون بالنقض مع وجود الفرق فانه لما نزل (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) عارضوه بالمسيح حتى فرق الله تعالى بينهما بقوله :(ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) وقال تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ، وقالوا أءآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) فمن عارضوا خبره بمثل هذا كيف لا يدعون معارضة القرآن وهم لا يقدرون على ذلك وقوله (ما تعبدون) خطاب للمشركين لم يدخل فيه أهل الكتاب ولا تناول اللفظ المسيح كما يظنه ظان من الظانين بل هم عارضوه بالمسيح من باب القياس يقولون إذا كانت الأنبياء من حصب جهنم لأنها معبودة كذلك المســـيح وهذا كما قال تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا) فانهم جعلوه مثلا لآلهتهم ولم يوردوه لشمول اللفظ كما يظن ذلك بعض المصنفين فى الأصول .

ولهذا بين الله الفرق بين المسيح وبين آلهتهم بأن المسيح عبد الله يستحق الثواب ولا يظلم بذنب غيره بخلاف الحجارة وان فى جعلهم من الأنبياء حصب جهنم اهانة له بذلك من غير ظلم ثم انتشرت دعوته فى أرض العرب ثم فى سائر الأرض إلى هذا الوقت وآيات التحدى قائمة متلوة وما قدر أحد أن يعارضه بما يظن أنه مثل .

ولما جاء مسيلمة ونحوه بما أتوا به يزعمون انهم أتوا بمثله كان ما أتوا به من المضاحك التى لا تحتاج المعرفة بانتفاء مماثلتها إلى نظر وذلك كمن جاء إلى الرجل الفارس الشجاع ذى اللامة التامة فأراد أن يبارزه بصورة مصورة ربطها على الفرس . كقول مسيلمة ياضفدع بنت ضفدعين كم تنقنقين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين رأسك فى المـاء

وذنبك فى الطين . وقوله أيضا الفيل وما أدراك ما الفيل له زلوم طويل ان ذلك من خلق ربنا الجليل وأمثال ذلك .

ولهذا لما قدم وفد بنى حنيفة على أبى بكر وسألهم أن يقرؤا له شيأ من قرآن مسيلمة فاستعفوه فأبى أن يعفيهم حتى قرؤا شيأ من هذا فقال لهم الصديق ويحكم أين يذهب بعقولكم ان هذا كلام لم يخرج من إلى أى من رب فاستفهم استفهام المنكر عليهم لفرط التباين وعدم الالتباس وظهور الافتراء على هذا الكلام وان الله سبحانه وتعالى لا يتكلم بمثل هذا الهذيان . وأما الطرق فكثيرة جدا متنوعة من وجوه وليس كما يظنه بعض الناس وان معجزته من جهة صرف الدواعى عن معارضته وقول بعضهم انه من جهة فصاحته وقول بعضهم من جهة اخباره بالغيوب إلى أمثال ذلك فان كلا من الناظرين قد يرى وجها من وجوه الاعجاز وقد يريد الحجر وان لم ير غيره ذلك الوجه واستيعاب الوجوه ليس هو مما يتسع له شرح هذه العقيدة .

(فصـــل)

(قال المصنف) ثم نقول كلما أخبر به محمـــد ﷺ من عـــذاب القبر ومنكر ونكير وغير ذلك من أهوال القيامة والصراط والميزان والشفاعة والجنة والنار فهو حق لأنه ممكن وقد أخبر به الصادق فيلزم صدقه . والكلام على هذا فى فصول (أحدها) أن يقال ان هذه العقيدة اشتملت على الكلام فى الايمان بالله سبحانه وبرسله واليوم الآخر ولا ريب أن هذه الأصول الثلاثة هى أصول الايمان الخبرية العلمية وهى جميعها داخلة فى كل ملة وفى ارسال كل رسول فجميع الرسل اتفقت عليها كما اتفقت على أصول الايمان العملية أيضا مثل ايجاب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وايجاب الصـــدق والعدل وبر الوالدين وتحريم الكذب والظلم والفواحش فان هذه الأصول الكلية علما وعملا هى الأصول التى اتفقت عليها الرسل كلهم .والسور التى أنزلها الله تعالى على نبيه عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة التى يقال لها السور المكية تضمنت تقرير هذه الأصول كسورة الأنعام والاعراف وذوات الر وحم وطس ونحو ذلك والايمان بالرسل يتضمن الايمان بالكتب وبمن نزل بها من الملائكة وهذه الخمسة هى أصول الايمان المذكورة فى قوله

تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) وفى قوله عز وجل (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً) وهى التى أجاب بها النبى ﷺ لما جاءه جبريل فى صورة اعرابى وسأله عن الايمان فقال: الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره والحديث قد أخرجاه فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وأخرجه مسلم من حديث عمر ابن الخطاب وهو من أصح الأحاديث فتلك الثلاثة تتضمن هذه الخمسة والله تعالى أنزل سورة البقرة وهى سنام القرآن وجمع فيها معالم الدين وأصوله وفروعه إلى أمثال ذلك فان النظر فيها وجه من وجوه الايجاب . ولما ذكر فى أولها أصناف الخلق وهم ثلاثة مؤمن وكافر ومنافق أخذ بعد ذلك يقرر أصول الدين فقرر هذه الأصول الثلاثة الايمان بالله ثم الرسالة ثم اليوم الآخر فانه أنزل أربع آيات فى المؤمنين وآيتين فى صفة الكافرين وبضعة عشرة آية فى صفة المنافقين ثم قال تعالى تقريراً للنبى ﷺ (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم) إلى قوله تعالى (بسورة من مثله) فانه ذكر التحدى هكذا فى غير موضع من القرآن .

(الفصل الثانى)

ان مسائل ما بعد الموت ونحو ذلك الأشعرى وأتباعه ومن وافقهم من أهل المذاهب الأربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية يسمونها السمعيات بخلاف باب الصفات والقدر وذلك بناء على أصلين .

(أحدهما) ان هذه لا تعلم إلا بالسمع . (والثانى) ان ما قبلها يعلم بالعقل وكثير منهم أو أكثرهم يضم إلى ذلك أصلا آخر وهو ان السمع لا يعلم صحته إلا بتلك الأصول التى يسمونها بالعقليات مثل اثبات حدوث العالم ونحو ذلك . وأما محققوهم فيقولون ان العلم بحدوث العالم ليس من الأصول التى تتوقف صحة السمع عليها بل يمكن العلم بصحة السمع ثم يعلم بالسمع خلق السموات والأرض ونحو ذلك . وأما الأصلان الأولان فنازعهم فيهما طوائف مثل أمر المعاد فانه قد ذهب طوائف إلى أنه يعلم بالعقل أيضا وهذا قاله طوائف من المعتزلة ومن غير المعتزلة أيضا من أتباع الأئمة الأربعة

حتى من أصحاب أحمد كابن عقيل وغيره والفلاســفة الالهيون يثبتون معاد النفوس بالعقل وقد وافقهم على اثبات معاد الأرواح بالعقل طوائف من أهل الـكلام والتصوف وغيرهم وان كان هؤلاء يثبتون معاد الأبدان أيضا اما بالسمع واما بالعقل .

(فالمقصود) أن العقل عندهم قد يعلم به اما معاد الأرواح واما المعاد مطلقـا . واما انكار الفلاسفة لمعاد الأبدان فهذا مما اتفق أهل الملل على ابطاله .

(الفصل الثالث)

أن من انتسب إلى الملل منهم من المسلمين واليهود والنصارى هم مضطربون فى ما جاءت به الأنبياء فى المعاد فالمحققون منهم يعلمون أن حججهم على قدم العالم ونفى معاد الابدان ضعيفة فيقبلون من الرسل ما جاؤا به ومنهم قوم واقفة متحيرون لتعارض الأدلة وتكافئها عندهم ومنهم قوم أصروا على التـكذيب ثم زعموا أن ما جاءت به الرسل هو أمثال مضروبة لتفهم المعاد الروحانى وهؤلاء إذا حقق عليهم الأمر صرحوا بأن الرسل تـكذب لمصلحة العالم وإذا حسنوا العبارة قالوا إنهم يخيلون الحقائق فى أمثال خيالية وقالوا ان خاصة النبوة تخييل الحقائق للمخاطبين وانه لا يمكن خطاب الجمهور إلا بهذا الطريق كما يزعم ذلك الفارابى وأمثاله مع أن الفارابى له فى معاد الأرواح ثلاثة أقوال متناقضة تارة يقول لا تعاد وينكر المعاد بالـكلية وتارة يقول انها تعاد وتارة يفرق بين لانفس العالمة والجاهلة فيقر بمعاد العالمة دون الجاهلة ولهم فى تفضيل النبى على الفيلسوف أو بالعكس نزاع فعقلاؤهم كابن سينا وأمثاله يفضل النبى على الفيلسوف وأما غلاتهم فيفضلون الفيلسوف ولا ريب أن أوليهم ليس لهم فى النبوات كلام محصل وكلامهم فى الالهيات قليل وإنما توسع القوم فى الأمور الطبيعية والرياضية ومصنفات معلمهم الأول أرسطو عامتها من ذلك والذى فيها من الالهيات أمر فى غاية القلة مع اضطرابه وتناقضه . فاذا عرف ذلك فما جاء به السمع من أمر المعاد قرره عليهم النظار بطريقين (أحدهما) ببيان الـكلام الصريح فى إثبات معاد الابدان وتفاصيل ذلك (والثانى) ان العلم بأن الرسل جاءت بذلك علم ضرورى فان كل من سمع القرآن والأحاديث المتواترة وتفسير الصحابة والتابعين لذلك علم بالاضطرار ان الرسول ﷺ أخبر بمعاد الابدان وان القدح فى ذلك كالقدح فى انه جاء بالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان وحج البيت

العتيق ونحو ذلك والقرامطة الباطنية وهم من الفلاسفة أنكروا هذا وهذا وزعموا ان هذه كلها رموز واشارات إلى علوم باطنة كما يقولون ان الصلاة معرفة أسرارنا والصيام كتمان أسرارنا والحج زيارة شيوخنا المقدسين ونحو ذلك مما هو مذكور فى الكتب المؤلفة فى كشف أسرارهم وهتك أستارهم ولهؤلاء القرامطة صنفت رسائل اخوان الصفا وهم الذين يقال لهم الاسماعيليه لانتسابهم إلى محمد بن اسماعيل بن جعفر .

(قال ابن سينا) كان أبى وأخى من أهل دعوتهم ولهذا اشتغلت بالفلسفة . وأما الفلاسفة الذين لم يدخلوا فى القرمطة المحضة فهم لا ينكرون العبادات والشرائع العملية بل قد يوجبون اتباعها والعمل بها لا سيما من دخل منهم فى التصوف أو الكلام لكن منهم من يوجب اتباعها على العامة دون الخاصة أو يوجبها من غير الوجه الذى أوجبها الرسول كما يجوزون أن يكون بعد محمد ﷺ من يأتى بشريعة أخرى ويقولون ان أحدهم يخاطبه الله سبحانه وتعالى كما خاطب موسى بن عمران ويعرج به كما عرج بالنبى ﷺ وأمثال هذه المقالات التى كثرت لما ظهرت الفلسفة التى أفسدت طوائف من أهل التصوف والكلام .

(الفصل الرابع)

انه إذا ثبتت الرسالة ثبت ما أخبر به الرسول مما ينكره بعض أهل البدع كعذاب القبر وسؤال منكر ونكير وكالصراط والشفاعة والحوض ونحو ذلك مما استفاضت به الأحاديث الصحيحة عن النبى ﷺ وقد يستدل عليه بدلائل من القرآن أيضا لكن ليس التصريح به فى القرآن والتصريح بالجنة والنار وقيام القيامة وحشر الخلق ولهذا لم ينكر القيامة ومعاد الابدان أحد من أهل القبلة وأنكر هذه الأمور التى جاءت بها الأحاديث المستفيضة بل المتواترة عند علماء أهل الحديث طوائف من أهل البدع اما من المعتزلة واما من الخوارج واما من غيرهما .

(الفصل الخامس) .

ان هذا الصنف وأمثاله إنما يذكرون الايمان بالسمعيات على طريق الاجمال واما العلم بتفصيل ذلك فانما يعرفه من عرف الأحاديث الصحيحة فى هذا الباب وما جاء فى ذلك من آيات القرآن الكريم وتفسيرها الثابت عن الصحابة والتابعين ونحوهم .

(الفصل السادس)

انه إذا علم أن محمداً ﷺ رسول الله وأن الله تعالى مصدقه فى قوله انى رسول الله إليكم والرسول هو المخبر عن المرسل بما أمره أن يخبر به علم بذلك انه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى إذ الكاذب فيما يخبر به ليس برسول فى ذلك كما أن الذى لم يرسل بشىء قط هو كاذب فى كل ما يخبر به عمن زعم انه أرسله بالأمر كما قال ﷺ إذا حدثتكم عن الله فلن أكذب على الله وكما يعلم انه صادق فى قوله (انى رسول الله إليكم) يعلم انه صادق فى قوله : ان الله تعالى يقول لكم كذا ويأمركم بكذا فتكذيبه فى هذا الخبر المعين كتكذيبه فى الاخبار بأصل الرسالة والطرق التى بها يعلم صدقه فى المطلق يعلم بها صدقه فى المعين وأولى فان ما دل على الصدق فى كل ما يخبر عن الله دل على الصدق فى هذا الخبر المعين كالمعجزة وان المعجزة دلت على صدقه فى دعواه ودعواه انى صادق على الله فيما أخبر به عنه لم يدع الصدق عليه فى بعض الأمور التى يخبر بها عنه دون بعض بل قال الله فيما أخبر به عنه (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) وقال تعالى (أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشاء الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور) وقال تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقران غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان اتبع إلا ما يوحى إلى انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) وقال تعالى (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا * ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيأ قليلا) (وقال موسى يافرعون انى رسول من رب العالمين حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق) والرسول الذى يكذب على مرسله مثل الذى يكذب فى أصل الرسالة والله تعالى عالم بحقائق الأمور فلا فرق بين اظهار المعجز على يد من يكذب فى أصل الرسالة أو يكذب فيما يخبر به عن مرسله .

(الفصل السابع)

انه إذا ثبت صدقه فى كل ما يخبر به عن الله تعالى فيما أخبر به عنه القرآن فانه قد علم

بالاضطرار انه بلغ القرآن عن الله سبحانه وأخبر أن القرآن كلام الله لا كلامه ومما أخبر به الله فى القرآن ان الله أنزل عليه الكتاب والحكمة وانه أمر أزواج نبيه عليه الصلاة والسلام أن يذكرن ما يتلى فى بيوتهن من آيات الله والحكمة وانه امتن على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .

(ومن المعلوم) أن ما يذكر فى بيوت أزواج النبى ﷺ اما القرآن وإما ما يقوله من غير القرآن وذلك هو الحكمة وهو السنة فثبت ان ذلك مما أنزله الله وأمر بذكره . وقد أمر الله تعالى بطاعته فى القرآن فى آيات كثيرة وقال (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال عز وجل (والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى * وماينطق عن الهوى ان هو إلا وحى يوحى) وقال سبحانه وتعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) فهذا وأمثاله يبين أن الله عز شأنه أوجب اتباعه فيما يقوله وإن لم يكن من القرآن وأيضا فرسالته اقتضت صدقه فيما يخبر به عن الله تعالى من القرآن وغير القرآن فوجب بذلك تصديقه فيما أخبر به وان لم يكن ذلك من القرآن والله سبحانه أعلم .

والحمد لله والصلاة على خاتم رسل الله محمد وآله وصحبه أجمعين

(ترجمة المصنف منقولة من طبقات الخضيرى بخط المؤلف)

هو محمد بن محمود بن محمد بن عبد الكافى الاصفهانى شمس الدين الامام العلامة الفقيه الأصولى المتكلم النحوى أبو عبدالله مولده باصفهان سنة ٦١٦ وكان والده نائب السلطنة باصفهان . واشتغل باصفهان بجملة من العلوم فى حيـــاة أبيه بحيث انه تميز ومات بظراؤه . ثم لما استولى العدو على اصفهان رحل إلى بغداد وأخذ فى الاشتغال فى الفقه على الشيخ سراج الدين الهرقلى وبالعلوم على الشيخ تاج الدين الارموى . ثم ذهب إلى الروم إلى الشيخ اثير الدين الابهرى فأخذ عنه الجدل والحكمة واتقن هذه العلوم على طريقة العجم ودخل إلى هذه البلاد وسمع الحديث بحلب من طفربك بن عبد الله الحسنى وغيره ودخل إلى دمشق بعد الخمسين وستمائة وناظر الفقهاء واشتهرت فضائله . ثم انتقل إلى القاهرة واشتهر بها أمره وتولى قضاء قوص مدة ثم قضاء كدك ثم رجع إلى القاهرة ودرس بها بالمشهد الحسينى ثم بقبة الامام الشافعى وصنف التصانيف الحسنة التى منها شرح المحصول . وهو حافل كبير مات ولم يكمله سماه الكاشف عن المحصول وكتاب

القواعد فى العلوم الأربعة : الأصلين والخلاف والمنطق . قال الشيخ تاج الدين الفزارى صنف كتابا سماه القواعد ، فيه مقدمة فى أصول الفقه ومقدمة فى أصول الدين ومقدمة فى المنطق ومقدمة فى الجدل وأراد أن يجعل فيهما شيأ من الفروع فلم يطق لأنه لم يكن متبحرا فى المذهب سمعت انه علق من كتاب الطهارة إلى آخر كتاب الحيض ووقف وله كتاب غاية المطلب فى المنطق وشرح الحاجبيـــة فى النحو شرحا مطولا وغير ذلك وتخرج به طلبة مصر وناظر الفقهاء واشتهرت فضائله وانتهت إليه الرياســة فى أصول الفقه وكانت له يد باسطة فى النحو والأدب ، ذكره الشيخ تاج الدين الفركاح وقال لم يكن فى زمانه مثله فى علم الأصول ، دخل حلب وناظر فقهاءها وأقروا بغزارة علمه وقال ابن الزملكانى اشتهر بعلم أصول الفقه واشتغل الناس عليه ورحل إليه الطلبة وكانت له يد فى علم أصول الفقه والخلاف والمنطق وشرح المحصول شرحا كبيرا فيه نقل كثير لم يحتو كتاب على نقله لكنه اذا انفرد بسؤال وجواب كان فيه ضعف وله فى المنطق كتاب سماه غاية المطالب وكان قليل البضاعة فى العــلوم النقلية وقال الذهبى له يد طولى فى العربية والشعر وتخرج به المصريون وقال الادفوى فى البدر السافر كان متدينا عاقلا لبيبا صحيح المعتقد خرج من اصفهان شابا فاشــتغل ببغداد وقدم إلى مصر فولاه ابن بنت الأعز قضاء قوص فسار سيرة حسنة بشهامة وصرامة تعرض الحاجب بقوص فى بعض الأمور الشرعية فضربه بالدرة وكان إذا أخذ فى الدرس لا ينزعج ولا يغضب . قال النور الاشنائى قرأت عليه فى الأصول ثم أردت أن أقرأ فى المنطق فقال لا . حتى تمتزج بالعلوم الشرعيات امتزاجا جيدا وكان أبو حيان يعظمه وكذا غيره حتى قالوا لم يرد من العجم إلى مصر فى تلك الأعصــار أكمل منه ثم نقل عنه تصحيفات فى القرآن وفى رجال الحديث .

ثم قال له نثر حسن * مات فى رجب سنة ٦٨٨ ودفن بالقرافه رحمه الله تعالى

تم بحمد الله وعونه طبع كتاب (شرح العقيدة الاصفهانية) لشيخ الاسلام الامام أبى العباس أحمد بن تيمية بمطبعة الاعتصام ٣ عطفة اسماعيل كاشف بالخيامية بالقاهرة فى ١٢ ربيع الثانى سنة ١٣٨٥ هـ ـ الموافق ٩ أغسطس سنة ١٩٦٥ .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين